المقتطف

الجزء الاول من المجلد الثالث عشر بعد المئة

١ يوليو سنة ١٩٤٨ — ٢٣ رجب سنة ١٣٦٧

التكافل الاشتراكي

نظرية مّا في النظام الاجتماعي

٦ — موانع التكافل الاشتراكي [1]

(١) طغيان المصلحة : فردية أو جماعية (٢) التطفل (٣) جمود النظامات (٤) تفاوت فرص الحياة (٥) تنافر الاستجابات : هو استغلال الرخص القانونية بما يحلل من روابط التكافل الجماعي ، كاتخاذ وسائل النشر لطرح سيلا لمصلحة فردية أو جماعية ، قليلة مضر بناحية منها ، وطبيعة المجتمع السليم القائم على القواعد التكافلية يتطلب ما نسميه تناسق الاستجابات (٦) تكاثف سلطات عليا على استغلال السلطة الجماعية الطبيعية أو محوها : كتكاثف سلطات الحكم وسلطات الدين على استغلال الحمية التي هي مصدر كل السلطات

طغيان المصلحة

بلغنا الآن من البحث مبلغاً نظنه كافياً لتعريف بصورة مجملة من نظريتنا في التكافل الاشتراكي ، فمكننا من الكلام في موانع ذلك التكافل . وينبغي لي أن أنبه هنا إلى أن موانع التكافل كثيرة متعددة ، لو أردنا أن نلمّ بها لاحتجنا الى فراغ كبير لا يتسع له صدر بحث موجز كبحثنا هذا . وإنما نقتصر على الكلام في بعض صوره الظاهرة ، وإن كانت من أفعل ما يصد الجماعات عن بلوغ الطور التكافلي في حياتها الجماعية .

(١) نشرنا خمسة للبحوث السابقة في اعداد ديسمبر : ١٩٤٧ ويناير وفبراير وابريل ومايو ١٩٤٨

تكلمت من قبل في الحرية الفردية وفي المساواة الجماعية ، وأبنت أن الحرية قد تطغى على مصالح الجمعية كما أبنت أن المساواة وهم من أوهام العقل .

كتب باحث نفساني كتاباً أسماه « نهاية وهم » وقصد بذلك الدين . وما كان أجدره أن يعقب عليه بكتاب آخر يسميه « بداية وهم » قاصداً بذلك مبدأ المساواة الذي يقوم عليه كل نظام ضمني : Collectivist أو كما يسميه البعض « النظام الجماعي »

ويفسّر الشيوعيون للعالم بما سموه « تحكيم الجماهير » ، ونعني بها « دكتاتورية الجماهير » وهي عبارة غامضة المعنى إن لم تكن عارية من المعنى بتاتاً ، ولكنك تستبين معناها اذا علمت أن ما قصد بتحكيم الجماهير Dictatorship of the Proletarin الجماهير تحكيم فردية تستذل « تحكيم الجماهير » ، وهذه هي التحكيمية الحقيقية ، التي استعانت الى بلوغ السلطة الفردية الاستبدادية من طريق الوهم ، وهم أن هناك شيئاً يقال له تحكيم الجماهير ، وما هي في حقيقة الواقع الا التحكيمية في تحكيم الجماهير ، واذا كان المعنى الذي يراد به أن يُستفاد من عبارة تحكيم الجماهير ، هو أن تكون الجماهير مصدر السلطات في نظام شيوعي ، فما هو السبب في قيام دكتاتورية فردية في بلد مثل روسيا مثلاً ؟ ذلك دليل ثابت على أن تحكيم الجماهير ليست غير وهم مفضوح .

ولا تقل بعض مظاهر الفردية ضرباً في مهامه الخيال من تلك الأشياء التي ذكرت . من ذلك القول بحق الملوك الالهي ، والقول بأن الكنائس وسلطات الدين موكلة عن الديان الأعظم في هذه الأرض ، ونزوع بعض الملوك الى الدعوى بأنهم ظلال الله في هذه الدنيا ، وجنوح كثير من أصحاب المصالح الى القول بتقسيم الأرزاق في عالم الغيب ، الى غير ذلك من سخافات العقل وسخافات الوضع .

جماع ذلك أوهام لم يقصد بها إلا تغليب منفعة ناحية من الناحيتين ، ناحية الفردية حيناً ، وناحية الجماعية حيناً آخر ، تغليباً من شأنه القضاء على كل نظام تكافلي في بناء الجمعية بالرغم من أنه النظام الطبيعي الذي ينبغي أن يقضي على كل موانعه حتى يتحقق بالعمل ، ويسمح واقعاً في كل نظامات حرة تحدد للفرد حاجاته التي لا تعد تطوره نحو الكمال وتمكنه من تنمية مواهبه الابتكارية ، وتحدد للجمعية مثل ذلك . وعلى الجملة تتولى إن النظام

الطبيعي الذي يجدر أن يكون نظاماً انسانيًا هو نظام يقتفي فيه على مبدإ التفاضل المصطنع، القائم على مثل الأوهام التي ذكرناها ، لينسج الطريق لمبدإ التكافل الطبيعي الذي هو نظام الكون الطبيعي في مجموعه، ونظام الحياة العاقلة الذي ينبغي أن يكون .

فكل نظام وكل قانون وكل شريعة تنتمي أغراضها الى طغيان الفرد على الجمعية أو طغيان الجمعية على الفرد، مبدأ من شأنه أن يمنع التكافل، وبالحري من شأنه أن يعمد الجمعية والفرد كليهما عن التطور نحو النظام التكافلي . وبقدر ما يكون في النظام أو القانون أو الشريعة من مرونة وليونة تساير حاجات التطور الفردي والجماعي، يقاس مقدار صلاحية ذلك النظام أو القانون أو تلك الشريعة لحياة الافراد ولحاجات الجمعيات .

التطفل

من الظاهرات الاجتماعية التي تمامها وضخمها وأربأها وراثات الانسان القديمة، وبخاصة عصر الاقطاعات وعصر الاستبداد الفردي وعصر التحكمات ، سواء أكانت تحكمات أفراد أو تحكمات أقليات ، ظاهرة التطفل في الاجتماع .

نعم نقول إن وراثات الانسان القديمة قد نمت أسباب التطفل الاجتماعي وضخمتها وأربتها. ولكن نخطئ كل الخطأ اذا قلنا إن هذه الوراثات قد خلقت التطفل خلقاً من عدم . ذلك بأن التطفل ظاهرة حيوية لها آثارها الجلي في عالم الحياة ومن ثم يكون لها أثر في المجتمعات الاحيائية ، ولكن آثارها هذه تختلف قوة وضعفاً قياساً على ما ترث كل جماعة من تاريخها الأول. وسنحاول أن نضع تعريفاً للتطفل . ولا أدعي أنه من المستطاع وضع تعريف جامع مانع لهذه الظاهرة . وانما أحاول أن أضع تعريفاً وصفيًا أرجو أن يجمع في تضاعيفه المعنى المستفاد من التطفل في عالم الاجتماع .

قد نقول إن الفرد السوي (ونقصد به الوحدة العضوية التي تتألف منها الجمعية) هو الذي يكفل حياته بما فيها من حاجات بقدر من الجهد يبذله بحيث يُنتج من القيمة قدراً ما يقوم بهذه الكفالة أو يزيد عنها . هو الذي يستخلص من محيطه ما يقوم بحاجات حياته من الضروريات ، أو ذاك الذي يأخذ من غيره من أفراد الجمعية أجراً نقديًا إزاء عمل يؤديه ولكن الجماعات الانسانية ، حتى البدائية منها ، ومنذ أقدم أزمان التاريخ ، قد نشأت

بطراز من الأفراد سعياً الى استخلاص حاجات حياتهم من غيرهم من أفراد الجمعية من غير أن يجبروا الجمعية جهداً يساوي من حيث القيمة ما يستهلكون . هذا الفرد هو الذي يسمى في العرف الاجتماعي طفيلياً أو متطفلاً ، تشبيهاً له بالعضويات التي تعيش متطفلة على غيرها من الأحياء .

فجمعية من الجمعيات يزيد فيها الافراد المتطفلون ، تضعف فيها رابطة التكافل ، وأخرى يقلون فيها ، تقوى فيها رابطة التكافل . فكلما كان انتاج كل فرد موازياً في القيمة لحاجاته ، كانت الموازنة بين أجزاء الجمعية أبعد عن التراوح بين الجذب والدفع والأخذ والرد . وأمكن أن يقوم بين أفرادها حالة تكافلية بعيدة عن مؤثرات التزاحم على كسوب غير مشروعة ، ولم يصبح جزء من الجمعية مطالباً ببذل جهد أزيد مما يستطيع أن يحتمل في سبيل القيام بأود الطفيليين من أفرادها .

ولم يقتصر التطفل في الجمعيات الحديثة على الأفراد ، فقد نشأ مع طغيان النظام الرأسمالي ، جماعات متطفلة اقتنصت من جهود العمال والصناع والزراع ، واتخذت من قوة القوانين والنظام تكأة لتطفلها ، ومضت تعيث ، في حدود القانون ، بالقانون وبالشرائع وبالآداب ، بل لعلهم كانوا في عالم تلك ، أول من أساء استعمال الحق القانوني الذي ما كان ليصبح قوة انشائية إلا بالتزامه حدوداً مُعَيَّنة من الترخص فيه ، لا أن يذهب إلى تلك الحدود التي قضت على كل وجه من وجوه التكافل في الجمعية .

* * *

جمود النظامات

لم يخلق الانسان من أجل السبت ، وإنما خلق السبت من أجل الانسان . هذا ما في الانجيل . والقول الحق الآن هو ان الإنسان لم يخلق من أجل النظامات المدنية ، وإنما خلقت النظامات من أجل الإنسان . وكذلك الحال في جميع ما يتعلق بالحياة الانسانية من حيث إنها حياة تطورية ارتقائية . فالقوانين والشرائع والعقائد وضروب الفلسفة بألوانها إنما خلقت ، أي خلقها العقل والطبع ، من أجل الإنسان ، ولم يخلق الإنسان من أجل هذه الأشياء .

وإنما خرج الانسان من وراثاته القديمة بنظامات رمت كلها إلى أن الإنسان خلق من أجل أن يكون عبداً لنظامات معينة ، رقيقاً لقوانين بذاتها وشرائع وآراء ، قامت كلها على فكرة أن الإنسان خلق جامد لا يتطور ولا يتبدّل ، ونظرت في العقل على أنه مبدأ الجموح في الطبيعة البشرية ، وإلى الفكر إلى إنه مبدأ الانقلاب . وإنما يجمح العقل ويرمي الفكر إلى الانقلاب احتجاجاً على قيام حالات لا تواتمهما ، كالمعدة إذا اكتظت بالطعام الفاسد احتجّ القلب واحتجت الأمعاء وثارت على الحي تطالبه بأن يفرغ معدته مما فيها . فاحتجاج العقل وثورة الفكر ، إنما هي استجابات طبيعية لنشوء حالات غير طبيعية في المجتمع .

ولكن القوى التي تستفيد من استقرار حالات اجتماعية معينة ، وهي غالباً القوى التي تنتفع أكبر النفع من الحياة التطفلية الوادعة في كنف الجماعة العاملة المنتجة ، تعمل دائماً على أن تركز جهدها في حماية النظامات والقوانين والشرائع ، فيصيبها الجمود ، وتخرج عن كونها أشياء خلقت من أجل الانسان في جملته ، إلى أنها أشياء خلقت لأقلية تُرضَى بها ، دون أكثرية كبيرة تثور عليها .

وإن جمود النظامات ولا شك عامل من أقوى العوامل عن حل رابطة التكافل ، ونذير بفسادها .

* * *

تفاوت فرص الحياة

من شأن النظام الرأسمالي الذي خرجت به الجماعات من وراثاتها القديمة ، أن يجعل فرص الحياة بين الأفراد متفاوتة تفاوتاً كبيراً ، حتى لقد يقضي هذا التفاوت على مواهب طبيعية وكفايات نادرة ، يحول دون ظهورها وبروزها وتأثيرها في المجتمع ، عجز مالي أو اقتصادي .

وفي كل الجماعات القائمة اليوم نظامات تجعل هذا التفاوت ضرباً من العجز يصيب الجماعات في ثمراتها الاجتماعية ، ويعني بها الأفراد . فهي تحد من كفايات الأكثرية ، وتفسح الطريق إلى كفايات الأقلية ، في حين أن المعقول والطبيعي أن تنقلب هذه الآية ، فيقوم النظام بحيث يجعل للأكثرية فرصة إظهار ما فيها من الكفايات التي لا تتمتع بها الأقلية وحدها . بل إن طبيعة الأشياء تقضي علينا بأن نعتقد ، ومن طريق احصائي صرف ، أن الكفايات الكامنة

في أكثرية ما ، هي أكبر كمية من الكفايات الكامنة في أقلية ، مع فرض ان هذه الكفايات لا تختلف من حيث النوع والصفة .

وهذا النوع من الكسب له أثره البالغ في التأثير على الحياة التكافلية في الجمعية . ذلك بأن كل فرد في جمعية تكافلية يجب أن يمنح من الفرص قدراً يمكنه من استخدام كفاياته إلى الحد الذي يعجز عنده عن تجاوزه في الحياة .

* * *

تنافر الاستجابات وتجانسها

إذا كان لكل منبه من المنبهات الطبيعية استجابة معينة تحدث في الجسم الحي، فكذلك المجتمع ، كل منبه يصيبه ، لا بد من أن يحدث استجابة من ناحية من نواحيه . وقد تتنافر هذه الاستجابات أو تتناسق وتتجانس ، بحسب نوع المنبه واستعداد الجماعة .

على أني اعتقد ان المنبه هو الذي يكيف نوع الاستجابة . فقد يقع في كثير من الحالات ان منبهات مّا قد أحدثت استجابات مخالفة تماماً لما يتوقع منها . وأخرى أحدثت استجابات لم تكن تتوقع . وهذا دليل على أن الجماعات كالاجسام يتكيف استعدادها بصور عديدة ، تعمل في الأثر الذي تخلفه المنبهات فتحدث من الاستجابات ما لا يتلاءم والأثر المنتظر منها .

هنالك شعوب تأثرت ثورات خاصة لأسباب لا تتوازن والمنبهات التي أحدثتها، وشعوب أخرى استكانت وذلت وخضعت لظروف كان من السهل جداً أن تليذها تلك الشعوب وتخرج من قيودها عزيزة الجانب شامخة الأنف ، بأقل ما يتصوّر من مجهود . ومرت أدوار على أمم استذلتها فيها أساطير وأوهام ، هي من البطلان والضعف بحيث لا يمكن أن يكون لها أثر الى جانب اية قدرة عقلية على التفكير . فالاستجابة الى تلك الأوهام إن هي الا أثر المنبه الذي أحدثها ، أثر الاعتقاد في الغيب اعتقاداً قائماً على ان للغيب الأثر الأول في حالات هذه الحياة .

كذلك نجد أن لكل فرصة من فرص الحياة ، وما هذه الفرص الا منبهات التي تظهر استجاباتها في الأفراد ، سنداً يسندها من نظام أو قانون أو شريعة ، لحرية النشر مثلاً ، وهي

من دعامات الحضارة ، منبه استجابته عند بعض الأفراد الانجذاب بالآراء والتضليل ونشر الخرافات والأوهام ، واستجابته عند البعض الآخر نشر النور والعرفان وتزويد الثقافات المختلفة بعواملها الناجحة . وما الحال الأولى الاّ دليلاً على تنافر الاستجابات ، وما الثانية إلاّ دليلاً على تجانسها .

وما تجانس الاستجابات الاّ الدليل الأوفى على أن الجمعية فيها من قدرة التكافل قدراً يقضي على تنافرها ، والعكس بالعكس . وعلى هذا يقضي التكافل بأن يقوم النظام بحيث تمحى منه كل الاستجابات المتنافرة لتظل عقدة التكامل قائمة على أساس من تجانس الاستجابات .

* * *

تكاتف السلطات

من موانع التكافل الاشتراكيّ أن تتكاتف سلطتان أو أكثر على الاحتفاظ بحالة معينة ، تطورها مضرّ بمصالح هذه السلطات . ففي كثير من حقب التاريخ تضافرت سلطات الحكم وسلطات الدين على قمع الحرية وكبت الفكر . حدث ذلك في مصر القديمة وروما ، وحدث في الأعصر الحديثة في فرنسا ، وظهرت آثاره جلية واضحة في ثورة الفلاحين في المانيا .

وفي حقب أخرى تنافرت مصالح أهل الحكم ومصالح أهل الدين ، فكانت النتيجة أن عمد أهل الدين الى تضليل الجماهير حتى تظل حصينة لينة في أيديهم ويتم خضوعها لهم ، فيتخذون منها أداة لمقاومة طغيان أهل الحكم .

* * *

وهكذا نرى أن الأسباب والحالات التي تمنع من التكافل الاشتراكي في المجتمع كثيرة متعددة ، وهي تستحق أن تكون موضع درس مسهب سنفرغ له عند ما يتم درسنا لهذه النظرية .

اسماعيل مظهر

سحابة

عصفت بها الأنواء فاصطفقت ... في صفحة الجوزاء من ذعر
فكأنها والريح تزجها ... فلكٌ هوت في لجة الغمر
هاجتها خفقت معلقة ... كجناح نسر حطّ من وكر
أو كالشراع يرف من قلق ... خوف الحطم وزحمة الغمر
ورأيتها والليل معتكرٌ ... كلاءة مطوية الستر
والريح تنشرها وتقبضها ... قسراً وتزجي الشطر بالشطر

* * *

خفقت كأعلام اذا اصطفقت ... يوم الوغى من نشوة النصر
وتجيش في الآفاق صاخبة ... مثل الحطيم يجيشُ بالذعر
تنساب مثل الصلّ أخضره ... طلٌّ همى من ريّق الفجر
واذا ارتمت في الأفق تحسبها ... حوتاً يزاحم لجة البحر

* * *

طوت الفضاء الرحب دون هدى ... كشريد في مهمهٍ قفر
وإذا حدا ركب الرياح بها ... سالت مدامعها على النحر
وإذا تملكها الشجا شهقت ... واسترسلت عبراتها تجري
تبكي بكاء الصبّ أوجعهُ ... مدُّ الحبيب ولوعة الهجر
أو مثلما هتفت مطوّقة ... وهنا لفرط وساوس الصدر

* * *

آمالنا سحبٌ مشتتة ... تطوى وتنشر دون ما ندري
تجتاحنا الأيام ساخرة ... كالريح تزجي السحب بالزجر
لله آمال مروحة ... عبث بدوحتها يد الدهر
لا تستقر كأنها كرةٌ ... يوماً على حالٍ من الدهر

(دمشق)

عبد الله عريم بك

نظرات في النفس والحياة

— ٨ —

نظرات مارسيل بروست

ينتمي مارسيل بروست إلى أسرة يهودية فرنسية نشأت نشأة مسيحية كاثوليكية وله صلة قرابة بالفيلسوف الفرنسي المشهور هنري برجسون . وكتب مارسيل بروست على سعوبة قراءتها لايستغنى عنها الباحث في النفس . وقد وجد نقاداً ومعجبين به . فمن نُقّاده من ذكر أنه ينظر إلى الحياة بالمكرسكوب أي العدسة التي يُنْظَرُ بها إلى الأمور الصغيرة . فقال بروست انه ينظر بالتلسكوب أي العدسة التي ترى بها الأمور البعيدة والواقع أنه ينظر بالاثنين معاً بالمكرسكوب والتلسكوب . ومنهم من شبهه على سبيل الفكاهة مع جين اوستن الفرنسية ، يعني القصصية الانجليزية المعروفة وهذا الوصف لايشابه الحقيقة إلاّ كما تشابه الحقيقة الصورة الكاريكاتورية المبالغ في بعض ملامحها على سبيل الفكاهة . وصحيح أنه يتفق وجين أوستن في ولوعهما بأحاديث المجتمعات والمجالس في القصص وان لكل منهما بصيرة سيكولوجية وإنهما قد يمتازان بالأمور الصغيرة ولكن بروست يتوغل في الأمور السيكولوجية أي النفسية توغلاً لا مثيل له . وقد نشأ مريضاً مُشْتَغِلاً وقضى الثلث الأخير من حياته في بيته لمرضه . وأتهمه ناقد آخر بأنه كان في اكثر قصصه مولعاً بحياة النبلاء والأغنياء ومن الخدم وإنه لم يرَ الحياة كاملة من كل وجه كما رآها شكسبير أو بلزاك أو أناتول فرانس ولكن ولوعه بحياة هؤلاء القوم كان ولوع الباحث لا ولوع المعجب المأخوذ بما يرى . وإذا وصل في بحثه إلى حقيقة سيكولوجية فإنها حقيقة في كل النفوس بلا تمييز بين الطبقات . وقد نشأ لاعتلاله بين النساء ولعلّ ذلك أكسبه شيئاً من أسلوب النساء في التحدث عن حبر انهنّ والاهتمام بأحاديث المجتمعات مهما كانت

تلك الأحاديث صغيرة واعطاء تلك الأحاديث في بعض الأحايين قيمة نفسية أكبر من قيمتها. ولكن القارىء إذا صبر على قراءتها عاد بفائدة ما قد تحتويه في بعض الأحايين من الدراسات النفسية التي تتخللها وبالرغم مما قد يعترض القارىء فيها من الملل فإن في بعض كتبه قطعاً لا يمل القارىء معاودة قراءتها . وقد يستطرد في تتبع البحث النفسي استطراداً بعيداً وله أسلوب شائق في وصف مناظر الطبيعة والناس . وقد اعترف سمرست مُوَام القصصي في كتابه المسمى بالخلاصة ، انه شعر بملل شديد في قراءته كتاب (طريقة جرمانتيس) من كتب بروست، وقد شعرت بمثل هذا الملل ولعلّ من أسباب الملل أيضاً إن القارىء يود أن يقرأ عن حوادث هامة، وقصصه ليست قصص حوادث بل قصص زيارات وأحاديث أو بحث نفسي ، أو يود أن يقرأ شيئاً من مثل فكاهة أو سخر أناتول فرانس الحلوي . وقد ذكر هافلوك إيليس في كتابه المسمى رقعة الحياة وهو اسم رمزي مدحاً كثيراً لطريقة بروست في البحث النفسي ولا سيما في كتابه المسمى (في الأجمة المزهرة) وأحسب ان هافلوك إيليس كان مصيباً في اختيار هذا الكتاب من كتب بروست ولو أن بعض المعجبين به يفضلون كتابه المسمى (طريقة سوان) ولكني أفضل ما اختاره هافلوك إيليس وأراه أملاً لنفس القارىء . إلاّ إني أرى ان كاتباً مثل بروست لا ينال الانصاف التام ولا يعرف مقدار محنه في النفس إلاّ بقراءة كتبه كلها اذا كان ذلك من المستطاع . وبروست يذكر أن حياة الأرياء التي يصفها حياة تبعث الملل بالرغم من وجاهتها وزينتها . فاذا كان ذلك حقّاً فهو يزيد في براعة فنه الذي به استخلص هنا الحقائق النفسية العديدة .

ومن نظراته النفسية ما يلي : —

(١) كثير من الناس يردّدون آراء معاشريهم بشغف واهتمام خاص إذا كانوا لم يعرفوها من قبل ولا يستطيعون الحكم عليها أصواب هي أم خطأ ، وإنما يرامون بترديدها واظهار اللهفة في ذكرها قد يقنعوا السامع انها آراءهم وانهم قادرون على فهمها والحكم عليها .

(٢) قد يسوء رأي المتحدث في سامعه ولكنه مع ذلك يشركه في سماع ذم انسان آخر غائب، كأنما السامع خالياً من صفات الذم التي ذكرها، فيسرع سامعه الى التصديق والموافقة بشغف ولهفة وبضحك ومسرة كي يبعد عن نفسه احتمال الوصف بالصفات المذمومة المذكورة

وهو قد يعرف ان محدثه يغتابه كما اغتاب الغائب ويذمه في غيبته كما ذم الآخر. ولكن ذلك لا يمنعه من مشاركته في ذم المذموم ظناً منه ان موافقته قد تبعد الريبة عن نفسه وتمنع محدثه عن اغتيابه في المستقبل. وهذه منه محاولة خائبة ولكنها تتجدد وتبعث الأمل والزهو والارتياح.

(٣) في بعض الأحايين تبدر من انسان شرير بادرة حنان وعطف أو يؤدي معروفاً غير متوقع فنشعر بارتياح نحوه وشكر له أكثر من ارتياحنا وشكرنا إذا كان غير شرير. ولعل شكرنا وارتياحنا تلهفاً إلى الاطمئنان من شره وارتياحاً لزوال توقع الشر منه أو ضرورة وتعاظماً باختياره إيانا لعطفه وخيره وإن اختار غيرنا شره. وهذا بالرغم من اننا قد نسيء الظن بالباعث الذي بعثه على الخير وهو شرير. ولعلنا لا نشعر بهذه الفهمة والارتياح إذا كان العطف أو المعروف من رجل من أهل الخير لأن العطف أصبح مفروض ومتوقع من مثله.

(٤) من طبيعة الكذب أن الكاذب مهما أتقن كذبه، تبدر منه فلتة صغيرة في أثناء إحكام الكذب وحبكه. وهو يظن ان سامعه لا يهتم بالتأكد من صدقها والبحث عن حقيقتها لصغر شأنها. ولكن سامعه قد يتتبعها بالبحث ويتأكد من كذبها فتكون سبباً في كشف كل كذبه وتدعو إلى سوء الظن به وسوء الرأي فيه. وقد تطلع هذه الفلتة الصغيرة سامعه يقظة على كذبه فيُفاجأ الكاذب مفاجأة غير سارة ويحاول تفسيرها وتلافيها فلا يستطيع. وهذا كما يقال في المجرم الذي يفكر ويتخذ كل أهبة لمنع نسبة الجريمة إليه ثم هو بالرغم من كل تفكيره واحتياطه يترك أمراً صغيراً يدل عليه لا يفطن له ويكون السبب في كشف جرمه.

(٥) متى أقنع الانسان نفسه إنه ذو أخلاق سامية ثم حقد على انسان أو غضب عليه فإنه ربما استطاع أن يحمل نفسه على ارتكاب أي عمل دنيء لإشباع حقده وارضاء غضبه إذ أي شيء لا يكون مُباحاً حلالاً للقديس الفاضل والملك الطاهر الذي يراه في نفسه

(٦) بعض المهذبين المثقفين إذا أدّوا خدمة أو أهدوا هدية فللوا من قيمتها وأصغروا من شأنها مجاملة وتأدباً وتلطفاً في العشرة، ولكن بعض من تهدى إليه الهدية أو تؤدى له الخدمة يأخذ قولهم مأخذ الجد فيوافقهم عليه بطريق مباشر او غير مباشر، إما من قبح

الذوق أو قلة العقل أو حبًّا للتعاظم فتكون موافقته لمن أدّوا له الخدمة باعثة للامتعاض أو الغيظ فيمتنعون من التلطف والتجمل معه أو من أداء أي خدمة أو صنع أي معروف.

(٧) قد يمدح المادح إنسانًا ولا رغبة له في مدحه إلاّ التعريض بسامعه كأنّ المادح يريد أن يقول لسامعه إنه ليس على صفات المدح التي ذكرها في الممدوح. وقد يتفنّن في إظهار قصده المستتر بلباقة تمنع من صراحة المؤاخذة فيحتار السامع ويرتبك وقد يجاري المادح في مدح الممدوح لا رغبةً في مدحه ولا لأنه يعتقد أن الممدوح يستحق كل هذا المدح وإنما يجاري المادح خشية إذا لم يجاره ان يقال إنه يكره صفات المدح المذكورة في الحديث وإنه خالٍ منها وأنه فطن إلى التعريض به وأنه يستحق ذلك التعريض به.

(٨) كانت السيدة فيردوران لا تدعو إلى منزلها من الضيوف إلاّ من يوافقها على كل رأي مهما كان سخيفًا، وعلى كل قول مهما كان باطلاً محالاً، فلم يبق لها من الزوار غير المستذلين المستضعفين. وكانت تقول لهم إن فلانة النبيلة الثرية لا يزورها الضيوف والزوار إلاّ لأنها تدفع أجراً كبيراً لمن يزورها على زيارته لها. وبالرغم من أن ضيوف السيدة فيردوران كانوا يتمنون أن تدعوهم تلك النبيلة الثرية. وبالرغم من إنهم كانوا يعرفون ان الناس يتلهفون ويتوقون إلى زيارة تلك النبيلة الثرية وأن قصة دفعها أجراً لمن يزورها قصة ملفقة باطلة، فإن أمثالهم من المحرومين الذين تستذلهم السيدة فيردوران لآرائها وأقوالها كانوا يستطيعون أن يحملوا نفوسهم على نسيان الحقيقة وإنكارها، ويستطيعون أن يصدقوا قولها عن تلك النبيلة الثرية. وكان يحلو لهم إدعاء الترفع عن زيارة نبيلة تدفع أجراً لمن يزورها على زيارته كما أوهموا أنفسهم وصدّقوا، وهكذا تستطيع النفس ان تقبل المحال الباطل الذي لا يخفى بطلانه، إذا كان فيه ما يرضي زهوها أو حسدها أو حقدها أو حتى ما يُرضي إيحاء الموحي الباطل إذا رجت من ذلك الموحي بالباطل عطفاً أو خيراً أو ما يرضي أهواءها وخواطرها السائحة التي تستعز بها

(٩) لعلّ من أسباب نسبة المُحدِّث عيوب نفسه إلى غيره من الناس، التلذذ بالتحدث عن نفسه بطريقة غير صريحة وهي طريقة تظهره من تلك العيوب في نظر بعض الناس كما يظن، وتعطيه لذة المعترف اعترافاً غير صريح وغير محسوس وكأنه يجد لذة في مباشرة عيوبه

التي ينسبها إلى الناس من غير أن يؤاخذه الناس على تلك الفكرة ومن غير أن ينتظرا إليها . وكل إنسان مشغول مهموم بصفات نفسه وميولها . فتلفته تلك الصفات إلى مثلها في غيره أو يتوهم أنها فيه، ويقنع نفسه ويخادعها في تلك الالتفات وهو يحسب انه يرى الناس مرآة لنفسه فينسب إليهم ما لا يزينه . وعلاوة على ذلك فإن كل سيئة في نفس المحدث كأنها مهنة يعرف أسرارها وكل عيب كأنه حرفة يدرك خفاياها . وكل صاحب مهنة أو حرفة مولع بالتحدث عن حرفته أو مهنته لأنه يعرفها أكثر مما يعرف أي شيء آخر، كما يحلو للطبيب أن يتحدث عن الطب، وللمعلم أن يتحدث عن التعليم، وللمحامي والقاضي أن يتحدثا عن القضاء والقوانين ، وللنجار أن يتحدث عن النجارة ، وللزارع أن يتحدث عن الزراعة . وكذلك صاحب السيئة والعيب، يتحدث عنها كأنها مهنة أو حرفة الكلام فيها غالب على لسانه، ولكنه ينسبها إلى الناس بقصد التجمل والترفع .

(١٠) بالرغم من شرور الناس وقسوتهم وتحاسدهم ، فان كل نفس بها جانب من الخير والحنان والكرم والرقة وقد تجده غريباً في النفس بين صفات تخالفه كما قد تجد الزهرة النادرة النفيسة غريبة في وادٍ موحش قفر مجدب . وإذا منعت الأثرة ومنع حب النفس من ظهور جانب الخير من النفس ، فان تلك الرقة وذلك الحنان والكرم صفات موجودة مستترة فهي موجودة بالرغم من خفائها . وقد تجد الرجل الفظ الغليظ الطبع القاسي إذا قرأ قصة مؤثرة يبكي لما حلّ بالضعفاء والأبرياء فيها من الآلام والظلم حتى تفيض دمعته وتبلل وجهه وهو قد لا يتورّع في أعمال الحياة من أن يفعل مثل ذلك الظالم الذي أثار عطفه وأرانق دموعه عند ما قرأ القصة . ولكن الانسان إذا قسا أو ظلم سوّغ عمله . فانه يعد نفسه دائماً عادلاً مهما كان قاسياً ظالماً ، ويقول ان القسوة قد تكون نوعاً من الرحمة . بمثل هذا القول يسوّغ المرء إتيان ما يجلب له منفعته أو يرضي نهمة غضبه بالرغم من جانب الرقة والعطف في نفسه .

(١١) كثيراً ما يقول إنسان لآخر يسرني ان أفعل كذا كي أسرك ثم يحسب انه قد أدّى له خدمة ، أو صنع معه معروفاً ، وما يهم السامع ليس ما يدعي القائل إنه يود عمله ليسره، بل ما يستطيع أن يفعله كي يسره . ولكن القائل يستطيع أن ينسى ذلك وأن ينسى

أنه لم يعمل ما يدعي انه يود أن يعمله كي يسر السامع ويكاد يقنع نفسه انه في الواقع قد صنع معروفاً وأدّى خدمة . والمجاملة في الكلام محمودة ولا شك، ولكن من غير المحمود ان يغالط المجامل المقابل نفسه حتى يظن أن المجاملة تقوم مقام الحقيقة وحتى يحسب ان سامعه مدين له بالمعروف الذي يكاد يقنع نفسه أنهُ أدّاه.

(١٢) إذا وصف انسان انساناً آخر أمامك بمدح أو شرٍّ، فإنك قد لا تصدق القائل ومع ذلك تتأثر بقوله المرفوض بالرغم منك أو قد تتأثر كلما رأيت ذلك الانسان الموصوف أو كلما فكرت فيه أو سمعت به أو اتصلت به أي اتصال . ولعلَّ ذلك من طرق الإيحاء ولعلَّ هذا التأثر يكون في الوصف بالشرّ أكثر مما يكون في الوصف بالخير لأن إثرة النفس تجعلها أميل إلى التأثر بالشر إلاَّ إذا كانت لها عند الموصوف حاجة ورأت ان الحصول عليها بأن تتأثر بوصف الواصف له إذا كان خيراً .

(١٣) إن الانسان إذا حدَّثته محدِّث مغرم بأن يطبق على نفسه كل حديث بالخير أو الشر إذ أنه يفكر في نفسه حتى ولو كان مُحَلِّقاً في سماء التفكير النظري العام . وبعض الناس يستطيعون إخفاء هذا التطبيق إذا كان الحديث كريهاً يحقض من قدر أنفسهم ويظهرون أنهم لم يطبقوا الحديث على أنفسهم ولا صلة لهم بموضوعه وبعضهم ترى في عينيه شيئاً من الشك والقلق وسوء الظن خشية أن يكون المحدِّث يريد بحديثه النظري العام الاشارة إلى شيء في أنفسهم لا يستملح .

(١٤) ليس الإلحاح في المجادلة والمحاجة دليلاً دائماً على رجاحة رأي المناظر الذي أخلك. فقد يُفحمك المجادل فلا تستطيع الرد والقول، إذا كانت آراؤه لا اتصال لها بنفسك وعقلك أو لا حقيقة لها على الاطلاق . أما المناظر المحق فهو اذا أدلى بحُجَّة ورأي راجح قد يستطيع أن يجد جانباً من عقلك يألف ذلك الرأي وان خالفته فيستطيع أن يتصل بأفكارك ويلقحها كما تلقح الأشجار ومن أجل ذلك كان « برجوت » اذا ناظر في أستطيع أن أرد عليه القول ولكن رأيه كان يلقح رأيي ويتداخل في نفسي وكانت طريقته في المناظرة أن يرد على قولي بما يخالف رأيي وكأنه لا يخالفه إلاَّ في بعض الأمور دون بعضها فكان يصل رأيه برأيي مظهراً موضع الاتفاق، حتى ولو كان صغيراً ، وموضع الاختلاف وأسباب الاختلاف، فتكون

مقبولة أكثر مما تكون لو فصل بين رأي ورأيه فصلاً تامًّا .

(١٥) إن سرور المرء إذا فهمه وقدَّرَهُ رجل ذو عقل كبير ولجج ، أقل من غيظه أو حزنه اذا لم تفهمه ولم تقدره امرأة، كأنها لا عقل لها ولا ذكاء؛ لغباوتها ، إذا كان يحبها . فالانسان يغتبط اذا فهمه من يحبه أكثر من اغتباطه إذا فهمه من لا يحبه .

(١٦) ان اتفاق الآراء والنظريات لا يؤدي إلى تداني المتفقين قدر ما يؤدي إلى تدانيهم ائتلاف الأرواح والأذواق والأمزجة . وقد يُظْهِر المرء امتعاضاً وغيظاً إذا وافقه على رأي يستهجنه إنسان يعتقد أنه فاسد الذوق جامد الروح ثقيل الظل حتى ليكاد من امتعاضه وغيظه أن يتهم الرأي الذي شاكله فيه ووافقه عليه من يستثقل من الناس ، إلاَّ إذا كان صاحب الرأي سياسيًّا فيخفي غير ما يظهر، لأن همَّ السياسي كسب الأنصار وإن كان يستثقلهم، أو إذا كان صاحب الرأي فيه ذلك الشعور بالنقص الذي يدفعه إلى العطف على كل من يردد رأيه ويوافقه عليه، وان كان يخالف ذوقه ومزاجه . ومع ذلك فإن الرغبة في احتكار الرأي لنفسه ولمن وافق مزاجه وذوقه نوع من الأثرة وحب الذات .

(١٧) كثيراً ما يدَّعي المرء عاطفة أو يتصنع شعوراً أو يبيء فكرة باطلة وهو يعرف بطلان كل ذلك. فاذا لجَّ به هذا الادعاء وألحَّ عليه التصنع انقلبت هذه الأمور في نفسه حقائق ومثَلُهُ مثَلُ الانسان إذا أوحى إلى نفسه إنه مريض فلا يزال به الإيحاء النفسي حتى يكون مريضاً ممثَلاً . وكذلك اذا ادَّعَى على انسان دعوى تستوجب الملامة والمؤاخذة وهو يعرف إنها دعوى باطلة، فإنه لا يلبث أن يصير ادعاؤه حقيقة في نفسه، إذا لم يُراجِع مراجعة تؤدي إلى التفاهم .

(١٨) مما كنت أعجب له اذ ه بلوش، كان كثيراً ما يذم من لا يستحق بعض ذمه أو كله حبًّا للذم لا لسبب آخر . كما أنه كان يمدح من لا يستحق كل مدحه أو بعضه وقد يختلف تفسير هذه الظاهرة منه فلعله كان يتخذ من مدح الممدوح وسيلة يخدع بها السامع كي يقبل ذم من يذمه ، إذ أن مدحه الناس قد يُبْعِد عن الأذهان أنه حقود سيء الرأي في الناس، فاذا ذمَّ بعضهم تلمسوا له عذراً أو لعل التفسير إنه كان يرى في مدح الممدوح تكفيراً عن ذم المذموم، أو لعلَّ الذامين كانا يتزاحمان في نفسه أو قد يكون المدح والذم استجابة منه

للحالة الغالبة على نفسه من راحة أو نصب أو حزن أو سرور أو غيظ عام يحيله على انسان معين أو ارتياح عام يشمل به نفس انسان آخر فيصير مدحاً وهذه الصفات كثيراً تشاهد في الناس .

(١٩) كان «بلوش» يُكثر من اليمين ويحلف لا أملاً في اقناع الناس بصدق الكذب الذي كان ينمقه بالقسم، فما أظن انه كان يأمل ذلك وإنما كان يُقسم بدافع أشبه بالهستيريا والنسيان مع الشعور المتغلب على نفسه وجسمه . وذلك الدافع إلى الحلف والقسم كان يمنحه لذة شديدة في تزيين الكذب بالحلف وتجميله بالقسم. وكان وهو يحلف يُخيَّل لمن يراه أنه يفيض حناناً ورقة ويذوب لطافة وان كان موضوع الحلف يخالف كل ذلك وكأنما كان ينتفي من عذوبة الاحساس الغالب عليه الذي دفعه إلى الحلف كذباً — وبعضهم إذا حلف كذباً يخالف عذوبة حلف «بلوش» بالكذب فان بعض الناس من احساسه انه كاذب ومن غيظه وخوفه أن يعرف السامع ذلك يحلف كذباً وكأنه يكاد يلتهم سامعه ويقسم كذباً وكأنه يكاد يبتلع ذلك السامع كأنه بالعنف يريد أن يخيفه فيصدقه .

(٢٠) إن بعض الناس قد يريدون أن يسمعوا من جليسهم قولاً يسرهم ويرضيهم ولكنهم مع ذلك يريدون أن يروا أنفسهم انهم لم يحثّوه على قوله ولم يغروه به ولم يلحوا عليه في طلبه ولم يلجّوا معه في الحديث حتى يذكر القول الذي يريدون أن يسمعوه منه. وهكذا فعل دوق «جرمانتس» مع «سوان» عندما أراد ان يسمع منه ان صورة جدّ من رسم كبار الرسامين المصورين فجعل يقول له لا تلحّ عليّ . إذكر الحقيقة ما رأيك في الصورة ؟ فلما ضاق «سوان» ذرعاً قال : إنها كالنكتة الباردة والفكاهة الغثة . فلم يستطع الدوق أن يخفي اشارة تدل على الغيظ لانه لم يظفر بالقول الذي كان يُحبّ أن يسمعه، بل ظفر بعكس ذلك. والحقيقة هي ان هذا الالحاح كثيراً ما يشاهد في الناس .

(٢١) قد تكون خشيتنا فقد ما نود أن نملك ولم نملكه بعد، ولكننا نأمل ذلك في المستقبل، أعظم من خشيتنا فقد ما قد ملكناه وتمتعنا به . ولعلّ هذا من أهم أسباب غيظ المرء واضطغانه إذا نال أحد الناس شيئاً لا يملكه المضطغن وقد لا يملكه ولكنه قد يوهم نفسه انه ربما ناز بعضه أو كله في المستقبل فيخيل له الوهم كأن الذي فاز به قد سلب منه

أمراً واختلس منه شيئاً يملكه وربما كان من البعيد أو المحال ان يملكه حتى في المستقبل البعيد ، فاضطغانه وغيظه مؤسس على وهم الأماني الباطلة التي تجعل ما لا يمكن ان يملكه كأنه قد ملكه وسلبه منه الفائز به .

(٢٢) عندما نتكلم ونسمع كلامنا ، كثيراً ما ننسى ان وقع كلامنا في آذاننا وعقولنا ونفوسنا قد يختلف اختلافاً كبيراً عن وقع كلامنا في آذان غيرنا وفي عقول السامعين ونفوسهم ، فالأثر الذي نظنه لكلامنا في آذان غيرنا يكون في هذه الحالات أثر كلامنا في آذاننا وفي عقولنا ونفوسنا ، وننسى ان السامع قد لا يصله كلامنا إلا من وراء حجاب نفسي وعقلي أو جثماني كما يسمع المرء كلام من يحدثه من وراء مسقط مائي لجب صاخب ، فيصله مختلف المخرج ، وقد يختلف معناه في ذهنه أو يفهم بعضه أو كله على غير ما أراد المتكلم . وهذه حقيقة ينبغي أن لا يغفل عنها المتكلمون ولا سيما من كان معلماً منهم .

(٢٣) إننا اذا قابلنا انساناً يحدثنا واتجه عقلنا لسماع كلامه ولفهمه ، لا نشعر بسرور كالسرور الذي نشعر به اذا اتجه عقلنا الى أنفسنا . هذا إلا اذا كان اتجاه عقلنا لسماع المحدث لا يعطلنا عن التفكير في نفوسنا أو كان قصير الأمد أو كان داعياً الى التفكير في أنفسنا وفيما يهمنا

(٢٤) بعض المثقفين من ذوي الأدب والحياء يخطئون ويتحاشون أن يعرف جليسهم وغيرهم أنهم قد اطلعوا منه أو ان الناس قد اطلعوا منه على زلة بدرت منه أو نقص ظهر فيه . فاذا بدرت من الجليس بادرة سقطة ، استحيوا له خشية ان يتأثر بظهور تلك السقطة وهم قد لا يهولون من أمر هذه الزلة ، وقد لا يعيرونها اهتماماً ولكنهم يخشون ان يهتم ويتأثر صاحبها لظهورها منه ويستحيون له ان يجرح ظهورها إحساسه ، وهذا منهم من فرط لطافة الحس التي قد تخشى ان يتألم الجليس اذا علم أن الناس قد فطنوا الى زلته أو سقطته — ومن العجيب ان استحياء لطافة الحس هذه قد يُفَطِّن الجليس صاحب الاحساس والشك والفطنة إلى أن زلته قد كُشِفَ أمرها ، وقد يحقد على من استحيى له ، ويمد استحياءه نفوراً من زلته ويغيظه اطلاع صاحب الحياء على سقطته ، وقد يكون هذا التحاشي والاستحياء عناء لا طائل تحته إذا كان صاحب الزلة ممن لا يهتم باطلاع الناس عليها ، ولكنه على أي حال يدل على أن صاحب الاستحياء ليس ممن قلت ثقافة نفسه ، فيتتبع سقطات جليسه كي يظهرها ويكيده بها أو يسخر منه بسببها .

(البحث بقية) ع . ش

العشائر العربية [1]

نظام العشائر معروف في الشرق الأدنى من آجال بعيدة . وقد نفذت طرق معاشها الخاصة — التي تبلورت على مرّ القرون لتطابق البيئة التي تعيش فيها — جزءًا ضروريًا حيويًا من الثقافة العامة في تلك الرقعة ووحدة القبيلة — وهي التي ما فتئت تجاور القرى الزراعية والمدن التجارية — نهضت عن وجدان أو عن غير وجدان في علاقاتها مع القرى والمدن بنصيب لا يقلّ في شأنه من ناحية الثقافة المحلية عن النصيب الذي اضطلعت به المدن والقرى .

والعشائر العربية في الشرق الأدنى تؤلف في الآوان الحالي شطراً كبيراً من مجموع السكان ، وهي على أنواع شتى من مدارك الرقي ، فمنها القبائل الرُحَّل ، ومنها العشائر التي استقرّت استقراراً تامًّا وبلغت طا اقتصادها الزراعي .

وهذا الشطر من السكان أخذ في السنين الأخيرة — على غير المألوف في التاريخ المديد — يسترعي مزيداً من الاهتمام القومي والوعي الوطني ، ومردّ ذلك الى اليقظة القومية التي شاعت في العالم العربي . فقد حقق معظم البلدان العربية استقلاله فعلاً أو أضحى على قيد خطوات منه . وزعماء العرب يحددون الموارد القومية ، وحكوماتهم تواجه المستقبل بمشروعات بعيدة الآجل لتحسين أحوالها وتعمير مرافقها . ووجهت عناية تذكر إلى العشائر لأنها تعد عاملاً ذا شأن في مثل هذا التنظيم القومي ، ولأنه أصبح من معتقدات الزعماء

(١) هذا بحث طلبي نشره باللغة الانجليزية الاستاذ خليف طنوس الخبير الاقليمي في شؤون الشرق الادنى في وزارة الزراعة الاميركية في مجلة جديدة يصدرها في واشنطن معهد شؤون الشرق الاوسط عنوانها The Middle East Journal وكان الاستاذ طنوس عضواً في البعثة الزراعية الاميركية التي بحثت أحوال العالم العربي في ربيع عام ١٩٤٦ وصيفه

— سواء في داخل الدوائر الحكومية العربية أو في خارجها — أن فكرة « الدولة » في العالم العربي لا يمكن تحقيقها على أساس مستقر دائم إلا اذا أصبح الشطر العشائري جزءاً متكاملاً ومندمجاً اندماجاً تاماً مع سائر الأمة يتقدم معها في طريق الازدهار والرقي .

ومما عزز الرغبة القومية الشديدة في إدماج العشائر بسائر أجزاء الأمة ، أن هناك خشية من حدوث تدخل سياسي خارجي . وقد أدرك الزعماء القوميون في بعض البلدان العربية — في صراعهم الطويل المرير للظفر بالاستقلال — أنه مالم تكن العشائر جزءاً لا يتجزأ ومجتمعاً متصلاً اتصالاً وثيقاً بالتنظيم القومي المركزي ، فانها كثيراً ما تجنح الى النهوض بدور « الأقليات » وهذه ثغرة ينفذ منها الضغط السياسي والنفوذ الخارجي

وثمة سبب آخر يدعو الى الاهتمام القومي الحالي بشؤون العشائر وهو أن هناك اعتقاداً بأن هذه الطائفة تعدّ خطراً دائماً يهدّد الأمن العام الداخلي . ويقال في هذا الصدد إن منازعات دموية مدمرة قد تنشب بين حين وحين بين العشائر وإن رجال العشائر في مباشرتهم لحقوق الرعي المخولة لهم كثيراً ما يعتدون على الأراضي المخصصة للزراعة فينشأ عن ذلك سفك دم وتدمير ممتلكات .

ويحاجّون بأنه ما دام نظام البداوة باقياً مع ما له من طراز فريد في التنظيم الاجتماعي الاقتصادي، ومع ما لزعماء العشائر من اعتياد على القبض بأيديهم على ناصية القانون ، فمن المتعذر على الحكومة المركزية أن تصون الأمن العام صوناً كاملاً .

وهناك علاوة على ذلك اعتبارات ادارية تجعل الحكومات المركزية على وجدان تام بأن العشائر مورد متاعب وقلاقل . فعند فرض الضرائب وجبايتها ، وعند إحصاء السكان وعند تطبيق البرامج التربوية والصحية ، وعند تنفيذ المشروعات الزراعية ، وعند تجنيد الفتيان للتدريب العسكري ، كثيراً ما تتبين السلطات أن أعمالها تحبط في ناحية أو أخرى بفعل التنظيم العشائري عند العشائر . فالمشروعات والسياسات والبرامج والخطط التي توضع على نطاق قومي كثيراً ما يكره المسؤولون إما على تعديلها أو على التخلي عنها في المناطق التي تحتلها العشائر . ومن الحقائق المألوفة أنه لا يمكن اجراء احصاء دقيق للبدو الرحل أو لماشيتهم لأسباب شتى — يأبون أن يمتنعوا عن طواعية للاحصاء سواء إحصاء أفرادهم

أو الغائبين وعددهم يزيد أو ينقص تبعاً للغرض الذي يجري الاحصاء له من جباية ضرائب أو تجنيد فيهان أو توزيع جرايات سكر . أضف الى ذلك أن على السلطات أن تسير على نوعين من القوانين القضائية : هما قوانين البلاد وقوانين العشائر . والصدام بين هذه وتلك صدام يكاد يكون مستمراً .

وفي طاقة المرء ، بناء على هذه الملاحظات أن يقول إن في العالم العربي اهتماماً شائعاً بشؤون العشائر وقلقاً منها ، وان هذا الاهتمام يتخذ من الناحية العامة شكلاً سلبياً محصله أن القبائل الرحل تعد مشكلة قومية ، ومستودع قلاقل ، ووحدة متخلفة في مضمار الحضارة تعترض طريق الرقي القومي . ومن الناحية الأخرى ، والى جانب هذا الاتجاه السلبي هناك اتجاه قوي ايجابي من جانب الزعماء والمفكرين يدل على حسن استيعاب المشكلة . فهؤلاء يدركون مقام نظام العشائر في الكيان القومي ، وهم جادون في البحث عن حلول ايجابية لشتى المشكلات التي ينطوي عليها هذا النظام . بيد أنه باستثناء هؤلاء لا يتجاوز اتجاه التفكير العام الاعتقاد بأن القبائل الرحل مشكلة قومية ، وان الحل الوحيد الشامل لها هو « استقرار القبيلة » وهذه عبارة جرت مجرى الأمثال والأقوال الشائعة .

ويتبين من التحري أن هناك إجماعاً على أن استقرار القبيلة معناه تحويل البدو الرحل الذين يعيشون على نتاج ماشيتهم وأغنامهم الى زرّاع مستقرين للتربة . وهناك اتفاق عام كذلك على أن القبيلة ينبغي أن تمدّ بالأرض التي تستقر فيها . وهم يعتقدون بأنه متى اتخذ مثل هذا الاجراء ، أمكن حل مشكلة القبيلة . وقد سبق بعض الحكومات العربية البعض الآخر في التفكير في التفصيلات المختلفة للحل المقترح وفي الاستعداد لتطبيقه ، فأنشأ ادارات خاصة تعالج حالة القبائل ، وعُين بعض الاداريين والموظفين الخبيرين بشؤون العشائر ليبذلوا قصارى جهدهم في انجاز مهمتهم .

ولكن المرء يمكنه أن يدرك أن هذه ليست سوى خطوة أولى وان الحاجة ماسة الى الدنوّ من المشكلة بدرسها درساً وافياً مفصلاً ابتغاء حلها حلاً نهائياً . وفي ما يلي محاولة لعرض بعض الآراء بشأن تنظيم العشائر ومقامها ، وتقديم اقتراحات بشأن اندماجها في الكيان العربي .

وأول ما يؤكده الباحث أن القبيلة العربية طائفة موغلة في القدم ذات تهذيب خاص، وتاريخها موصول الحلقات يمتد إدباراً بضعة آلاف من الأعوام إلى العصور الأولى للرقي الانساني. وهذا التاريخ الطويل — وقد انطوى على العيش طبقاً لنظام عجيب من نظم البيئة الطبيعية — أفضى إلى تطور وخلق ثقافية واضحة المعالم لها مظاهرها المتميزة في نواحي الحياة المتباينة. وهذه المظاهر تعين الفرد والجماعة الطرائق التقليدية لمباشرة الاعمال في نطاق النشاط الاقتصادي والديني والعائلي، وفي الترويح عن النفس، وفي الحكم وفي سواها من مجالي العلاقات الانسانية. ونحن — بتعبير آخر — نعالج ضرباً من ضروب التنظيم الانساني له كيانه الكامل ودعائمه المتأصلة. وإذا أردنا أن نفهم أحوالها ونقدر قيمتها وجب أن نعالجها معتمدين على ذلك بوصفها التاريخي.

وينبغي أن يؤكد ثانياً أن النظام العشائري أسدى، وفي طاقته أن يسدي، خدمات أساسية للكيان العربي القومي. ولعل أول مساهمة كبيرة له في هذا الصدد مساهمة ذات صفة بيولوجية مجردة، لأن العشيرة وحدة بيولوجية قوية متنوعة. وقد استطاعت في عصور لا يحصى عددها أن تغالب بنجاح عوامل طبيعية متضادة في بيئة من أعسر البيئات التي واجهت النوع الانساني في تاريخه، وهي بيئة الصحراء، حيث تسدد الشمس أشعتها بغير مرحمة تنضرب بها كل نوع من أنواع الحياة، وحيث يشح الماء ويقل الزرع ويكره كل رجل وكل حيوان على استخدام كل ذرة من الطاقة والحيوية في كفاحه في سبيل البقاء. وقد استطاع الانسان متعاوناً مع قطيع خرافه وقافلة إبله وجاحاً الى الهجرة الدائمة بحثاً عن الماء والمرعى، أن يعيش. وفي وسع المرء أن يشهد هذا الصراع والكفاح في سبيل العيش ماثلاً اليوم، وحسبه أن ينظم رحلة عبر هضبة نجد في المملكة العربية السعودية أو في قفار سوريا أو العراق أو شرق الأردن ليفغم ببصره إلى أوجه التطور الانساني في هذه الرقعة. وفي طاقته كذلك أن يتبين أدلة كافية على أن التطور انطوى على بقاء الأصلح والأقوى والأشد فكيمة.

وفي هذا الصراع، وهو صراع في سبيل البقاء، لم تكتف القبائل بأن تبقي على حياة أفرادها، بل أصابت كذلك نجاحاً في الاكثار من عدد أفرادها بنسبة كبيرة. ومن

الحقائق التاريخية الثابتة أنه باطراد عدد أفراد هذا النوع البيولوجي القوي المنيع، تحسّن إلى حدّ بعيد نوع السكان الزراعيين القرويين في البلدان العربية. ومن الأمور الجلية في الأوان الحالي بوجه خاص، انتقال سكان أشدّاء أصحاء نسبيًّا من حياة البداوة والترحيل إلى المناطق الزراعية المأهولة ثم المناطق العامرة. ففي سوريا والعراق والجزيرة العربية وسواها من البلدان العربية يستطيع المرء أن يرى معرضاً من مراحل الانتقال المتباينة تبدأ من البداوة الفطرية في ناحية، وتتدرّج إلى القرى الآهلة بالسكان من ناحية أخرى. وما فتئت القبيلة تسدي خدماتها البيولوجية للعالم العربي.

فالسؤال إذن هو هل تستطيع أي دولة كانت من الدول ذات الشأن أن تتخذ سياسة من شأنها أن تفضي عن وعي أو عن غير وعي إلى تصفية هذا «المورد» البيولوجي القومي الكبير؟

والقبيلة تنهض، هذا الدور البيولوجي، بدور اقتصادي كبير الشأن. فساهمتها في الاقتصاد العام للبلدان كانت أمراً مسلماً به حتى انه كثيراً ما يُغفَل ولا يعنى به عناية جدية عند وضع مشروعات التقدم القومي. ومن التحليل والتحرّي يتضح أن اقتصاد العشيرة هو بغير شك نظام صالح لاستغلال موارد الصحراء الشحيحة. فهي تستخدم بنجاح ولمصلحة الأمة بأسرها، القليل من الحشائش التي تنمو في مناطق شاسعة متباعدة في الصحراء، ومن شأن هذا الجهد أن يسام مساهمة كبيرة في التنظيم الاقتصادي القومي. حتى لقد غدت الماشية في كل من الدول المعنية مورداً من أكبر مواردها سواء لاستهلاكها أو لأصدارها. وهناك عدد كبير من ملايين الخراف والماعز وعدد كبير من الماشية والابل يسدّ حاجات الشعب من اللحم وللمنتجات الثانوية وينتج مزيداً من الصوف والشعر والجلد لاصدارها. والواقع أنّ القبائل البدوية الرحّل أو المستقرّة استقراراً جزئيًّا في الصحاري أو في المراعي هي التي تعنى بتربية هذا القدر المطرد من الانتاج الحيواني الكبير الشأن، وهي حين تفعل ذلك تعتمد اعتماداً يكاد يكون كاملاً على الحشائش والنباتات التي تترعرع لهم بها القفار والبيد.

وهذا مورد دائم مرموق من موارد الدخل القومي، ومن المحتمل أن لا يكون له مثيل.

ويلبغي على الأقل أن لا يُعترض طريق هذا الطراز من الاقتصاد العشائري ، أو يُتدخل في أمره بكيفية ما حتى يتسنى تبيان مصدر اقتصادي ملائم يخلفه . وقد يُحاجّ المرء قائلاً إنه بترقية شؤون الري يصبح الاستقرار الزراعي مهنة أربح وأجدى من رعاية الأنعام والضرب في البيداء . وقد يكون هذا القول صحيحاً ، ولكن صوابه لا يتجلى إلاّ بعد ما يتحقق تنفيذ مشروعات الري الكبرى على مدى واسع . ويبدو مؤكداً أن نجد دائماً مناطق واسعة من الأرض الشبيهة بالجدبة لا يمكن لماء الري أن يبلغها ، ولا يتسنى نجاح الزراعة الجافة فيها . ففي تلك المناطق يصادف اقتصاد الرعي مكاناً مستطاباً للازدهار ويسدي أيادي اقتصادية بيضاً .

ومن ناحية ثالثة أسدت جماعات العشائر خدمات رئيسية لثقافة العالم العربي الحالية . وبالثقافة يعنى أسلوب الحياة كما ترتضيه وتنهجه طائفة معينة أو مجتمع يختلف اختلافاً بيناً عن طرق المعاش المألوفة بين الجماعات والمجتمعات الأخرى . وتتألف كل ثقافة من منحيين كبيرين هما : المنحى المادي ، والمنحى غير المادي . ويتألف الأول من مجموعة من الآلات والأدوات والأشياء المادية الأخرى التي تستخدمها الجماعة في مطابقة نفسها للبيئة الطبيعية وفي استغلال هذه البيئة .

ويتألف المنحى الثاني من اتجاه سلوكي معين ينظم الجماعة تصريفها للامور مستعينة على ذلك بالأشياء المادية والأساليب المختلفة من أساليب الاتصال الماثلة بين أعضائها وبينها وبين الجماعات الثقافية الأخرى .

والمنحيان على اتصال وتشابك مستمرين . ففي حالة الوحدة البسيطة المتكاملة تكاملاً تاماً — كمجتمع العشيرة مثلاً — يؤلف المنحيان شطراً لا ينفصل عن المجتمع بأسره ، وبمعنى آخر نقول أن الثقافة تراث يتميز بأنه انساني ، ينشأ حيثما تتصل الكائنات البشرية على مدى الزمان ، وبوساطته يستطيع المرء أن يحقق مواءمة ناجحة بينه وبين آرائه من الآدمي والبيئة الطبيعية التي تحيط به .

والثقافة ، بعد ما تعرفناها وتفهمنا كنهها ، لا تعد مجال ملكاً خاصاً لشطر المتحضر أو المثقف من المجتمع والمجتمع العشائري هو من ناحية حضارته الخاصة ومن ناحية ما

يحققه بنفسه — كاسلف تبيانه — ماثل لتراث ثقافي ، شأنه في هذا شأن الطوائف القروية أو المتحضرة في العالم العربي . والناحية المادية من هذا التراث هي في الواقع يسيرة جداً لا تتجاوز بعض أدوات وآلات وأشياء تستخدم لتلبية الحاجة الانسانية الأولية الى الطعام والمأوى والدفاع عن النفس . ومن ناحية أخرى نرى أن الجانب غير المادّي متقدّم تقدماً عالياً ، ويتألف من وسائل واضحة المعالم للسلوك والتصرف ، وهذه الوسائل تشمل ألواناً شتى من العلاقات تتصل بالدين والأسرة والحكومة والنشاط الاقتصادي والصراع والتعاون والتنظيم العام للمجتمع .

وإنه في هذه الناحية من العلاقات الانسانية غير المادية للثقافة العشائرية ، حيث نجد عناصر أضافت يداً بيضاء الى معنى الثقافة العربية ولونها . وتنطوي هذه على قيم اجتماعية أساسية ، أهمها استقلال الفرد وشهامته ، واحترام الزعامة وتوقير الشيخوخة ، والقرى والكرم ، واحترام الوعد ، ومراعاة حقوق الفرد ، والتعاون المشترك ، والاهتمام بالناحية الشخصية في العلاقات الانسانية ، والوجدان وجداناً اجتماعياً والولاء لهذا المجتمع .

وأمكن بفعل زيادة عدد سكان العشائر وباتصالهم الدائم ببقية العالم العربي أن تصبح القيم التي أشرنا اليها وسولها من القيم الثقافية جزءاً من أسلوب المعيشة عند العرب . والواقع أن كثيراً من هذه القيم يدعّم هذه المعيشة ويسبغ عليها لونها ويوجهها الى وجهة الرقي والارتقاء .

ولا نقصد القول إن كيفية معيشة العشيرة هي المصدر الوحيد أو حتى المصدر الكبير لتقدم الثقافي في بلدان الشرق الأدنى المختلفة . فهناك بغير ريب أسس ثقافية أخرى قد تفوق في عدد من هذه البلدان الأسس الثقافية العشائرية . أضف إلى ذلك انه ليست هناك نية ما في أن نوحي للقارىء بأننا نقصد أن نحكم حكماً أخلاقياً فنقول انّ العناصر الثقافية للعشائر « جيدة » أو « رديئة » فليس همّنا سوى أن نقرر الواقع .

وفي ضوء هذه الاعتبارات يبدو جلياً أن المجتمع العشائري لا يمكن أن يعدّ أقلية ثقافية أو مجتمعاً فطرياً دخيلاً على الثقافة المحلية . فالواقع انه يعدّ شطراً رئيسياً حيوياً من السكان ، وان نشاطه الاقتصادي يعدّ عاملاً كبير الشأن في الاقتصاد القومي ، وان طرق معاشها هي جزء مكمل للثقافة العامة في العالم العربي .

(ترجمها من الانجليزية) وديع فلسطين

طنين الآذان

أسبابه وعلاجه

السامعة ومجلسها الأذن ، عضو دقيق الصنع معقد التركيب ، يثير في إتقانه وإحكامه الدهشة والعجب . فهو الذي يجعلنا نشعر بتموجات الأجسام المصوتة واهتزازاتها ، فنعرف إذ ذاك الأصوات ونقدّر شدتها ونحكم على نغماتها . وهو الذي يحافظ على موازنة الإنسان وتقدير وضعية الجسم في الفضاء بوساطة عمل القنوات الهلالية الموجودة في الأذن الداخلية — إذا ما أصيب أحدهم بالدوار مثلاً — صحيح إنه يمكن للمرء أن يقدّر وضعية بدنه ويحافظ على موازنته حتى ولو كان في مكان مظلم لا يرى فيه أقسام بدنه كما لو كان في النور ، وذلك بفضل الاحساسات اللمسية والعضلية ، إنما وضعيته وموازنته المثاليتان لا تكونا فعلاً تامتين إلا بوجود قنوات الأذن الهلالية التي تحيط بتلك الحاسة المسماة « حاسة الموازنة » . فإذا ما قطعت قناة من تلك القنوات دار المصاب وتدحرج نظراً لاتجاه تلك القناة المقطوعة واختلت موازنته .

ومعلوم أن الأذن تتألف من ثلاثة أقسام وهي الظاهرة والمتوسطة والباطنة ، والسمع لا يتم إلاّ بواسطة القسم الباطني أو الداخلي ، أما القسمان الظاهري والمتوسط فيقومان بتوصيل اهتزازات الأصوات التي تقع على غشاء الطبلة الى القسم الداخلي الحساس ، فتتأثر حينئذٍ فروع العصب السمعي وتوصل الأصوات الى المراكز السمعية في الدماغ فيحكم بها .

وإننا لا نقصد ان نتطرّق هنا إلى ذكر العوارض والأمراض التي تطرأ على الأذن وتحول دون السمع لأن ذلك يقودنا الى شرح طويل جدًّا لا يتسع هذا المجال لذكره ، خصوصاً ان معرفة أمراض الأذن وكيفية علاجها تتطلب ولا ريب الماماً تامًّا بأقسام هذه الأذن التشريحية ، لكننا نكتفي الآن بذكر عارض خاص الى عدد كثير من الأمراض ونعني به « طنين الأذان » المصاب به كثيرون ، والذي هو موضوع بحثنا اليوم فانه غالباً ما ينذر بحدوث ثقل السمع عند المصاب .

ولا ينكر ان النتائج الباهرة التي حققها الطب الحديث في مداواة الأمراض الأذنية

جاءت صورة صحيحة للتقدم العظيم في أيامنا هذه — ما عدا الصمم الذي هو نتيجة ضمور العصب السمعي الذي لم يتوصل الطب بعدُ إلاَّ إلى شفاء بعض حالات منه — ، ومع ذلك فقد أنقذ العلم اليوم حياة الألوف من المرضى في خطر دائم في حالة الاصابة بالتهابات الأذن الوسطى ومضاعفاتها ، وهذا فائد ولا ريب الى معرفة تركيب أعضاء السامعة معرفة تامَّة أكثر من ذي قبل . نبدأ هنا بموضوع بحثنا اليوم وهو :

﴿ طنين الآذان ﴾

هو أحد الاضطرابات الأكثر حدوثاً وانتشاراً بين أعضاء السمع الأخرى ، وناتج عن تهيج غير طبيعي في العصب السمعي . فقد يكون حدوثه وقتيًّا ، عابراً سريع الزوال ، أو بالعكس مستعصياً . وتارة يشاهد في أمراض الأذن الخطيرة ، وأخرى وهي الغالبة جدًّا ، في العوارض والحالات المرضية السليمة العاقبة . وفي كثير من الأحيان لا نشاهد لدى فحص الأذن أي أذًى أو عارض يُذكر في الجهاز السمعي حتى عند الذين يتكرَّر غالباً حدوث طنين الآذان عندهم ويقلقون لأجله !

أما من حيث سمع الأصوات عند المصاب بطنين الآذان وكيفية شعوره بها فيختلف ذلك اختلافاً عظيماً . ففي بعض الأحيان يشعر المصاب بأصوات شبيهة بدندنة الذبابة أو الحشرة على اختلاف نغماتها وشدتها . وفي أحيان أخرى تكون كالصفير الذي يُسمع عادة عند انفلات أنبوب من أنابيب الغاز ، أو كثابورة الماء ، أو أيضاً كانفلات مجرى من أنابيب البخار . وفي بعض المرّات أيضاً يكون طنين الآذان مماثلاً لجيشان الماء وغليانه ، او الى الخرير أو الهدير ، أو أيضاً لأصوات الأجراس والأنغام الموسيقية . وفي هاتين الحالتين الأخيرتين يكون السبب في غالب الأحيان وجود خلل أو اضطراب في (التيه) Labyrinthe بالأذن الداخلية . وأخيراً يشكو المصاب لنا أحياناً أنه يشعر بضربات شبيهة بضربات المطرقة ، أو بنوع من النفخ المنظَّم ناشيء من سريان الدَّم في شرايين الأذن ، ويحدث ذلك عادةً في بعض حالات الأنيميا ، والاحتقانات ومختلف حالات التهيجات العصبية الزائدة . وقد تكون هذه التهيجات شديدة أحياناً لدرجة أنها تسبب الأرق عند المصاب ، فيتعذَّر عليه النوم ، ويكون قلقاً مضطرباً متضايقاً وموسوساً بنغم شرايينه ! وفي بعض الحالات يكون الطنين على هيئة ضجيج أو دوي خافت ذو صوت حلي جاف ، وأسباب هذه الحالة حدوث انسداد خافت في بوق أوستاكيوس ، أو تقدمة طبلة الأذن ، أو أيضاً من حدوث ملتصقات الصفيرة لعظيمات الركاب والمطرقة في الأذن الوسطى

﴿ أسبابه ﴾ هذه الأسباب كثيرة متنوعة وجميعها تساعد على إحداث هذه العلة عند المصاب . ويمكن حصر الأسباب المذكورة في قطبين رئيسيين ، أولها وجود علّة أو أذى في الأذن مهما كانت درجتها خفيفة ، ثانياً من تأثير حالة الشخص العمومية . وتوصلاً لمعرفة السبب الحقيقي لهذا الاضطراب لا بدّ من إجراء فحص دقيق جداً على المصاب لمعرفة مكان العلة في الأذن ، والسبب العمومي أو المرضي الذي أدّى الى حدوثها . فليس من النادر أن يصحب طنين الآذان بعض الحالات العامة كأمراض القلب مثلاً ، أو أمراض الكلى والمعدة ، أو تصلب الشرايين ، أو احتقان الدماغ أو حدوث نزف فيه أو حالات الأنيميا التي تسبب فرط الحساسية Hyperesthésie في الشبه الذي جاء ذكره أعلاه ، أو مختلف الاحتقانات في عروق الجسد . وهكذا قل عن الالتهابات ، وهذه تُعدّ أكثر حدوثاً بين الأسباب ، نتذكر منها مثلا التهاب منذوق الطبلة والالتهابات الأخرى الحادّة والمزمنة في الأذن الداخلية . ومثلها الانصبابات Etanchements والنوزم والسليلة Polyes والتهاب اللوزتين والتهاب البلعوم وتسوّس الأسنان وسيلان الأذن وانتقاب الطبلة : فهذه كلها تساعد بدورها على احداث طنين الآذان .

وهنالك أيضاً طنين آذان يحدث للمصاب بطريق منعكس ، ومنشأه في الغالب وجود حالات مرضية في المعدة أو في الرحم ، وفي هذه الحالة يقتضي معالجة هذه الأعضاء بكل انتباه وملاحظة حالة الأنيميا والنوراستنيا عند المصاب .

ولا ننسى أخيراً ما للتأثيرات العصبية والمرض (فساد التغذية) والتسمم من النخل العظيم في إحداثه . وهكذا قل عن تأثير بعض الأدوية مثل سلفات الكينين وساليسيلات الصوديوم الخ — إنما تأثيرهذه وقتي ولا يترتب عليه لأنه ينقطع بتوقيف استعمال هذه الأدوية . وكثيراً ما يكون السبب أيضاً تجمع أذى الأذن (المادّة الشمعية فيها) فيزول بإزالته بالحقن بالماء الفاتر

﴿ علاجه ﴾ قبل أن نبحث عن الأمراض التي تسبب طنين الآذان يقتضي النظر أولاً فيما إذا كان يوجد جسم غريب في الأذن ، أو مادّة شمعية ، فاذا لم يكن شيء موجوداً من هذا علينا البحث حينئذٍ عن السبب العام للطنين والعمل على ازالته .

ويمكننا أن نقسم هنا علاج طنين الآذان الى قسمين ، علاج عمومي وعلاج موضعي .

(أولاً) — علاج عمومي : على المريض أن يعيش على أتم ما يكون في القواعد الصحية ، فتكون معيشته مريحة منتظمة ، ويمارس أرياضة البدنية الخفيفة في الهواء الطلق ،

ويتجنب الأشغال المتعبة والأمور المهيجة ، وتعطى المشي والقهوة والتبغ والكحول ، ولا يحصر خصوصاً نكرهُ وانتباهه في طنين الأذن المصاب به

ويُعطى المصاب كمكمّن عمومي طذا المعدن ودرجة الدوي الذي يشعر به : الآنتيرين أو الهيبنال أو الكلورال مضافة الى البرومور أو بروموراليوتاسيوم) وحقيقة الهر Valériane بحسب ارشادات الطبيب المعالج

واذ كان السبب وجود أنيميا ، أو احتقانات دموية ، أو حالات عصبية عمومية ، أو الحرض Arthritisme أو النسمات ببعض الأدوية وغيرها فتعالج بحسب أنواعها وأسبابها وإذا كان السبب ضعف عصبي تعطى المقويات والطعام المغذي .

ثانياً — علاج موضعي : (١) تمسيد طبلة الأذن ، (٢) تهوية صندوق الطبلة بعمل دوش هواء لمرور هذا في قناة استاكيوس ، (٣) تعمل حمامات للأذن بمحلول مكثف من البورفين والآروين بنسبة ٢٠ سنتغرام من هذه الأجزاء الى ٢٠ غرام من الماء ، (٤) تُبَلّ قطعة من القطن في مزيج من الكلوروفورم وسبيتة الآنيزيز والهيوسيامين (أجزاء متساوية) وتدهن بها الناحية السمعية الظاهرة وقد أدّى استعمال هذا العلاج إلى نتائج حسنة ، (٥) قد تقتضي الضرورة أحياناً باستعمال العلاج الكهربائي : التيار الغارادي أو تيار فالتانيك المستمر ، سواء كمحوّل أو كهيّج أو كمنبّه لأعصاب سلسلة العظيمات الموجودة في الأذن الوسطى ، أو أيضاً كمحرّضة أو مثيرة لحساسة العصب السمعي ، غير ان تأثير هذه التيارات لا يفيد في الغالب إلاّ مؤقتاً . ولا ينكر أنها تنفع جداً في حالات الالوار والبرد لكنها تُعَدّ غير كافية في علاج طنين الآذان ولا تزيل الا قسماً من هذا الطنين ، (٦) قد يكون طنين الآذان ناشئاً عن حالة مرضية : مصحوباً بجفاف زائد في الغشاء المخاطي في حالة الاصابة بالتهاب الأذن الوسطى ، أو عن سيلان الأذن وانثقاب الطبلة ، أو عن انسداد بوق استاكيوس ، أو عن حالة التهابية في الغشاء المخاطي لمجاري السمع ، فتستعمل حينئذٍ لاجلها العلاجات الموافقة بحسب كل حالة كما يتراءى لطبيب المعالج

وفي كل حال لا بدّ من اجراء فحص دقيق للأذن لمعرفة أسباب العلة وذلك عند أحد الاخصائيين المشهورين بأمراض الأذن والأنف والحنجرة ، للعمل على ازالة هذا الاضطراب ومعرفة أي قسم من الأذن هو المصاب . حتى وان لم يكن هناك سبب ظاهري لذلك أو كانت العلة خفيفة مثلاً ، فالفحص الخصوصي هو جيد وكفيل أن يسكّن روع المصاب ويطمئن باله

(بيروت) الدكتور خيرالله سلوم

وجوه الشبه

بين المكسيك ومصر (١)

أتاحت لي الفرصة زيارة بلاد المكسيك قبل ثلاثة أشهر من الحرب الأخيرة ودعاني صديق لتناول طعام العشاء في إحد المطاعم الكبرى في مكسيكو العاصمة، فاسترعى نظري لباس الآنسات العاملات في المطعم اذ ذكرني هذا اللباس بما طالما رأيته في متحف القاهرة من موميات فرعونية. ذلك لأنه لايختلف عن كسوة المرأة في عصر الفراعنة في تفصيله وألوانه ونقوشه، من غطاء الرأس حتى حذاء الرجل

« ولماذا اختار صاحب المطعم لعاملاته ألبسة بنات النيل في العصر الفرعوني ؟»

وجهت هذا السؤال لرفيقي فتبسم وقال : « إن هذا الزي إن هو إلا زي نساء المكسيك في العهد القديم ! » .

فأثار هذا الجواب انتباهي وشوقي للتعرف الى وجه الصلة التاريخية بين مصر والمكسيك وازدادت اهتماماً بهذا حينما شاهدت في سهل « تيوتيهواكان » على بعد خمسين كيلو متراً من العاصمة، وفي تشوشيكالكو وتشولولا، اهراماً مثل اهرام مصر، قائمة على قاعدة هندسية تكون دولة دالة على فصول السنة مثل هرم الجيزة الأكبر، وتساءلت أيضاً فيما إذا كانت الثقافة المصرية بلغت القارة الأميركية، وحملت معها تصميم الاهرام. واسترسلت في التفكير الى أبعد من ذلك فقد تساءلت عما اذا كانت عقيدة خلود النفس وما رافقها من فن التحنيط رافقت أيضاً في رحلتها من مصر الى المكسيك مشروع الاهرام، لما بينهما من الارتباط ولا سيما لأن طريقة التحنيط كانت واحدة عند الفراعنة وسكان أمريكا الجنوبية ولا تختلف حتى في الصغائر.

وهذا الاهتمام بالماضي أثار في نفسي حب الاستطلاع والمراقبة في الأحياء لعلي أعرف هل لا يزال التشابه بين مصر والمكسيك ملموساً في العصر الحاضر .

(١) محاضرة ألقاها سعادة محمد جميل بيهم بك رئيس جمعية اخوان الثقافة في بيروت في نادي الجمعية في ٥ من مارس سنة ١٩٤٨

على ان المفروض أن يكون وجه الشبه بين القطرين بعيداً ، لان بلاد المكسيك قمّة على جبال ثم وأودية غائرة وأهلها تتجلى فيهم صلابة الصخور وصراوة الثلوج ، بينما ان مصر تنبسط حول وادي النيل الخصب الريّان فتتجلى في سكانها طراوة الانهار ، وعذوبة تغريد الاطيار . ولكني مع ذلك لاحظت وجوه شبه كثيرة حتى يومنا هذا بين المصريين والمكسيكيين ، وخصوصاً في الاوساط الزراعية . فما أكثر ما يتشابهون في اختيار الالوان وأردية النساء وقلاداتهن الذهبية ! وما أشد ما يتشابهون في مزاولة الاساليب الزراعية القديمة وأدواتها ، وذلك فضلاً عن بعض العادات القديمة . وهي تتجلى في بعض الحفلات الشعبية وغيرها وخصوصاً في طريقة الخطبة ، على ان وجه الشبه بين البشريين كثيراً ما يبدو أيضاً في بعض المآكل ، ففي مصر يعتبر الفول (المدمس) الصحن الشعبي . ويقابله في المكسيك طعام الذرة المتبل بالحمض والفلفل وهو عندهم الصحن الشعبي أيضاً والذرة عند المكسيكيين أهم عناصر الطعام ويعتمدون عليها ، مثلما يعتمد الفلاح المصري على الفول ، ويستعملون الاوراق الشفافة من عرانيسها لغلائف التبغ .

وكما ان المصري يألف بطبيعته الأباذير الحارة ، وتطيب له المآكل الحافلة بأنواع الفلافل والبهار ، فالمكسيكي شديد العناية أيضاً بهذه الأباذير لا سيما الحارة منها ويبلغ من شغفهم بها أنهم يعملون في مدينة ماردة سلطة بالفاكهة حافلة بالفلفلاء الحارة .

هذا إلى ان الخفة في الروح وحب اللهو وعدم المبالاة بالغد ، هي من طبيعة المكسيكي ، كما هي من طبيعة المصريين القدماء . فينفق المكسيكي كسب يومه غير حاسب حساباً للغد على قاعدة أنفق ما في الجيب يأتيك ما في الغيب .

وإذا حللنا هذا التشابه الكثير بين الشعبين على تأثير الجوّ والحرارة في كلا القطرين دون أن نجعل للتاريخ صلة ما بذلك ، فاذا عسانا نفسر التشابه بينهما في العناصات القومية الخاصة ؟

فاذا دخلت دكان بائع التحف والعناصات المكسيكية القومية ، والتفت يمنة ويسرة تراقب المنسوجات الوطنية وسائر المصنوعات التي تحتفظ بالطرز المكسيكي ، ورأيت البسط والقفار وأشكال الزوارق وتدرت فيما تشاهد من نقوش وأصبغة وألوان ورسوم ، خيّل إليك أنك في داخل مخزن من مخازن التحف المصرية في القاهرة . أو في أحد المتاحف الفرعونية

وإلى جانب ذلك لاحظت أن هنود المكسيك ، وهم سواد الشعب ، لا يقتصر الشبه بينهم وبين الفرق على ما بينهم وبين مصريي وعراقيي الارياف فحسب ، بل يتعدى ذلك إلى وجود كثير من التماثل بينهم وبين اهل البادية في سائر الاقطار العربية هذا ومن يقرأ كتاب

الفيل والآثروبولوجيون لعلامة البوت حيث يساوره العجب أسوة بالمؤلف، ويتساءل كيف تيسر للاميركيين قبل ألف سنة أو نحو ذلك أن ينحتوا تماثيل الفيل مع أن هذا الحيوان لا يعيش في بلادهم ؟ ويتساءل أيضاً معه اذا كانت الثقافة الهندية قد انتقلت من الهند الى القارة الأمريكية ، وحملت معها رسم الفيل .

والى ذلك فان من يقلب صفحات مفكرة طم مضى كان مكتب الولايات المتحدة للاستعلامات قد أهداها لأصحابه ، يستوقف نظره فيها رسم قرية شبيهة بقرى مصر ، فيتساءل من الغاية من نشر هذا الرسم الغريب عن أمريكا ، بينما أن المفكرة اقتصرت على ايراد رسوم مشاهد أميركية فحسب ، وإذا به يقرأ في الصفحة المحاذية ما يلي : هذا منظر قرية بناها الهنود الحمر منذ الف سنة تقريباً في ولاية نيومكسيكو : وقد بنيت البيوت من نوع الطين الذي يسمونه « آدوبي » وهي كلمة مأخوذة من كلمة « الطوب » القبطية ولا يزال الهنود الحمر يسكنون هذه البيوت » .

والواقع أن بلاد المكسيك هي من أقدم أقطار أمريكا حفولاً بالسكان . فقد قال بعض المؤرخين ان وادي المكسيك كان مأهولاً بالسكان منذ خمسة وعشرين الف سنة . وقال المؤرخ برسكوت . « ان المكسيك كانت أبرز بلدان أمريكا اللاتينية عمراناً . كما أن سكانها الأقدمين كانوا يمتازون بذكائهم وأخلاقهم بدليل ما خلفوه من آثار شبيهة بآثار المدنيتين المصرية والهندية وما تركوه من أخبار عن الفتوحات والمغامرات الروائية التي تتمثل فيها أساطير النورمان والطليان التي وردت في الحكايات عن أبطالهم » اهـ .

ولا بدع فان ما بنته قبائل ايبلي قبل نيف وألف سنة من الميلاد في خواتيمالا وبوكاتان من مدن ، كانت آية في جمال البناء والهندسة ولا تزال آثارها تدل عليها ، كل ذلك يعرب عن مبلغ ما وصلت اليه المكسيك من العمران . ومن يزر مارده في البوكاتان ويرى فيها تلك الهياكل المتهدمة المعروفة بخرائب « شيشن إيتذا » بر النعامة والقرود والهندسة ، ومثلها خرائب مثلا وكياروا . وإنا لنقف هنيهة ازاء هذه الآثار ونفكر فيما اذا كانت مصر والهند هما اللتان اقتبستا من المكسيك ، أم أن المكسيك هي التي أخذت عنهما . فقد روى بعض المؤرخين أن اهرام شيشيلكو القائم في ناحية مكسيكو العاصمة ، يتراوح عمره بين الأربعة والعشرة آلاف سنة . وإذا صح أن هذا الاهرام بني قبل بضعة آلاف من السنين فتكون المكسيك قد سبقت مصر في رفع الاهرامات ، وإلا فربما يكون اهرام شيشيلكو عاصر قيام أول اهرام بنته الأسرة الأولى من الفراعنة ، أو أنه بني على أقل تقدير في حدود العصور التي رفعت فيها اهرامات الجيزة الثلاثة من قبل الأسرة الفرعونية الرابعة .

هذا وقد بدا لي إشكال آخر منذ ألقيت نظري على الاهرامات القائمة في تيوتيهواكان وتشوشيكالكو وتولا في المكسيك . وسبب ذلك ان هذه الاهرامات مبنية هي شكل مدرج طبقات وفقاً لاصول فلكية كيما يعرفون بها المواقيت اليومية والشهرية استناداً الى حركتي الشمس والقمر . وأكبر هذه الاهرامات إثنان أحدهما كان يحمل إسم الشمس والآخر إسم القمر . كما استرعت نظري تماثيل ونقوش بارزة في هذه الاهرامات أشبه شيء بنقوش ورسوم الهند ، وغير بعيدة عن نقوش البابليين والكلدانيين . بينما إن اهرامات الجيزة الثلاثة كانت ملساً لا طبقات فيها ولا زخارف .

ووجه الاشكال الذي حدث في نفسي فيما إذا كانت المكسيك قد أخذت فكرة الهرم عن غير مصر مع ما تنطوي عليه من المقاصد وخصوصاً الدينية وذلك لانهم عثروا في آثار بابل على ما يدل ان البابليين القدماء كانوا يبنون أبراجهم العالية على شكل الهرم المدرَّج طبقات وكل طبقة أقل مساحة من التي تحتها على نحو اهرامات المكسيك .

ولكن ماذا نقول عن التمثال الجاثم أمام مدخل معبد المحاربين في خرائب شيشن إيتسا في يوكاتان ؟ فاذا كانت فكرة الأهرام لم تنتقل عن الفراعنة ، بل نقلت من بابل ، فهل نرى ان هذا التمثال الكبير الذي يمثل رأس امرأة في جسم حيوان غير مقنبس أيضاً عن أبي الهول الرابض في الجيزة ؟

وماذا نقول عن تلك النقوش ذات الشكل الصوري التي وجدت في المكسيك على قبور بعض القواد العظام وغيرها ؟ وهي تشبه الكتابة الهيروغليفية المصرية المنقوشة على الأحجار والبردي .

* * *

تلك معلومات لا تزال سرًّا من الاسرار لأن التنقيب عن الآثار في المكسيك يرجع الى غرة هذا القرن فقط .

ولعلَّ المكسيك التي تجمع في ماديَّاتها أصولاً تتفق مع الهند وبابل ومصر كانت على اتصال مع الشرق ، ولعلَّ أدوات الاتصال بين أجزاء الأرض في عهد قديم كانت أرقى درجة من السفن والمراكب ذوات الأشرعة . وما يدرينا اذا كانت حكاية بساط الريح وليدة حقيقة أضاع الزمان معالمها وان ما بقي منها يتناقل على الألسن أصبح من قبيل أسطورة من الأساطير .

(بيروت) محمد جميل بيهم

٣ = سياسة

الارشاد الاجتماعي

على أي أساس ينبغي أن نقوم ؟

ب — الدراسة الاجتماعية المقارنة

كان تيار النشاط الفكري العام محصوراً حتى عهد قريب في نطاق السياسة المطبوعة بطابع الجدل الحزبي المنطرّق الذي يضلّل ويؤذي أكثر مما يهدي ، وينفع . ولم تكن قضية الوطن الكبرى ، وهي لا تزال بحق مشكلة المشاكل عندنا ، لتأخذ بنصيب من العناية الجدية يصرف إلى غيرها من المشكلات الاجتماعية الدقيقة التي بدأت طلائعها تخرج في أفق المجتمع المصري الحديث ، وتشغل بال بعيدي النظر من الكتّاب وأنباحثين من الوطنيين والأجانب على السواء .

ولقد قلّ الرأي العام المصري ، نتيجة لهذا التجاهل المعيب الذي منيت به مشكلاته الاجتماعية زمناً مديداً ، قاصراً عن إدراك كثير من حقائق التطوّر الاجتماعي الذي بدأ يفعل فعله في بيئتنا القومية منذ فجر ثورتها الوطنية الكبرى عام ١٩١٩ ، وكما عجز الكثيرون من قادة فكره ، مع الأسف الشديد ، عن التوفر الجدي على بحث أهم المشكلات الاجتماعية ودراستها الحديثة ، وإعطائها ما تستحقه المسألة السياسية من عناية ودراية حتى تتعادل « القيمتان » السياسية والاجتماعية لنهضتنا الحديثة في نظر المستنيرين ، بل وأنصاف المستنيرين من أبناء الشعب .

ومن البداهة المقرّرة في علم الاجتماع ، الذي تطوّر تطوراً رائعاً في العقود الخمسة الأخيرة ، أن القوة المحرّكة للنهضات السياسية في الشعوب المتخلّفة نسبيّاً في مضمار الكفاية الذاتية — هذه الكفاية التي تعد الركيزة الأولى في صرح الاستقلال السياسي والاقتصادي معاً هي قوة الإنشاء الاجتماعي Forces of Social Reconstruction وأعني بها قدرة

« الوعي الجمعي » في الشعب ، باعتبار هذا الوعي المقياس الصادق لقوة تضامنه وحيويته ، على جعل مجتمعه على الدوام مجتمعاً متحرّكاً Société Mobile لا مجتمعاً جامداً أو متخلفاً immobile عن مواكب غيره من المجتمعات ذات الطاقة الانتاجية النامية

ولا نكران في أن مجتمعنا المصري بظروفه الراهنة لا يزال تعوزه الى حدّ بعيد هذه القوة الانفعالية الخلاّقة ، في ناحيتيه النفسية والمعنوية على حدّ سواء . والواقع أنه كان من جراء حاجتنا الى بعث هذه القوة في كيان مجتمعنا الذي ما زال يجتاز فترة انتقاله ، أن ظلت غالبيتنا لا تستطيع أن تفهم من مدلول كلمة « الاصلاح الاجتماعي » أكثر من مجرد أمانيّ عريضة وأحلام وتصوّرات لا يزال بريقها يبهت أمام الأحداث المتعاقبة حتى يتلاشى من مخيّلاتهم المكدودة ، على حين يذهب فريق آخر مذهباً متطرّفاً يجعله لا يفهم من معاني الإصلاح الاجتماعي غير الصور الهدّامة والأوضاع الشاذة التي لا يمكن أن تستقيم مع مقوّماتنا أو صوروثات بيئتنا الشرقية وظروفها الخاصة .

وكم يؤلمنا أن نقول ، ونحن آمنون من أن تتهم بالمبالغة ، إن عيب الارتجال إذا قُدّر له أن يبرز بصورة ملموسة في أية ناحية من نواحي سياستنا العامة ، فانه لن يكون أقوى بروزاً أو أبين ظهوراً منه في سياسة الاصلاح الاجتماعي التي نُبدي فيها القول ونعيده في الأحايين المستفيضة والخطب الرنانة المنمقة ، دون أن نضع لأنفسنا حتى اليوم برنامجاً واضحاً محدّد الأهداف مرسوم خطى التنفيذ ، مطابقاً ، ما استطعنا سبيلاً الى المطابقة ، لظروفنا الاقتصادية والاجتماعية ومخاصة في ظل هذه الفترة الانتقالية الدقيقة التي نجتازها اليوم .

ولا يحسبنّ أحد أن مبادرتنا الى تقليد مشروعات السنوات أخيراً يُعد بداية عهد جديد للتنظيم العلمي لجهود الاصلاح الاجتماعي المبعثرة والتنسيق الفني لمشروعات الانشاء والانتاج لرفع مستوى الطبقات الدنيا ، بل إن الحقيقة التي لا تكاد تخفى مراراتها علينا جميعاً ، هي أننا حتى في هذا التقليد الجديد ارتجاليون أكثر منا سياسيين مجرّبين أو مدبّرين فنيين لا يعوزهم الالمام والبصر بنهايات كل مشروع ولا تنقصهم القدرة على التقدير السليم للنتائج والمعقّبات الى الحدّ الذي يجعلنا لا نخطو خطوة واحدة مالم نوقن أنها ستكون في الاتجاه

السليم ، حتى لا تتكبد — كما يحدث غالباً — من الجهود المضنية والنفقات الطائلة ، مالا يكاد يجدي أو يُثمر

وليس النقص هنا نقص أموال يمكن تدبيرها أو أيدٍ عاملة وسواعد منفذة يستطاع تكتيلها وحشدها بقدر ما هو نقص بيّن في الدراسات المنظمة والجهود المنسقة والفنيين الذين لهم خبرة سابقة بتفاصيل كل مشروع وقدرة على الالمام بعناصره من النواحي الاقتصادية والمالية والاجتماعية ، بل والنفسية أيضاً !

والحق الذي لا نستطيع نكرانه أن الدراسات الاجتماعية بالمعنى العلمي المفهوم في بلدان الغرب وأوساطه الثقافية ، لا تكاد نحس لها أثراً في حياتنا عامة ، هذا إن لم تكن في حكم المعدومة أصلاً ، والدليل على ذلك هذه النزعة الارتجالية المسيئة التي كادت تصبح من أبرز سمات الحياة العامة عندنا .

وقد تكون ثمة دراسات واسعة مشبعة وتقارير صافية منضبة ، تتمخض عنها لجان هنا ولجان هناك ، ولكن الوضع هنا ليس وضع بمقدار وكم ، بل وضع نهج وكيف ، وليس كذلك وضع سياسة حزبية معينة تقضي عليها سياسة حزبية معارضة ، بقدر ما هو وضع سياسة قومية عامة تمثل أسسها وقواعدها التي لا خلاف عليها فوق جميع الأهواء والاختلافات .

وإلا فأين معاهد البحث الاجتماعي الفني عندنا ، بل أين خبراؤه وإخصائيوه ؟

أو أين الدراسات الجامعية العالية في هذا الحقل الخصب والمجال الرحب ، بل أين مراكز التجارب الفنية والعملية التي تجري على الدوام في محيط البيئتين الريفية والمدنية لتكون نتائج هذه التجارب نواة صالحة لسياسات انشائية ناجحة ومشروعات عمرانية لا يقدر لها الاخفاق والفشل ؟

وأخيراً وليس آخراً ، أين الاحصائيات التحليلية الدورية التي تتناول شتى تفاصيل الحياة الاجتماعية وسائر صورها وأوضاعها لتعطي للباحث الاجتماعي جزءاً كبيراً من المادة الأولية التي ستكون قوام بحثه في الحالات الاجتماعية المختلفة وهو بسبيل تقصيه لعللها الخفية وأسبابها المطوية في تضاعيف عديد من تلك المظاهر الخارجية التي تخدع غالباً ولا تصدق الا قليلاً

وهكذا يبقى بنا جيل التساؤل : لماذا تتكشف الاجابات المتناقضة الا عن حقائق مزيفة أو أوضاع ومظاهر «مظهرية» كاذبة ؟

ومن هنا البحث على المرارة و الأسف من أن نعلم أن من أهم المعوقات التي قد تحول فترة من الزمن دون توافر المراكز الاجتماعية في قرى المملكة المصرية فضلاً عن إنشاء هذه المراكز نجاحها المرجوة في تحقيق الاصلاح الاجتماعي في الريف هو عدم توافر الاخصائيين الاجتماعيين الجديرين بهذا اللقب أو المتخصصين في فن الارشاد الاجتماعي من الناحيتين النظرية والعملية على غرار ما نفهم من هذا الفن وطبقاً لما تحقق منه في مجتمعات الغرب التي سبقتنا أشواطاً بعيدة جداً في مجال الخدمة الاجتماعية Social Work ووقفت الى حدٍّ بعيد في تحقيق أهدافها الانسانية الرائعة ؟

وفي الوقت الذي نجد بلاداً كالولايات المتحدة الأمريكية تفيض في سعتها بمعاهد البحث الاجتماعي ومراكز الدراسات المقارنة في مشكلات الحضارة الآلية وما خلفته من آثار في محيط المجتمع والأسرة ، بل في الوقت الذي تخصص الجامعات فيها على اختلاف أساليبها ومناهجها في الدرس والبحث ، أموالاً ضخمة وجوائز قيّمة لموالاة البحوث المستفيضة والتجارب الواسعة في هذا النطاق الخيري ، نجد بلادنا على سعتها وعلى حداثة عهدها الى البحوث الاجتماعية وعلى أخذها بحظ وافر من التعليم الجامعي الحديث ، وعلى قيام الجمعيات العلمية في ربوعها ، لا تكاد تفرغ من الجهود العلمية والعملية لهذه الناحية ، الا أهونها وأتفهها ولا تخصص من الأموال المنفقة على هذه البحوث إلا أقلها وأسألها !

وإني إذ أكتب الآن هذه السطور أجد بين يدي وأمامي على مكتبي مجموعة مختارة من أروع وأمتن البحوث والدراسات الجامعية في شتى موضوعات الاجتماع والاقتصاد .

فهذا بحث ضاف لجامعة «مينيزوتا» عن مشكلة البطالة يمتاز بنزعته العملية ومشوراته ونصائحه التطبيقية ، وقد توفر عليه نخبة من أساتذتها الأجلاء الذين تطوعوا لهذه الدراسة الشاقة حينما اشتد عصف الأزمة المالية خلال أعوام ١٩٣١ و ١٩٣٢ و ١٩٣٣ بالمؤسسات المالية والصناعية الكبرى في أمريكا مما كاد يهدد مركز البلاد الاقتصادي .

وهذا بحث مقارن جامع لجامعة وسكانسون في مشكلات القرية والتعاون في دعم الزعم

الاقتصادي وسيطرة الآلة ، وتلك دراسة علمية تطبيقية رائعة لجماعة من أساتذة جامعة « نورث كارولينا » من مشكلة « اليرجونية Eugenics » وأعني بها تحسين النسل بطريق التعقيم .

والحق كان هذا البحث من أهم البحوث التي استندت إليها تشريعات عدة ولايات أمريكية صدرت لتحقيق هذه الفكرة الجديدة وتطبيق مشروعات هذا الاصلاح الاجتماعي الكبير فيها .

وثمة بحث طريف آخر مدعّم بالاحصائيات الدقيقة والملاحظات العلمية العائلة للاستاذة « ماري فرامبتون » بجامعة هارفارد عالجت فيه مشكلة من أعقد مشكلات المجتمع الحديث وأعني بها علاقات الاتصال وعوامل التفاعل الدائم بين بيئة الحضر وبيئة الريف ، وأثر ذلك كله في تدرج النسب المئوية لهجرة السكان من إحدى البيئتين إلى البيئة الأخرى ، وأثره أيضاً في مشكلة التعطل الدائمة والمؤقتة ، ثم كيفية تمهيد وخلق فرص العمل بوضع ميزان دقيق عادل لتنظيم الهجرة بينهما .

وغير هذا وذاك دراسات ودراسات لمعاهد وهيئات كانت ولا تزال عمدة السلطات الحكومية والمجالس التشريعية فيما تقوم به من مشروعات كبيرة وتشريعات سديدة في ميدان الإصلاح الاجتماعي الذي فتر في هذه البلاد فترات رائعة خليقة بأن تحتذى حسناتها من جانب البلاد التي لا تزال متخلّفة إلى حدٍّ بعيد في هذا الميدان .

أما مجالي الاصلاح الاجتماعي في انجلترا ودول شماليّ أوربا ، كدانمركة وسويد ونروج وغيرها ، فحدّث عنه ولا حرج ...

فاذا نحن واجدون عندنا في مصر من مثل هذه الدراسات والبحوث ، وماذا أعددناه من جهود كثير من الهيئات والجمعيات العلمية في ميدان تعد الخدمة فيه من أهم أركان ومقومات المجتمع القويّ السليم ؟

اللهمّ لا شيء يعتد به من الناحيتين العلمية والتطبيقية فيما خلا نتفاً ضئيلة لا تكاد تغني أو تسمن من جوع ، تتحدث عن جهود فردية مبعثرة تذهب كما قلنا صرخةً في واد ! ...

إننا إذن جدُّ فقراء في محصول هذه البحوث الاجتماعية العلمية ودراساتها التطبيقية

المقارنة التي تكوّن بحق « الوعي الجمعي » المرهق عند عامة أفراد الشعب .

نعم إن مشكلاتنا الاجتماعية في الريف ما تزال تنتظر بحوثاً أوفى وأكمل من الناحيتين الاجتماعية والمالية عن مسائل الغذاء الصحي والمسكن الملائم والملبس المناسب والحرفة المربحة كما لا تزال تنتظر دراسة أوفى لتدبير طرق الوقاية الميسورة من غوائل الأوبئة المتوطنة والعارضة التي تجد من بيئة الريف الفقيرة الجاهلة مرعىً خصيباً تعيث فساداً فيه أياماً وشهوراً ! ..

وثمة مجال النشاط التعاوني في شتى نواحي الحياة في القرية وهو النشاط الذي عليه المعول الأكبر في رفع مستوى الحياة فيها . أين دراساته التطبيقية وبحوثه العملية وإحصائياته البيانية ؟

كذلك الحال في مشكلات الأسرة ، مع ملاحظة الفوارق المادية والثقافية والنفسية بين حالة الأسرة في المدينة وحالتها في القرية الريفية المحدودة الموارد والأساليب . أين البحوث والاحصائيات الدقيقة المنتظمة عن كل ما يتعلق بموضوع الطفولة ، وما يتصل بمشكلتي الزواج والطلاق إلى جانب التحليل العلمي لمظاهر ونتائج العيوب الخلقية المتوطنة في بيئات الأسر ، وبخاصة في الحواضر والمدن ، تلك العيوب التي تعد معاول هدم وتخريب في كيان المجتمع ؟

إذن لا بدّ من إعداد العدة لهذا كله وتنظيمه التنظيم الذي يكفل إبناء الثمرة المرجوّة من ورائه ، في سبيل إصلاح المجتمع المصري ريفه وحضره ورفع مستوى طبقاته ، وتقريب الفوارق البعيدة التي تفصل اليوم بينها وتحول دون تنمية روح العدالة الاجتماعية أفرادها لنجعل مبدأها هو الأعلى دائماً وهو الأول باستمداده في شتى محاولتنا للانشاء والاصلاح والترميم .

إن أول ما يجب أن نعني به إذن هو تأصيل الدراسات الاجتماعية للمقارنة في بعض بيئات البحث الاجتماعي العلمي في مصر ثم العمل بغير تريّث أو وناء على إعداد الاخصائي الاجتماعي وكذلك المرشد الاجتماعي الذين يكون في مكنتهما فهم رسالة الاصلاح والارشاد على حقيقتها والنهوض بعبء الدعاية الاجتماعية المتجهة في شتى البيئات والأوساط . وليكن

في علمنا جميعاً وعلم المعنيين بهذه الشؤون خاصة سواء كانوا من رجال السياسة أو من أعضاء البرلمان أو من رجال القانون والتشريع أو من كتّاب الدراسات الاجتماعية المختلفة . أنه بغير الاخصائي الاجتماعي الكفء أو بغير المرشد الاجتماعي المجرّب لن تقوم الحماية الاجتماعية أو للارشاد الاجتماعي في مصر قائمة .

والحق أن الغرض المقصود من العناية بأمر هذه الدراسات والبحوث الاجتماعية هو تزويد الاخصائي الاجتماعي ، الذي سيكون نواة المراكز الاجتماعية في الريف ، وكذلك المرشد الاجتماعي الذي سيكون لسان حال الاصلاح عامة سواء في الحضر أم الريف ، بخلاصات وافية من هذه الدراسات فضلاً عن أنه سيكون من المشاركين بصورة إيجابية فيها . ولتحقيق هذا الغرض الكبير اقترح الاقتراحات الآتية :

١ — توسيع اختصاص مدارس الخدمة الاجتماعية وإفساح المجال فيها أمام الدراسات والبحوث الاجتماعية المقارنة من الوجهتين النظرية والعملية ، ومنح إجازات ثمينة لمكافأة البحوث التي استكملت عناصر البحث العلمي السديد . على أن تُعد هذه المدارس للمعونة المالية التي تكفي لامانتها على القيام بوظيفتها الأولى في الاعداد لممارسة الخدمة الاجتماعية .

٢ — يُراعى من الآن فصاعداً أن يكون اختيار من يتولون مهمة الارشاد الاجتماعي أو من يشغلون وظيفة الاخصائي الاجتماعي في المراكز الاجتماعية المزمع تعميمها في أنحاء الريف ، محصوراً في ذوي الاستعداد الخاص من خريجي قسم الاجتماع بكليات الآداب بالجامعات المصرية ، على شريطة تدعيم مناهج هذه الأقسام وإقامتها على أسس فنية وعملية الى جانب الاسس النظرية والفلسفية التي تطبع مناهجها الدراسية حتى اليوم ، وفي خريجي مدارس الخدمة الاجتماعية ومن كانوا حاصلين من جامعات الغرب على شهادات معادلة لشهادات هذه المعاهد والكليات . وبهذا وحده نعوّض من فقر قسم الارشاد الاجتماعي بوزارة الشؤون الاجتماعية في الكفايات التي تستطيع أن تضطلع بعبء هذه المهمة وأن تنجح فيها .

٣ — تنشئ مكتب البحث الفني ، بإدارة البحوث الفنية والتشريع ، من رقدته ، وذلك بتزويده بمكتبة عامرة وبقسم فني للاحصاء الحديث وبكفايات تمكن على عمل دراسات

اجتماعية منظمة لمشكلات المجتمع المصري لتكون نبراساً لوزارة الشؤون الاجتماعية ولأعضاء البرلمان عند تحضير مشروع معين أو رسم برنامج منظم من برامج السنوات مع ضرورة عقد صلات قوية بين هذا المكتب الفني وبين مختلف الهيئات والجمعيات والمعاهد التي تقوم بعمل أبحاث مشابهة وتضطلع من جانبها بنفس هذه المهمة ، وذلك بقصد التعاون العام على انجاح كل مشروع من مشروعات الاصلاح .

٤ — تأليف لجنة دائمة ، على أن تحرر تحريراً كاملاً من هنى سمّيت « الروتين الحكومي » يكون قوامها أعضاء عاملين يمثلون وزارات الشؤون الاجتماعية والمالية والعدل والصحة والزراعة ، ومعهم أعضاء آخرون لتمثيل اللجان البرلمانية لهذه الوزارات ، وتكون اجتماعات هذه اللجنة بصفة دورية منتظمة لبحث كل مشروع هام من مشروعات الاصلاح الاجتماعي والعمل على اخراجه الى حيز التنفيذ العملي ، بعد الاقتناع بسلامة أسسه وصحة أهدافه مع تولي هذه اللجنة وضع سياسة ثابتة تقسم على سنوات ، لتحقيق شتى نواحي الاصلاح في هذا الميدان حتى لا تجيء الجهود الحكومية تمرق ارتجال معيب .

٥ — يجب أن تعنى وزارة الشؤون الاجتماعية بارسال بعوث سنوية الى البلدان التي ازدهرت فيها مشروعات الخدمة الاجتماعية ، لاعداد نخبة صالحة من الاخصائيين والمرشدين الاجتماعيين ليكونوا نواة البرامج الاصلاحية الكبرى المزمع القيام بها خلال السنوات القادمة . وكم يؤسفنا أن تكون وزارة الشؤون الاجتماعية هي أقل وزارات الدولة اهتماماً بهذا الموضوع الكبير رغم ضخامة العبء الملقى على عاتقها ولو أنها بدأت تنشط أخيراً بإيفاد مبعوثين لتحقيق هذا الغرض .

وإذا كنت لم أفصّل بطريقة علمية بحتة عناصر الدراسة الاجتماعية المقارنة فلأن ذلك متروك أمره الى طريقة كل هيئة أو منهج كل معهد في إعداد الدراسات والبحوث ولكل أسلوبه كما لا يخفى في تجميع عناصر الدراسة واختيار موضوعاتها وتنظيم مراجعها وتجاربها وليس من العلم في شيء فرض منهج واحد لا يتغير بتغير الموضوع أو البيئة أو حالة الافراد النفسية وتفاوت ظروفهم الاقتصادية والتعليمية وتباين استعداداتهم تبعاً لذلك لتقبل كل إصلاح جديد .

جمال الدين حمدي

رئيس قسم الارشاد الاجتماعي بوزارة الشؤون

(البحث صلة)

أحبك حب الحياة !

١ — على ضفة الجدول الرائق ... وفي كنف الشجر الباسق
وحيثُ الأزاهير تسبي النهى ... وتفشى في صمتها الناطق
وحيثُ الخمائلُ صدّاحةٌ ... بكلّ بريء الهوى صادق
وحيثُ الجمال يتيه العقولَ ... فتسبح في حُلُم شائق
هناك على بعض تلك الرُّبى ... ترى العينُ كوخَ فتىً عاشق

٢ — فتىً في الغرام ولكنّما ... ترى الشيبَ يلمع في عارضيهْ
كثيرُ التجاعيد مُحدودبٌ ... وأعرجُ يمشي بعُكّازتيهْ
أطلّ من الكوخ في ليلةٍ ... يُقلّبُ في طفلةٍ ناظريهْ
وكان الهلالُ يُنيرُ الطريقَ ... ويمحو الدّجى من ذراعيهْ
فأمّلَ في شوقه أن يَرى ... خيالاً من الأفق يسعى إليهْ

٣ — خيالَ خليلَتِهِ المصطفاةِ ... خيال حبيبته الغائبهْ
خيالَ التي وهبتْ فنّهُ ... جمالَ ثُغُوّتِهِ الذهبيّه
مضت للمدينة مدنوعةً ... بشهوة أحلامها الخائبه
وما للمدينة غيرَ الطلاء ... وغيرُ مفاتنها الكاذبه
مفاتنُ تسبي قلوبَ الأنام ... ولا سيما طفلةً لاعبه

٤ — ومرّ النسيمُ به بارداً ... فأرعشَ أوصالهُ فاضطرب
فأغلقَ كوّتهُ يائساً ... وأمسكَ فيثارهُ المنتحب
ومسادفَ ناظرُهُ شيمةً ... تجودُ بأنفاسها في اللّهب
فمرّ بخاطرهِ خاطرٌ ... وقد صوّرت حالَ قلبٍ أحب
فداعبَ فيثارهُ باليدين ... وأنطقهُ كلّ لحنٍ عجب ...

٥ — تُبشّرهُ أنهُ شائخٌ ... وعاجزُ ساقاهُ عُكّازتاه
وتفشلُ فلسفةٌ من فنّهِ ... وتسخرُ في فنّهِ من هواه
وما الفنُّ ؟ إن لم يكن وحيها ... ولمحَ الصبوِ وهمسَ الشفاه
ومن وحيها نَغَمٌ خالدٌ ... دماه أحبّكِ حبَّ الحياه
تهيمُ الليالي بترجيعهِ ... ويخفقُ في كلّ قلبٍ صداه

٦ — وكانا وكانت حياتاها أحاديثَ أهلِ القرى الشائعه
وأنغامُ حبهما أصبحت على كل قيثارةٍ عاشقه
طواها كتولوثة حرَّقٍ يخافُ عليها اليدَ السارقه
ولكنها أنكرتْ سجنها وثارتْ بأغلالها حانقه
فلما أتاها نداءُ الحياة أجابتْ طبيعتها المارقه !

٧ — وها ذاك فصلُ الشتاء الطويل وها نحنُ في ليلةٍ عاصفه
وها قرُ الليل فوق الدروب تلثَّمَ بالديم الزاحفه
أتسمع لحناً ؟.. أجل .. إنه من الكوخ .. أنغامه راجفه
ألمت به وحدةُ العاشقين ويا طالما سامرتْ عازفه
فتىً باتَ يبكي بأنغامه وفي فمه بسمةٌ زائفه

٨ — مضى الليل فانكبَّ فوق الخوان وما زال يحضنَ قيثاره
بجانبه شمعة ألهمت لحون الصبابة أوتاره
وفي جفنه حُلمٌ راعم يرنُّ بالوصل أفكاره
وثمَّ على الدرب همسٌ لطيف كما داعب الطلُّ أزهاره
وثمَّ خيالٌ .. بل قد دنا يُغلِّبُ في الكوخ أنظاره

٩ — أجل هي زوجته أقبلت وقد كاد يغرب نجم السحر
تحاذرُ تلبيهُ من كرى وتدنو وفي ناظريها الخطر
وها هي تحمل هكارتيه وتلقيهما خارجاً في حذر
وترمي بشمعته في الأتان فيضري اللهيب ويسري الشرر
وتخرجُ موسلةً بابها وتسرعُ للموعدِ المنتظر

١٠ — على الجسر ها هي ذي مع فتىً فتىً .. كأن أوقصها في هواه
تدور بداد بأعطافها ويدنو فيلثم منها الفاه
وهاهو ذا الكوخ وسط اللهيب يثُّ من النار تفري حشاه
أتسمع لحناً ؟.. أجل.. إنه من الكوخ والأفق يطوي الشتاء
تصارعهُ النارُ لكنه يُنادي أحبُّكِ حُبَّ الحياة!

(القاهرة) بوسف جبرا

بين العالمية والقومية

عجيبٌ أمر الانسان : انه كرّس القرون الطويلة خارجاً من نطاق دنياه ، حائماً بما وراء الحس ، باحثاً عن أسرار الغيب ، حالماً بالآخرة ، متفكراً بالخالق ، مغمضاً العين عن الحقيقة وشؤونها فلم يتفرّغ لحياته الدنيا إلاّ بعد أن أنجز الأساس الذي ترسو عليه أصول حياته في الآخرة . إنه جدّ وكدّ في الأزمنة الخالية ليدرك أسرار عالم ما بعد الموت ، ولم يخطر له ببال أن يهتم بمصيره وكيانه على هذه الأرض ، ويتفهم جوهر العلاقة بين الأفراد ، وإيجاد الانسجام في الروابط التي تنبثق من كيانهم واجتماعهم . ومن يدري اذا كان الانسان على صواب إذ حاول أن يقيم الدنيا على أساس من الدين وأن يغرق منذ فجر حياته في مفهوم الغيب واللامحسوس ، ويسعى لاعتناق دين يلوذ به هرباً من مواجهة مخاوفه وقلقه ، ويدأب للذّب بحرارة عن هذه العقيدة ، ويجد لنشرها خارج تخوم وطنه ، ويلتمس بمبادئها قوماً غير قومه ، رغبة أو رهبة ، ولو أدى ذلك الى نشوب الصراع بين الجماعة التي يحدوها الحماس الديني والجماعة التي تأبى إلاّ التشبث بتراث قديم قدّسته أجيالاً . ولعله أخطأ إذ آثر الغيب على الحاضر ، واهتم بتنظيم السماء قبل أن يبدأ بتنظيم الأرض ، وارتوى بتخيل ماء تسعد فيها نفسه بعد الموت ، دون أن يسعى لازالة الشقاء الذي لا يزال ينصب على نفسه ، والعذاب الذي يتدفّق على بدنه ، وبلاواه التي يتجرعها ويورثها أعقابه . والمتأمل يرى البشرية قد فنعت بما تملك من الكنوز الدينية ، وباتت لا تحلم بمجيء رسل وأنبياء يكرّزون بالملكوت ، ولا تستشف الكون يتمخض عن ولادة نبي جديد . ألأن الرسالات الدينية بلغت ذروة الكمال المطلق ، أم لأنّ الاختبارات المتراكمة قد برهنت على أن الدين لم يشبع غلة البشرية التي يحدوها الطموح ويحركها الطمع ، ولم يأتها بالترياق لتبرأ من أوصابها ؟

ولئن كانت الحياة البشرية وكل ما يمتّ إليها بسبب قد صادفت صدوداً من الانسان

فيما مضى من الأزمنة ، فانها أصبحت شغله الشاغل في العصر الحاضر وديدنه وموضع تفكيره ومحط آماله . فإذا ما تُوعرت الأمور عليه ، وتراكمت المصاعب ، فلأنه حديث العهد بمعالجة القضايا التي يقوم عليها مصيره ، غير عالم بأسرارها وخفاياها . لقد ذهب البعض الى القول أن اكتشاف دوران الأرض ، والاهتداء الى نظرية التطوُّر وأصل الانسان ، قد حطما الكبرياء الانساني في الصميم وأزلاه من عليائه فقد نصت النظرية الأولى أنَّ الأرض التي يحيا عليها ليست مركزاً للكون ، والنظرية الثانية أظهرت له بوضوح وجلاء أنه ليس أسمى أصلاً من الدودة ، وليس أنقى طينة من سائر الحشرات والهوام . هذا العصر الذي شهد ولادة هاتين النظريتين وانتشارهما ، شاهد ظاهرة في التفكير لم تخطر ببال . هذا العصر شاهد انصباباً كليًّا من الانسان على الانسان وعلَّا كل ما يتعلق به ، واختلفت النظرة عن ذي قبل ، فهو مهما كان أصله ولونه ودينه وموطنه وطبقته ، نقطة الاهتمام ومركز الكون ، وموضوع كل بحث ورائد كل رأي ونظرية . هذا الولع الشديد بالانسان والسعي لاستكناه حقيقته الجسدية والنفسية ، والرغبة في إيصاله الى محجة الخير والفلاح ، والاختلاف بالوسائل والغايات ، لم تشهد له العصور السالفة نظيراً . هذا الكلف بتحديد مركز الانسان في الكون ، وتنسيق العلاقات المتنوعة المتشعبة بين أفراد المجتمع الواحد أولاً ، وبين المجتمعات المختلفة ثانياً ، هو باعث القلق الذي ينتاب العالم اليوم ، وأس الخلاف في الآراء وتضارب النظريات . انه يكافح اليوم ويناضل لا في سبيل مبادىء هبطت إليه من السماء الأولى أو السابعة ، بل انبثقت من سعيه وعبرت عن رغباته وتلوَّنت بطبيعته البشرية . ولأوَّل مرة أصبحنا نرتقب انقلاباً في المفهومات يسفر عن الحروب .

في هذا العصر الذي أصبح الانسان وسيلة وغاية ، بلغت الحيرة الأوج . انه عاجز عن انتهاج خير السبل لأنه عاجز عن ادراكها وعاجز عن ايجاد الحل الملائم لمشاكله وعاجز عن تمييز المفاسد التي ينبغي عليه أن يتجنبها . إنه لم يبلغ المطلق في السنن والنظم التي تمخض عنها ذهنه وتولدت من تراكم اختباراته ، وإنها لن يبلغ بها نهاية الشوط مهما بذَّل ونقَّح ومهما غربل ونقى ، ما دام على ملابسته البشرية الموروثة والمكتسبة وخصائصه المتركزة في أغوار نفسه . كالنحلة الغارية في البيد تصنع منها ما تشاء من الأشكال . هكذا تبدو

البشرية للمراقب المتأمل في سياق تاريخها الطويل تكيفها البيئة والاحداث وتطور الفكر ، ويكيفها الأفراد العباقرة وفق ميولهم ومثلهم . وما برحت البشرية منذ أقدم العصور حتى الآن ميداناً لتجارب الآراء التي تتمخض عنها أدمغة الرسل والفلاسفة والمفكرين . إنها تشبه من بعض الوجوه الحيوانات التي تتخذ وسيلة لامتحان المحاولات العلمية . والفرق بينهما ان الحيوان في نظر العلم مجرد وسيلة ، أما البشرية في عرف المصلح الاجتماعي فهي هدف وغاية . إن العالم لا يرمي الى سعادة الحيوان من وراء هذه التجارب ، لكن المصلح القائد يتوخى قبل كل شيء عز الجماعة ونقلها من حال تدنى بها الى أخرى أكثر نعيماً وأوفر سعادة . والغريب أن يزداد القلق وتشتد الحيرة وتتشعب السبل وتتنوع كلما توغلنا في الثقافة وإستشرفنا الحضارة ، ويسود الهدوء وتنتفي أسباب الخلاف والخصام كلما عدنا أدراجنا نحو البساطة في الوسائل والغايات . فكأن المصاعب قد باتت حليفة لقضايا العصر الحاضر ، ولم يتعمد الانسان خلق الشقاء ليلهو به أو ليلوه ، بل انه انبثق عن طبيعة النظم التي يسير بموجبها وعن الأهداف التي تنافي سليقته ومثله العليا واختياراته . وإذا ما رأيناه يبحث بإلحاح وقلق عن مخارج لما تشكل الأمور وتقع الشبهة ويتلمس سبل النجاة ، فلأنه يشعر بالخطر الذي يحيق به ، ولأنه لم يعد يستطيع الصبر على المفاسد من أي نوع كانت ومن أي مصدر جاءت ، ولأنه أخذ يشعر بمسؤوليته تجاه ذاته وتجاه أمته .

ولئن اتفقنا على القول ان العصر الحاضر يتميز بتنوع مصاعبه ، وتعددها ووفرة مشاكله وصعوبة حلها ، فاننا نختلف كثيراً عند ما نحاول تعليل الأمور تعليلاً صحيحاً ، وتفسير الأسباب التي كانت أمّا لجملة ما نعاني وما نتجشم . في إمكاننا ان نفاضل بين مخترع وآخر ، ونقايس بينهما من حيث الفوائد التي نجمت عن كليهما على وجه يقرب من التام ، وتتصف أحكامنا بالصدق أينما نظر إليها بعين التجرد . أما القضايا الاجتماعية فان بحثها من أوعر البحوث وأكثرها تعقداً وغموضاً لوفرة وجوهها وشدة تنوعها فلا تمنح الدارس متكأ يتكيء عليه بالمطمئنان وليس في وسع الباحث الاجتماعي أن يمتحن الأحكام التي توصل إليها ليتبين الزائف من الصحيح ، بل يتحتم عليه أن يمكث يترقب حصول الأعراض التي تأتي بها مناسبات ليست في الحسبان ولا تخطر على البال . ولو كانت المجتمعات البشرية مكونة

من أفراد بشر، تجردوا من الحرية والاختيار، وتشابهوا في الخصائص والميول، لقلنا أننا خاضعون لنواميس مطلقة لا تتذبذب

* * *

يقول البعض أن نظام القوميات الذي ساد العالم منذ أقدم العصور قد كان من أهم العوامل التي أدت إلى تشتيت شمل المجتمع البشري لما سبب من حروب متصلة الحلقات في ماضي التاريخ وحاضره. وان البشرية لا تستمرئ طعم الراحة والطمأنينة إلا إذا طلقت مبدأ القوميات وتحولت بكليتها إلى النظام العالمي الذي يرمي الى صهر القوميات في بوتقة واحدة تموت فيها كل النزعات التي تولد التنوع والتمايز، وتؤدي بالتالي الى التصادم والتطاحن في سبيل البقاء والحصول على خيرات الأرض والتلذذ بها. ومبدأ الدولة العالمية يبغي كسر الحدود والحواجز ليجعل الجماعات البشرية شعباً واحداً لا يتطاحن في سبيل العيش بل يتعاون ويتكافل.

ولنا أن نتساءل: هل في التاريخ أو في واقع الحياة ما يؤيد مبدأ الدعوة الى العالمية أم ان في التاريخ والواقع ما يؤيد مبدأ القوميات الذي يسود في العصر الحاضر؟. ان فكرة انشاء دولة عالمية وجعل العالم أسرة واحدة حلم من أعذب الاحلام وأمنية من أشهى الأماني. وهي ليست حديثة العهد بل إنها قديمة. ولم تنفرد الهيئات السياسية بالدعوة إليها والسعي لتحقيقها، بل ساهمت الهيئات الدينية بنصيبها في هذا الأمر، ولئن تكن الفكرة قديمة فذلك لا يضفي عليها هالة من القداسة ولا يبرهن على أنها قابلة للتحقيق. ولئن دلّ قدمها على شيء فانما يدل على نزوات طارئة وأطماع عارضة، وآمال تذبذبها الأوهام والخيال الجامح وهي أشير بوضوح الى درجة الفهم في أصحابها: إنهم توهموا البشرية كلًّا لا نوعاً!!.

كان أنبياء اسرائيل يكرّزون بالعالمية، وتخيلوا أن هدف الجنس البشري في سياق تطوره أن تجتمع الأمم بأسرها في هيكل صهيون في ظل عقيدة دينية واحدة. وادعت الكنيسة الكاثوليكية أن روما عاصمة العالم ورادعة الكون». وأكثر ما تركوت النزعة في القبض على زمام العالم في أقوال البابا بونيفاس الثامن (١٢٩٤): «... تصرّح إذاً ونقول ونقرّر ولصّر أن خضوع كل مخلوق بشري للحبر الروماني ضرورة يقتضيها الخلاص» وكان شعار فريدريك الثالث ملك النمسا Austria est imperare orbi universa = A. E. I. U. O.

أن السلطة على العالم خاصة بالنسا » وكان شارل الخامس يطمح الى السيادة العالمية وكان يقول : « دائماً الى الأمام » . ولقد راود هذا الحلم خيال نابوليون ، فكان يطمح ليصبح الرئيس الأعلى للقارة الأوربية ، يهب قواده الممالك والأقاليم ، متخذاً بطانته من الملوك ولا يكون البابا أكثر من وكيله الروحي وتصبح باريس عاصمة العواصم . وكان يتأسف لأنه أتى في زمن متأخر ولم يخلق في العصور الخوالي ! . واننا نعلم الآن مصير تلك الأطماع التي جاشت في صدور أصحابها ، ونعلم أنها منيت بالإخفاق دون أن تكتب لها الحياة ، سواء تلك التي تنوّه بها قادة روحيون أو حنّ اليها قادة زمنيون يريدون اخضاع المستقبل وتحقيق ما تأباه الحياة .

إن التاريخ لم يسجل في صفحاته تحقيقاً للنظام العالمي وليس هناك ما يشير الى أن العالم سائر نحو هذا النظام الذي ينسخ من الأذهان فكرة الأوطان ومبدأ القوميات . وإذا ما أخفقت جميع المحاولات لتوطيد دعائم هذا النظام ، فلأن الانسان لا يسير بوحي من غرائزه البشرية وخصائصه الاجتماعية ، بل يبحث عن علاج يداوي به أسقامه وعلله ويسعى علّهُ يهتدي الى مخرج يقيه شر الحروب والخصومات . إن نظام العالمية رأي يلبث في الحقول الاشتراكية والفوضوية وليس طريقاً للاتجاه الانساني الأصيل . هو رأيٌ يحل الطبقة محل الأمة والمجتمع . انه يزيل الحدود بين الشعوب ليقيم عوضاً عنها حواجز بين الطبقات التي يتكوّن منها المجتمع . فلا يتحدث التاريخ عن الحروب التي تقع بين الأمم بل يروي لنا قصة النزاع الطبقي . والبشرية في هذا لا تكون خطت خطوة واحدة نحو السعادة والسلام . ودون تحقيق هذا المبدأ وازالة مبدأ القوميات صعوبات لم يخلقها البشر ولم تنبثق من ارادتهم بل نشأت بارادة الحياة وقوتها ومن طبيعة الأرض التي تأهلها ، فالبشرية تتكوّن من سلالات مختلفة تعيش في بقاع أرضية محدودة بحواجز طبيعية ، وتتكلم لغات غريبة ، ولا تدين بعقائد دينية واحدة وتخضع لعوامل اقليمية متفرقة ، وتعيش في حالات غير متشابهة من الوجهتين الاقتصادية والثقافية .

واذا كان التاريخ لم يسجل في صفحاته سابقة للدولة العالمية ، فانه لما يلح في الجوّ بريق الوجدان العالمي . ولا تشكو البشرية لأنها لم تتمكن من تكوين دولة واحدة يعيش مواطنوها

على قدم المساواة ، بل تشكو فقرها في الدواعي الموحدة الجامعة ، وتشكو عقمها الذي لم يتح لها أن تلد سلائق جديدة . ان عوامل التفرقة والتمايز متجسدة في اللغات والأجناس والديانات والأوطان والعروق والأعمار . فاذا ما شئنا ايجاد وحدة عالمية فينبغي أن نزيل كافة الأسباب التي تعرقل هذا المسعى وتجعل التنوع مستمرًّا . ينبغي أن لا يتكلم البشر إلاَّ بلغة واحدة ، ويصبح لونهم واحداً ، وتتجانس التضاريس الأرضية ، والمظاهر الاقليمية وتقضي على مميزات الجنس وتجعل الدين عالميًّا لأنه ما برح من أعظم الأسباب التي تؤدي الى التفرقة والتطاحن والتصادم . ان نظائم رهيبة رافقت ظهوره وانتشاره ، وحروباً وحشية دامت طويلاً . انبثقت عنه ، وحدا بكثير من الجماعات أن تتكمش على نفسها وتتعصب لعقيدتها وتمقت كل من لا يدين بدينها . ويستحيل على الجماعات البشرية أن تلتقي عن صعيد واحد وتعتمد ديناً واحداً شاملاً .

يقول البعض إن الانسان قد تدرج من الفردية الى الأمة مارًّا بالعائلة فالعشيرة فالقبيلة فالأمة . والانسان الذي جاز هذه المراحل خلال تطوره المستمر يستحيل عليه أن يبلغ المرحلة العالمية وهي المرحلة الأخيرة . فليست هذه المتحدات سوى دوائر متسارية في الجوهر متفاوتة في السعة والشمول . وفي إمكانه أن يتدرج في ولائه كما تدرج في مراحل اجتماعه . وقد فات دعاة الولاء المتبادل بين أفراد الجماعة القومية الواحدة طبعي ليس اصطناعيًّا وليس وليد القوة والتكلف ، إنه منبثق من صميم الحياة المشتركة وبه ينجم عن الاشتراك في دورة الحياة الواحدة من وشائج معنوية ومادية . إن الاتصال بالجامعة القومية التي وحدتها الحياة في الوطن واللغة والمنافع الاقتصادية وحلتها بالتسامح الاجتماعي ومكنتها من التفاعل البدني ووحدت مثلها وحدت بها للمساهمة يداً واحدة في بناء حضارتها ومجادها وصوغ تاريخها ، إن هذا الاتصال عضوي لا بل قسري تفرضه ضرورات الحياة ذاتها . أمَّا الخروج الى رحاب الكون ، والتحليق فوق الفواصل المادية والمعنوية ، والتحرر من الغرائز الاجتماعية التي تعمل على تراص المجتمعات القومية فهو من أطوار الرسل والأنبياء فقط . وما أندرهم في كافة العصور والأمم

ولا يزال النظام العالمي فوق المثالب والمطاعن لأنه لم يجسد نظاماً يكفل لملوك البشر

ويوضع على المحك ليظهر غشه من ثمينه وخيره من شره . وهو اذا كان مفيداً للجماعات القومية المنظمة التي اكتمل وعيها فانه وبال على الجماعات التي لا تزال في أول الشوط . إن بث هذه المبادىء في عالم تحركه الانانية والمطامع ، والتغدق بالمساواة والانسانية مع عدم الايمان بها مطلقاً يغرّر بالأقوام البسيطة القليلة الخبرة ويحول دون نشوء أية نهضة قومية ويولد التواكل واللامبالاة .

ويخطىء من يقول ان بقاء مبدأ القوميات مرهون ببقاء الطبقات « العليا » المكونة من الرأسماليين ورجال السياسة والعمل ، وإن الأوضاع الحالية مناقضة لأماني الجماهير الشعبية وإن هذه المساوىء ستزول حتماً عند ما تؤول الأمور الى يد الطبقة العاملة . وفات هؤلاء أنّ هذه الطبقة ليست سليمة من جرثومة النزاع ، وأن هذه الجرثومة كامنة في بنيتها ، فالنزاع العرقي كائن في صفوف العمال ، والدليل على ذلك ما يلقاه العمال الصفر من المصاعب والاحتقار في الولايات المتحدة وغيرها ، وهناك تحاسد ونزاع خفي بين العمال المحظوظين والمغبونين ، ولا ينفك الاضراب يحدث في صفوف العمال ضد الجماعة العاملة الأجنبية التي تزاحمها على القوت في عقر دارها . وإن النظام الذي تمخض عنه القرن العشرون والسائد في الدول الشيوعية ليس بالنظام العالمي المرجو ، وليس بالترياق الذي يشفي البشرية من أوصابها وعللها المزمنة . انه محاولة فذة لكنها ناقصة جاءت في غير أوانها أو قبل تمامها . ولهذا فانه مني بإخفاق لا نظير له ولا عبرة في التفوق الاقتصادي أو العسكري . لأن مقارنة بسيطة تعقد بين نتائجه وثمار العالم الرأسمالي التي يسعى لتحطيمه تدحض هذه الحجة وتنقدها في مهدها . ففي النظام الشيوعي الذي يروّج له الدعاة أنه النظام العالمي المرتقب لم تتوفر الضمانات الكافية التي تصون حقوق الانسان في الحياة والحرية ، ولم يتوفر الجوّ الصالح لنموّ مواهبه وكفاياته وانطلاق انسانيته . ان الدولة قد طغت على كل شيء وتسرّبت الى كل ناحية وتركزت القوة في يدها وجعلتها أساساً وشرطاً لدوام حياة النظام . لقد تفتقت التجربة الشيوعية عن طغيان الجماعة على الفرد وسلب حقوقه واستباحة وجوده لنشأته . إن صورة الحكم في روسيا الشيوعية قد تبدلت ، لكن الجوهر ظلّ هو هو ، كما كان في عصر القيصرية . لقد كانت السلطة المطلقة بيد فرد . أما الآن فانها آلت إلى حزب . كان الملك يحكم

باسم الحق الالهي ، أما الجماعة فانها تتوسل الوصول الى مآربها بمبادىء تدفع الشعب لاعتناقها والخضوع لها بقوة الحديد والنار .

اذا كانت العالمية ليست تعبيراً صادقاً عن الغرائز الاجتماعية وليحت مرحلة نهائية لتطور البشرية ، فهل تكون القومية ثمرة السلائق البشرية الموروثة ، والتساعي بها هدف التطور؟

اتفقت معظم الآراء على القول إن العصبية القومية بزغت في القرن التاسع عشر وأنها إحدى ثمرات الثورة الفرنسية . إن الحصر في القضايا الاجتماعية لا ينسجم مع مناهج البحث الصحيح . فالقومية ليست خاصة بشعب دون آخر ولا يمكن حصرها في زمن معين . فما من عصر خلا الا تجلت فيه هذه النزعة على درجات متفاوتة من الحرارة والوضوح ، وما من شعب الا عبر مراراً وتكراراً عن هذه الروح الكامنة في سويداء قلبه . إنها ليست حدثاً طارئاً لا يلبث أن يزول بل انها ميول أصيلة في النفس أنها ارادة جامحة موجهة لآمال الجماعة وآلامها، إنها شعور يخالج الافراد انهم يتميزون عن سواهم في الخصائص والغايات ومستقلون عنهم في الشخصية والمصير . انها لا تقوم على ميزات بدنية ولا فروق سلالية ولا على عقائد دينية . انها بوتقة تنصهر فيها الفروق المتباغضة والعقائد المتنافرة والطبقات المتطاحنة . وأنك لتلمس هذه النزعة في الأقوال التي تعبر عن الحنين الى بقعة من الأرض معلومة محدودة أو الى جماعة معينة من الناس . وهذا الحنين الذي ينضح عن النفس المشوقة وليد التفاعل مع البيئة . وتتجلى هذه النزعة في الأوقات العصيبة التي تمر بها الجماعة وتهدد كيانها ومصالحها . فتتعقد العناصر عندئذ على الموت معاً أو الحياة معاً وتهب للدفاع عن تراث وصيانة أرواح وأموال . وتتجلى أيضاً في اتفاق الجماعة على الخروج من الوطن والانتشار في أرجاء الأرض . ان نابليون فجر الماء من الصخرة بل أنه بث الأقوام في أوربا أذكى عصر جديد قد لاح . ان الشعوب قد استفاقت تحت وطأة الزحف وعلى وقع حوافر الخيول التي كانت تعوف في أوربا تحمل بذور الثورة ولكم تغير المفهومات وتتبدل . لقد كنا الى وقت قريب نحسب تلك البذور أفضل ما تمخضت عنه البشرية لأنها مهرت الشعوب بالقوانين بدلاً من الامتيازات التي كانت وقفاً على طبقة دون أخرى ، وحررتها من نير العبودية الذي طال ثواؤه على أعناقها . والآن نقول ان كل ما تقاسيه من آلام وما يحل بنا من كوارث وأهوال قد نبتت عن تلك البذور .

لقد شاهدت القرون الوسطى نزعة ترمي الى جمع العالم المسيحي في مجموعة ترتكز على الدين فقط . لكن هذه النزعة ما لبثت أن اعتراها الضعف وبدأ التفسخ يتسرب اليها . فان الوحدة في المعتقد الديني لم تثمر التعاون والسير جنباً الى جنب باستمرار . لقد كانت نهاية القرن الثالث عشر للميلاد خاتمة الحروب الصليبية وكل حرب دينية على الاطلاق . لقد انقلبت الحرب من نصرانية الى قومية تعلن باسم الجماعة القومية التي تعلنها وتغذيها بالمال والدماء . فتفرق كل شعب يميز بينه وبين غيره ، ويفرق بين مصالحه ومصالح سواه ، وحلت مصلحة الأمة مكان مصلحة الطائفة الدينية . لقد كانت الغاية من الحروب الصليبية انقاذ بيت المقدس من يد جماعة اسلامية ، أما الحروب في العصور القومية فترمي الى الحصول على المناطق التي تتوفر فيها مصالح حيوية . ويرى البعض أن هذا التحول من الفكرة الدينية الى الفكرة القومية موصلاً عن الفكرة العالمية أحد العوامل التي تسود العالم اليوم ، والأخطار التي يتأفف منها البشر ولكي نقضي على الفوضى وزوال الأخطار يجب علينا أن نؤسس المؤسسات الدولية التي تقوم على فكرة القومية التي كانت مهداً للشرور مساوئ كثيرة .

* * *

إنني أتساءل : هل الشرور التي نصلى عذابها من حروب تزهق فيها الأرواح وتدمر صرائق الحياة ، وبغض يقصي الفرد عن الفرد ، وضيق ينغص العيش . . . هي وليدة مبدأ القومية ، أم انها ثمرة المفاسد الملازمة للطبيعة البشرية ، وثمرة النظرة الفاسدة والعاطفة للقوميات . إننا أسأنا الظن بالقومية وحملناها وزر كل الشرور ، ولعنّاها أشنع النعوت . إننا لم نبلغ بالقومية المرحلة التي نتوخاها لها من الصفاء والسمو ، ولم نعهد إلا نوعاً واحداً من القوميات المتطرفة ، القائمة على تأليه الدولة ، الراميةالى الطعن على المنافسة العنيفة ، المثيرة للصدور بالبغض والحقد ، المتمركزة على فكرة تمجيد الجنس الراقية عن الحط على الضعيف المغتبطة بالنزوع إلى العدوان والسيطرة كرهاً على العالم وامتصاص خيراته ، إن القومية المثلى لا تخنق الانسانية في الانسان وباستطاعة المرء أن يحيا حياة قومية ويتزع نزعة انسانية . فكما انه بامكاني أن أكون فرداً في أسرة أعمل لخيرها دوماً ، يمكنني أن أكون عضواً في شركة أو موظفاً أو تاجراً أو عاملاً أو جندياً ، وأساهم في مؤسسة دينية وسياسية

والاجتماعية وأكون في نفس الوقت مواطناً في دولة ويستحيل على جماعة قومية تدرك مصالحها وتريد الخير لأعضائها أن تقف حائلاً بين أفرادها وبينها والعالم الخارجي ، وتقضي عليهم أن لا يساهموا في عملية الأخذ والعطاء والانفتاح بمآثر التيارات الفكرية والعلمية وألوان النشاط الأدبي التي يزخر بها العالم . إنها تبغي لكل تراث بشرط أن يكون ملائماً للحياة الجديدة الجميلة . ولا تخفي تراثها كما يفعل البخيل بالأموال التي تتجمع لديه ، وتبيح لأعضائها أن لا يبتعدوا عما يحدث في العالم بل أن يشتركوا فيه بشرط أن لا ينجم عن هذه المشاركة ضرر ينزل بالأمة التي أدين لها بكياني ومصيري ، يتعلق بمصيرها . فلم يحل النظام القومي دون اقتباس أية ثقافة بشرية وتمثلها أو ترجمتها ، ولم يحتكر طرق المواصلات ولا المكتشفات الجغرافية والمخترعات .

* * *

يأخذون على النزعة القومية أنها عجزت عن الانساني بالانسان الى درجة التجرد من الأهواء ، والى إيثار الحق اطلاقاً . اننا لم نبلغ هذه المرحلة من التجرد من الغرائز الاجتماعية لا أفراداً ولا جماعات ولم يشع بيننا هذا الركض بالحق المطلق ، ولم نصل الى مرتبة « أوطيفرون » الذي يتوب عن القتيل في اتهام ابيه القاتل . اننا لا نحجم عن نصرة آبائنا ظالمين ومظلومين وتسير هذه النزعة لاحقة بنا مصاحبة لميولنا كواطنين ننتمي الى شعب معين وننتسب الى وطن معلوم . فليس النظام القومي مسؤولاً عن عدم بلوغنا درجة الكمال ، بل الجبلة البشرية هي التي توجهنا وتكيف ميولنا . أفلا يتباغض ويتطاحن ويتنافس أبناء الوطن الواحد ، وتنشب الثورات الداخلية ، وتوجد الطبقات المختلفة ؟ فالروح العدائية ليست وليدة النظم السياسية السائدة بل وليدة المتحدات التي أوجدتها الطبيعة .

ومهما كابر المكابرون فانهم لا ينكرون أن أسمى المبادىء غت في تربة القومية . ان القومية أخرجت الفرد من صدفة الأنانية السيئة ومهدت له السبل للتفتح والاندماج . انها تسعى لكسر القيود الطائفية البغيضة التي تحول دون التحاب والتسامح الاجتماعيين وحاربت الامتيازات الطبقية بغية توفير السعادة للجميع ، وزينت امره التخلي عن المآرب والأهداف الصغيرة الذاتية والاقبال بغبطة على الخدمة العامة .

إن الدعوة الى انشاء دولة عالمية ليست إلاّ « يوتوبيا » ، وإنها رأي من جملة الآراء التي تمخضت عنها الأذهان بكثرة ما حاق بالبشرية من أخطار وما حلّ بها من كوارث . وان هذا الحل الذي تقترحه جماعة ليس بآخر ولا بأفضل حلّ . وان من يتأمل سير البشرية خلال مراحل طويلة شاقة لا ييأس ولا يتشاءم بل إنه ينتبط ويتفاءل . إن جهودها لم تذهب هباءً وأتعابها جاءت بأشهى الثمرات . أليست الكنوز التي عثرنا عليها وأخرجناها للنور والهواء وطفقنا نستمتع بها وليدة ذلك التنوع البشري الناجم عن مختلف المتحدات وناشئة عن النظام الذي نحاول نسفه ؟ وهل بوسع الدولة العالمية المرتقبة ان تتبرأ مما حققته المجتمعات القومية التاريخية وتحزم بفساده جملة وتفصيلاً ؟ وإذا ما شاءت القضاء على التراث القديم بحجة انه تفتق عن أمم قومية وصبت عليه الزيت والنار ، فعلى أي الأسس تنوي أن تقيم صرح حضارتها ؟ أتعود القهقرى نكاية الى بدء الطريق لتستأنف السير ؟

ظنّ كارل ماركس أن الناس سيجرون الأرض لأنها سوف تصاب بالجدب لتتالي الحراثة ولاستثمارها بدون انقطاع . لقد خاب ظنه ولم تصدق نبوءته . فالأرض لا تنفك أبداً تستعيض ما فقدت . وهل كان يدور بخلده ان الانسان سوف يتوصل لصنع مواد مخصبة يمد الأرض بها فتتضاعف خيراتها ؟ وهل كان يحلم ان العلم سوف يمد الانسان بما لا يحصى من المواد الغذائية الاصطناعية ؟

* * *

إن هناك كنوزاً عظيمة من الخير والحق سنعثر عليها في اثناء التنقيب والبحث . فالتعب لن ينال من العامل والبشرية تظل بكراً أبداً . اننا لسنا مضطرين لنسف هذه المتحدات القومية التي ينبثق عنها التنوع ومن التنوع يتولد الجمال . وهذا التنوع كمّاً ونوعاً ، ليس من شأنه أن يعرقل سير الحضارة . انه لا يختلف عن السلّم الموسيقي الذي تنشأ عنه أصوات متفاوتة القوة مختلفة الجرس ، لكنها منسجمة غير متنافرة ومتناغمة تطرب الأذن وتسر القلب

(صافيتا — سوريا) الياس يعقوب

السيكولوجية العصرية

من كتاب العصرية بقلم ف . ل . هويلر

Modernity By F. L. Wheeler

من الظواهر الملحوظة ، في الحياة الفكرية المعاصرة ، تقدم دراسة السيكولوجية تقدماً مشهوداً .

وهي ناحية من مناحي البحث لها سحرٌ وجاذبية ، ويمارسها عدد وفير من الناس ، في سطحية أو في عمق .

وقد أمطرتنا المطبعة بعدد وفير من الكتب في هذه الناحية ، وكان للحرب العالمية الأخيرة ، فضلٌ كبير في توجيه العناية إلى هذه الدراسة ، بالنظر لما تتطلب الحرب من مسائل تتصل بها مثل بعض النذوذ الجنسي ، والصدمات العصبية التي تنتاب المحاربين ، والاختلالات العصبية الوظيفية وما إليها .

فهذه المسائل وأشباهها ، أدَّت إلى النهوض بالدراسة السيكولوجية ، وبخاصة دراسة التحليل النفسي ، والإيحاء الذاتي ونواحي الشذوذ المختلفة .

ولقد تنوَّعت هذه الدراسة ، وتفرَّدت ، واستقلت ، في تقاريرها ، فوجدت دراسة سيكولوجية الجنس Sex ، وسيكولوجية الجلم ، وسيكولوجية الاجرام ، والسيكولوجية الاجتماعية ، والسيكولوجية الدينية ، وما ماثلها .

وإذا ذكرنا بالفخر والتقدير ، الباحثين المتعمقين في هذه الفروع المختلفة ، وهم قلائل ، إلا أننا لا نستطيع إلا البَرَم من كثرة الباحثين العاديين الذين يخرجون بحوثاً خفة ، أو يمارسون ، في غير زكانة واسعة ، التحليل النفسي .

وإذا أصبحت هذه الدراسة في الوقت الحاضر نوعاً من الهواية العقلية ، بل (مودة) لها اعتبارها ، فإن كثيراً من ميادينها الواسعة يطيقها أساتذة صغار ، ويخرجون غالباً بنتائج تورث الاهتياق .

وفضلاً عن ذلك ، فإننا نجد أناساً يتشدقون كثيراً ، بذكر كلمات « اللاشعور » و « العقد » والليبيدو Libido ، وغيرها دون دراية لمعناها .

كما ، أنا رأينا من كبار أساتذة السيكولوجية مغالاة في قيم بحوثهم ، ففرويد مثلاً يزعم أن أغلب الأحداث النفسية مرجعها الغريزة الجنسية ، فالأحلام ترجع الى تعبير جنسي خفي ، والدين كذلك جنسي في الأصل ؛ لأن عبدة الله ، كما يذكر فرويد ، هو شكل من أشكال التسامي بالحب الجنسي .

ولما كانت أغلب بحوث فرويد ، في متناول الجمهور ، فإن هذه الظاهرة ، قد تفرض في الشباب وجهاً غير حميد نحو الجنس .

* * *

ومهما قيل ، فإن العصر الحاضر ليدين ديناً كبيراً للسيكولوجيين الكبار الغابرين ، وإذا كانت بحوثهم قد تؤدي إلى ميول غير مرغوب فيها ، فإن هؤلاء الرجال غير مسئولين عن ذلك ، ويكفي أن بحوثهم في الأمراض العقلية ، والصدمات العصبية ، ونواحي الجنون وغيرها وغيرها ، هي بحوث بالغة القيمة .

وإن رجالاً أمثال ماكدوجال ، وتولس Thouless — وتروتر Trotter وهادفيلد Hadfield وغيرهم قد أدوا لأممهم ، وللانسانية ، خيراً كثيراً

مصطفى عبد اللطيف السحرتي

بين الشرق والغرب

ضحكت وكان الأحق البكاء لموتى تباهت بأكفانها
وشعبٌ يحن لمهوى القبور وآخر جدّ لكيوانها
أناسٌ تمنت حياة الظلام ودون الهدى سدّ آذانها
وفي الغرب قومٌ يحرق النفوس تثير السبيل لأوطانها

بغداد ضياء الخيلي

كما ، أنا رأينا من كبار أساتذة السيكولوجية مغالاة في قيم بحوثهم ، ففرويد مثلاً يزعم أن أغلب الأحداث النفسية مرجعها الغريزة الجنسية ، فالأحلام ترجع الى تعبير جنسي خفي ، والدين كذلك جنسي في الأصل ؛ لأن عبدة الله ، كما يذكر فرويد ، هو شكل من أشكال التسامي بالحب الجنسي .

ولما كانت أغلب بحوث فرويد ، في متناول الجمهور ، فإن هذه الظاهرة ، قد تفرض في الشباب وجهاً غير حميد نحو الجنس .

* * *

ومهما قيل ، فإن العصر الحاضر ليدين ديناً كبيراً للسيكولوجيين الكبار الغابرين ، وإذا كانت بحوثهم قد تؤدي إلى ميول غير مرغوب فيها ، فإن هؤلاء الرجال غير مسئولين عن ذلك ، ويكفي أن بحوثهم في الأمراض العقلية ، والصدمات العصبية ، ونواحي الجنون وغيرها وغيرها ، هي بحوث بالغة القيمة .

وإن رجالاً أمثال ماكدوجال ، وتولس Thouless — وتروتر Trotter وهادفيلد Hadfield وغيرهم قد أدوا لأممهم ، وللانسانية ، خيراً كثيراً

مصطفى عبد اللطيف السحرتي

بين الشرق والغرب

ضحكت وكان الأحق البكاء لموتى تباهت بأكفانها
وشعبٌ يحن لمهوى القبور وآخر جدّ لكيوانها
أناسٌ تمنت حياة الظلام ودون الهدى سدّ آذانها
وفي الغرب قومٌ يحرق النفوس تثير السبيل لأوطانها

بغداد ضياء الخيلي

اختراع علمي عصري

يدل على نوع الجنين

لكاتب اميركي مشهور

لقد أوشك العلم على تمييز جنس الحمل المستكن في بطن أمه وذلك قبل خمسة أشهر من موعد ميلاده .

كان التنبؤ بجنس الحمل المستكنّ ، مثار شغف من ذويه . فظلّ الدّجالون وكبار الكهنة ودهاقين السحرة يزعمون ، ردحاً من الدهر ، أنهم يعرفون رموزاً ترشدهم الى إماطة النقاب عن هذا السر العجاب . بل كانوا يؤكدون أن نبوءاتهم تصدق في نصف ما يسألون عنه في هذا الباب .

وكان لحكماء أقاصي المعمورة آراء متباينة في هذا التعيين . ومنها أن الحمل المستكن من البنين ، أنشط حركة من البنات ، وإن كانت هؤلاء يعلونه استكناناً . وأن الجنين الذكر ينشأ منه نموٌّ ندي أمه الأيمن نمواً يفوقه في الأيسر . وذلك على حين يحدث الجنين الأنثى آلاماً في الجانب الأيسر من البطن .

أما الأطباء العصريون فيهزأون بهذه الخرافات . وإنما يعتقدون بدليل أكيد ، هو الذي يتعجل للطبيب المولد قبل وضع الوليد . ومع ذلك فإن هذا الرأي العصري الشامل ربما لا يصحّ . والمعروف الآن أن العلماء قد شرعوا في اختراع (بجسّ) جديد سيصبح دليلاً على جنس الجنين المستكن ، إذ يصدق في تنبؤاته بنسبة تتفاوت بين ٧٠ ٪ و٩٠ ٪ وذلك قبل وضعه بخمسة أشهر . وهو بجس يشبه الى حدّ ما (مسابر الحمل) المعروفة في هذا العصر . ولو صحت الأدلة الأولى المشجعة في هذا الموضوع ، التي وقفنا عليها حتى الآن ، لأصبح في وسع الطبيب ، استخراج « عينة » من دمّ الزوجة الحامل . وارسالها الى معمل كيميائي خاص فلا يلبث أن يتبين جنس الطفل المنتظر .

وكان منشأ العمل الأساسي الذي أفضى الى اختراع هذا المسبار العصري ، الخاص بكشف

جنس الجنين الخفي ، المباحث التي قام بها علماء روسيا . أولئك الذين جربوا تجاربه الابتدائية سنة ١٩٤٢ التي أسفرت عن صدق ٩٠ ٪ من تنبؤاتهم . ولكنهم ما لبثوا أن عدلوا عن مواصلتها مرغمين ، في غضون الحرب العالمية الثانية .

بيد أنه من بواعث السرور ، أن تفصيلات هاتيك المباحث الجليلة ، قد أذيعت عرضاً ، في آفاق العالم ، كما حدث كثيراً لغيرها . اذ اطلع الدكتور ه . تايبرجس الطبيب في كلية طب جامعة جورجيا الأمريكية ، على تقرير في هذا الموضوع ، نشرته إحدى الجرائد الروسية . فعمد ذلك الطبيب ـ هو وإثنان من زملائه — هما الدكتور روبرت س . جرينيلات ، رئيس قسم تلك الكلية ، الخاص بعلم « الغدد الصم » والدكتور هربرت . س . كيرمان ، الباحث الشاب ، إذ عكفوا على تمحيص مزاعم علماء روسيا ، لتنقيح تجاربهم .

والمعروف أن الحمل يحدث اضطراباً بيناً في توازن الغدد البدنية . وأن طاقة هذا (المسبار) في تمييز الجنين تتوقف على ذلك الاضطراب الطارىء . كما تدور مقدرة مسابر الحمل على هذه القاعدة عينها . إذ يقوم الجسم في غضون الاضطراب الحملي ، بقذف الزائد على حاجته من المفرزات الداخلية التي تفرزها غدده الصم ، وذلك في البول . فاذا تناول الطبيب المختص هذا البول ، وحقن به الفئران أو الجرذان أو الأرانب ، غير البالغة ، عجّل نمو أعضائها الجنسية ، أي أظهر فيها أدلة محسوسة على كون المرأة حاملاً حقيقة ، والعكس بالعكس . فتصدق اختباراته بنسبة ٩٨ ٪ .

أما مسبار جنس الجنين ، فأقل تمييزاً من ذلك ، إذ لم يبلغ الدرجة القصوى في الاقناع المنفرد . لأن مسابر الحمل تعتمد في صدق تمييزها على المفرزات الداخلية التي يفرزها المبيضان ، في حين تعوّل المسابر الكاشفة لجنس الجنين ، على المفرزات التي تفرزها الغدة النخامية في جسم أمه وعلى ما تفرزه فيه مشيمتها أيضاً ، لأن هذه الأخيرة تفرز مفرزات داخلية أشبه بما تفرزه الغدة النخامية نفسها .

وقد تكون الغدة النخامية[1] أعجب غدد الجسد البشري وأعظمها شأناً . وهي معلقة في

(١) هي غدة توجد تحت الدماغ ، لها وظيفتان أولاهما تأثيرها الشديد في نمو الاحداث نمواً قانونياً . وثانيتهما تأثيرها في نمو الغضلات وبعض الغدد الاخرى . وهي بالاخص تزيد افراز البول وادرار اللبن . والاعراض الخاصة بها تنشأ اما من نرط مفرزاتها واما من ندرتها

الشطر الاسفل من المخ، كأنها ثمرة كرز مستقرة في وسط الرأس تقريباً. وفضلاً عن كونها تسيطر على نمو الجسد، فانها تتحكم أيضاً في حالتي اليقظة والعملفة، وتتحكم كذلك بتغذية سائر الغدد. كما تؤثر هذه الغدة تأثيراً شديداً في الغدد الدرقية والكظرين. ويبدو هذا التأثير على أعضاء في الغدد الجنسية إذ تنبهها الى القيام بوظائفها في سن البلوغ «الحلم» فتصير الفتاة كاعباً والفتى يافعاً.

والبحث الخاص بالغدة النخامية جديد جداً. وقد شرع فيه، جملة، من سنة ١٩٣٠ ولذلك لم يستطع أحد الباحثين حتى أوائل السنة الحالية، احصاء المفرزات الداخلية التي تفرزها هذه الغدة فتؤثر في الجنس. فخيل الى بعض الباحثين أنها لا تزيد على ثلاثة مفرزات على حين زعم آخرون أن عددها ١٢ أو أكثر. ولكن المعروف أن اثنين منها يؤثران في جنس الجنين، اثنان. هما أولاً، الافراز الداخلي المقوي للحويصلة. وهو الذي ينشط المبيض ليفرز أحد مفرزاته. وثانيهما الافراز الاصفر المبيضي. وهذا من شأنه تنبيه المبيضين الى انتاج الخلايا البيضية. وقد تبين للباحثين الروسيين أنه عندما يحتوي دم الفرد الحامل، على كثير من الافراز الأصفر المبيضي، مع قليل من الافراز المنبه للحويصلات، يدل ذلك على ان الجنين ذكر. واذا عكست هذه الحالة، كان الولد المرتقب انثى — ولكن لم يتح لأولئك الباحثين، تفسير هذه الملاحظة المدهشة، فبقيت غامضة. وانما كان كل ما تحيلوه في شأنها أن المفرزات الداخلية التي تنبه المبيضين، الى انتاج خلايا البيض، لها شأن في انتاج الذكور أعظم منه في انتاج الاناث، لأنها تنبه خلايا الخصيتين، وتقوم مقام مقوّي البروستاتة «غدة المثانة» وتنشط انتاج المني. فمن المعقول إذن الظن بأن الجنين الذكر يكون أشد احتياجاً الى هذا الافراز الداخلي، من الجنين الانثى إليه.

وفي خريف سنة ١٩٤٦ شرعت الجمعية الاميركية، التي تعمل في مقر عيادتها الخاصة بفحص الامهات قبل وضعهن لمواليدهن في التجارب، وذلك في مستشفى جامعة أوغسطا في ولاية جورجيا، فعمد تعيين جنس الجنين وهو في بطن أمه. فجعل أعضاؤها يقترحون على كل من تهوى منهن الوقوف على هذا السر الخفي، المعاونة على تنفيذه، بأن تتبرع كل منهن بمقدار ٤٠ سنتيمتراً مكعباً من دمها فستتر رأيهن جميعاً على قبول هذه المعاونة.

فيجدر بنا إذن القاء لمحة على تلك التجربة ، لنقف على بعض المعلومات الخاصة بالعقبات التي اعترضت أولئك الباحثين . وكانت أولاها وجوب فرز الدم الذي استخرجوه من النساء الحوامل ، وذلك بالجهاز المألوف لفرز الشحنة ، قصد عزل خلايا الحمر من مصله . لأن للمصل هو مقر المفرزات الداخلية ، التي تتم على جلس الجنين . وتبقى بعد الفرز معضلة أخرى ، هي تقدير ما يحويه المصل حينئذ من المفرزات الخاصة بتنبيه المبيضين إلى انتاج الخلايا البيضية والتي تنشط المبيض لافراز أحد مفرزاته الداخلية .

ويتم هذا التقدير بتخفيف ذلك المصل بمحلول ملحي مختلف الدرجات ، وقد تبلغ عشر درجات . وتحتاج كل منها في تجربة تأثيرها الى ثلاث فأرات عذارى . أي ان هاتيك الدرجات تتطلب استخدام ثلاثين فأرة . وفي غضون ثلاثة أيام تحقن كل فأرة منها بسنتيمتر مكعب من المصل المخفف بالمحلول الملحي وعند ما تنقضي ٢٤ ساعة على آخر حقنة لها ، تقتل وتشرح جثتها لفحصها فتظهر النتائج المرغوب فيها .

وحينئذ يعد المصل الاضعف تخفيفاً ، الذي ينشأ عنه تضخم المبيضين والرحم لفأرات تضخماً ملحوظاً ، مقياساً لتقدير ما يشوب المصل من المفرزات المنبهة للحويصلة . اما مقدار الافراز الاصفر المبيضي الذي يشوب المصل ، فيقاس بما يوجد في مبايض الفأرات من خلايا التي تولد أحد الافرازات المبيضية . وبهذه المقاييس يتسنى رسم صورة مضبوطة لما يشوب دم الفأرات ، من الافراز الاصفر المبيضي ومن المفرزات المنبهة للحويصلة التي تلزم لنجاح التجربة . وذانك العاملان ، هما الدليلان على جنس الحمل المستكن كما أوضحه العلماء الروسيون .

ولما استكمل أعضاء الجمعية الامريكية جمع « عينات الدم » من النساء ، في مقر عيادتهم السالفة الذكر ، عكفوا على المباحث الخاصة بها . ثم تريثوا منتظرين النتيجة التي تظهرها حجرة الولادة . وكانت سلسلة تجاربهم الأولى مؤلفة من ٣٥ امرأة . فتبين لهم من فحصهن أن أكثر من ٧٠ ٪ منهن قد صحت فيهن التنبؤات التي حدثت في شأن الأطفال المولودين ومن ثمة اتضح لهم أن هاتيك النتائج التي ظفروا بها لم تبلغ الدرجة التي زعمها الروس ، وإن أيدتها أساسيًا . ويسوغ أن يخيل للناس أول وهلة أن هذه الوسيلة معقدة أشد التعقيد ، على حين أنها في الواقع لا تفوق إلا قليلاً أية عملية كانت من العمليات المألوفة التي يؤديها كل يوم أي فني متمرن في معمله الكيميائي .

ومن بواعث السرور ، أن ذينك الباحثين وزميلهما كوبرماذ قد أخذوا على عاتقهم تيسير هذه الطريقة الفنية وتحسينها حتى تصير أشد إحساساً وأدق إتقاناً مما هي عليه الآن .

ولقد أثبتت دراسة الصبغيات[1] « الكروموسومات » أن جنس الطفل يعين في لحظة الحمل به . وذلك عندما تخترق نطفة الذكر بيضة الأنثى فتتحد بها وتلقحها . وقد ثبت أيضاً أن الرجل وحده هو المسئول شخصياً عن جنس الطفل وإن كانت النساء هن موضع المدح والقدح في كل زمان ومكان ، إما من جراء ولادة البنين وأما من البنات . إذ النساء يحملن الصبغيات المولدة للإناث فحسب . أما الرجال فيحملون الصبغيات المولدة لجنسي الذكور والإناث كليهما . ومتى اتحدت نطفة الذكر حاملة الصبغيات الأنثوية ، ببيضة الأنثى الحاملة للصبغيات ذاتها كانت النتيجة بنتاً . وإذا كان الرجل حاملاً نطفة ذات صبغيات مذكرة والتقح ببيضة ، كان المولود ذكراً . وفحاوى القول ، إن الوالدات لا تأثير لهن في جنس المولود . واقترح الدكتور إ . نيومن هارفي العالم البيولوجي في جامعة برنستون طريقة يجوز أن تصبح عملية للتحكم في الذرية . وقد علل مذهبه بقوله « إن نصف نطاف الرجال تقريباً يحتوي على صبغيات مؤنثة ، ونصفها الآخر ، صبغيات مذكرة . وبين ذينك النوعين فرق طفيف في الوزن ، إذ تحتوي الصبغيات المذكرة على كروماتين[2] أكثر قليلاً مما يشوب الآخر ، ولذلك تكون أثقل منها قليلاً .

وفي هذا الصدد صرح الدكتور هارفي قائلاً « لما لا نتذرع بالفرازة التي تفصل أحد النوعين عن الآخر ، ما دمنا نعرف أن الفرازات العصرية تدور بسرعة فائقة لا يصدقها العقل ، بحيث تزيد على مليون دورة في الدقيقة الواحدة . وبسرعة كهذه يستطيع الجسم الذي يزن أوقية واحدة ، توليد طاقة رحوية تعدل ٢٣٧ طناً أي قدر وزن قاطرة ضخمة ! » وبهذه الضغوط الفادحة يمكن فصل مادتين بعضهما عن بعض ، وإن يكن الفرق بين ثقليهما دقيقاً .

فيبدو لنا بهذا الأسلوب إمكان التفريق بين العناصر النطفية المكونة للذكور والإناث . وحينما تظهر بهذه النتائج يتسنى لنا غرس الجرثومات الملتقاة ، وذلك في قتاد عنق الرحم فنحصل على النتيجة المنشودة وهي الحصول على الطفل المرغوب فيه ، بيد أن هذه الوسيلة لا تجدي كل الجدوى إلا في حالة التلقيح الصناعي ، حيث تبذل جماعة الأطباء ، أرباب العيادات الخاصة ممارسة هذه المهمة الشائكة فحاري جمهورهم ، في الترفيق بين المميزات الطبيعية للأقح والمقمح ، وعند ما تتحقق أماني الدكتور هارفي هذه ، يصير في وسع الآباء المقبلين اختيار ما يروقهم من النسل مطمئنين ذكوراً كانوا أو أناثاً . ولا جرم أن التجارب الأولى لهذا الاختراع ستجرب في الحيوان حتى يتحقق نجاحها فتطبق على الانسان . هرض هنري

(١) أجسام قاطة تتكون في الخلية الحية

(٢) الكروماتين — مصطلح بيولوجي لا يكون اخضاب في الخلية

مخترعات الطبيعة

في البدء كان الوجود المادي فضاء غير متناهٍ تسبح في حيّزه منه ضويئات (فوتونات) أثيرية ، هي أصل المادة المسماة « الهيولي الأولى » وكان هذا الحيّز الذي تشغله الهيولي متناهياً ، أي له قدرٌ معين . وأما الفضاء فلا نعلم له نهاية

والضويئات الأثيرية ذات خواص تؤهلها للتطوّر وهي : —

١ — كانت الضويئات تدور على نفسها دورة محورية

٢ — كانت كل ضويئة تجذب زميلتها أو زميلاتها . والجذب سجيةٌ فيها .

٣ — بالتالي كانت الضويئات تتجاذب وتتداور بعضها حوله بعض .

٤ — كانت بحكم التجاذب والتداور قابلة للإئتلاف فالتجمع

لولا هذه الخواص الأربع لما كان للهيولي معنى ولا وجود

٥ — لمؤتلفات الضويئات خواص جديدة غير خواص المفردات التي تتألف منها .

من ائتلاف عشرة آلاف ضويئة تكوّن الكهيرب (الالكترون) وله خاصة الكهربية السلبية . ومن ائتلاف ١٨٤٠ كهيرباً أو ما يساويها من الضويئات أي ١٠٠٠٠ × ١٨٤٠ ضويئة تألف الكَهْرَب (البروتون) وله خاصة الكهربية الايجابية . ومن هذا العدد نفسه تألف أيضاً المتعادل (نيوترون) وهو لا كهربية فيه وأنما فيه طاقة . هذه الجسيمات الثلاثة تسمى ذريرات

من ائتلاف هذه الذريرات الثلاث (الكهرب والكهيرب والمتعادل) تتألف الذرة الكيماوية . وأنواع الذرّات الكيماوية المكتشفة حتى اليوم ٩٢ ذرّة تختلف باختلاف عدد ما فيها من ذريرات . وتسمى الذرّات أيضاً عناصر كيماوية

التجاذب والتداور أدّيا الى التجمع السديمي . والسديم ضباب كوني عظيم رقيق . وهو

مجموعة أجرام ونجوم سماوية ، وكل جرم هو مجموعة ذريرات وذرّات متنوعة . النور والحرارة اللذان يصدران من الشُّدُم وأجرامها هي ضويئات متناثرة بتموّج وتسمى أشعة . وتناثرها في الفضاء يسمى إشعاعاً أو تشعُّعاً .

والائتلاف الذّريري الذي تتكوّن به الذّرّة من الذّريرات هو أول مخترع من مخترعات الطبيعة وبداءة التطورات الكونية .

هذا التطور شامل جميع الشُّدُم والاجرام على الاطلاق

التطور الكيماوي

للذّرّات حراص التجاذب والدوران كأجزائها الذّريرات التي تؤلف منها . ولها ضربٌ من الائتلاف يرتفع عن ائتلاف الذّريرات يسمى إلفة كيمية . وبه تتألف جزيئات Molcules عن الذرات الكيماوية كجزيئات الماء والحوامض والأملاح والكولويدات (الغرويات) على اختلاف أنواعها المتعددة . وليس هنا محل لتفسير الائتلاف الكيماوي . وقوة الائتلاف الكيماوي بين الذرّات تتفاوت بحسب عدد الذّرات التي في كل ذرّة منها بسبب قوة التجاذب بينها . فالكهارب والمتعادلات متجمعة في وسط الذرة ويسمى مجتمعها نواة . والكهيربات تدور في مدارات (أفلاك) حول النواة بعضها ضمن بعض على أبعاد مختلفة . وقوة التجاذب بينها تتوقف على تباعد الأفلاك عن المركز (النواة) حسب قانون الجاذبية

الإلفة الكيمية اختراع ثانٍ من مخترعات الطبيعة . لم يعرف إن كانت هذه الألفة موجودة في جرم سماوي آخر .

المزايا التي لبعض الذرات

لبعض الذرات الـ ٩٢ مزايا خاصة علاوة على الائتلاف الكيماوي . كلما كان عدد الذريرات في الذرة قليلاً كان التجاذب بينها شديداً لاقتراب أفلاكها (مداراتها) المركز (النواة) كذرات الهيدروجين والهليوم والنترجين والاكسجين والكربون والكبريت الخ لأن كهيرباتها أقرب الى المركز الذي تجتمع فيه الكهارب . وهو معلوم من ناموس الجاذبية أن الجذب يشتد حسب القرب من المركز . وكلما كان عدد الذرات في الذرة الواحدة كثيراً كان التجاذب بين الذريرات ضعيفاً لبعد أفلاك البعيدة منها عن المركز . واليك المزايا :—

(١) لهذا السبب الذرات العليا العديدة الذريرات في جدول الذرات [1] تتناثر منها الذريرات المتطرفة وينفرط عقدها الى فوتونات (ضويئات) بسبب ضعف قوة الجذب فيها الى المركز . وهذا التناثر يسمى اشعاعاً أو تشععاً Radiation كاليورانيوم والإكتنيوم والثوريوم والراديوم، خلافاً للذرات السفلى في الجدول كالتي ورد ذكرها آنفاً من الهيدروجين فما فوق . فهذه لا تشع ذريرات ولا ضويئات يُشعر بها ، لتماسك ذريراتها بقوة الجذب كما سبق التنويه . هذه هي المزية الأولى لنوع من الذرات أي الاشعاع .

(٢) المزية الثانية ان لبعض الذرات التي في وسط الجدول قوة جذب غير الألفة الكيميية تسمى مغنطيسية وهي ذرات الحديد المغنطيس والنكل والكوبلت . والحديد أشدها مغنطة ١٠ مرات كمغنطة الآخرين . فالمغنطيسية اختراع ثالث من اختراعات الطبيعة

والكهربائية التي هي تيار الكهرباء الجاري في السلك النحاسي هي اختراع ملحق به لما بينهما من تفاعل — المغنطيس يولد تيار كهرباء في السلك الملتف حوله . والتيار الكهربائي في سلك حول الحديد يمغنط الحديد .

(٣) في أسفل جدول العناصر المشار اليه آنفاً مزية ثالثة لأربعة عناصر (ذرات) خطيرة الشأن لنشوء الحياة من اتحادها وهي الكربون والهيدروجين والاكسجين والنتروجين

أهمها الكربون وهو العنصر الذي لا يخلو منه جزيء مؤلف من عشرين ذرة على الأقل. وقد تبلغ الجزيئات الحيوية التي يسمونها الجزيئات العضوية Organic الى خمس مئة ذرة فأكثر كالمواد الزلالية .

الكربون هو العنصر الوحيد الذي تتفاوت فيه وحدات ذرات العناصر الثلاثة الأخرى المؤتلفة معه في الجزيئات الكبرى التي نحن بصددها . لهذا السبب يحسب الكربون عمدة الخليات الحيوية من نباتية وحيوانية في حين انه لا بد من وجود اوكسجين وهيدروجين معه في الخليات الحيوية ولا يندر أن يوجد فيها النتروجين أيضاً .

(١) جدول العناصر الكيميائية مرتب بحسب عدد الكهربات في الذرات . فالرقم الاول هو الهيدروجين لان فيه كهرباً واحداً والرقم ٩٢ هو اليورانيوم لان فيه ٩٢ كهرباً . والارقام التي بين الواحد والـ ٩٢ هي العناصر بين الهيدروجين واليورانيوم بالترتيب

النتروجين عنصر جوهري للحركة في الخلايات والأجسام بسبب انه يأتلف وينحل بالتواتر كثيراً في الجزيئات لانه ضعيف الألفة الكيمية (السبب ذري ليس هنا محل شرحه) ولهذا هو العنصر الجوهري في المواد القابلة للافرتقاع والانفجار كالديناميت .

الحياة

في بعض هذه العناصر الأربعة نشأت الحياة في مواد هلامية جلائينية Colloidal تكونت كيماويًّا من تلقاء نفسها تحت عوامل الطبيعة الموجاء . تكونت في خلايا ميكروسكوبية فردية كالجراثيم الأولى في المياه والمستنقعات ثم تحولت الى جسيمات كالفطريات والطحلبيات والطفيليات والهوام والحشرات وأجسام النباتات والحيوانات الخ .

الخليات الحيوية ليست مجموعات من جزيئات فقط ولا هي مركبات كيموية وحسب بل هي وحدات خلوية حيوية تربط أجزاءها بعضها ببعض القوة الحيوية التي فيما بينها . فهي نوع من التجاذب للجزيئي يختلف عن تجاذب الذريات في الذرة وعن الألفة الكيمية في الجزيء . هي نوع من التجاذب أعلى شأناً من هذين .

ان هذا الترابط الحيوي بين جزيئات الخلية الواحدة لا يزال سرًّا غامضاً تحت بحث العلماء . وقد سماه بعض العلماء أو سمَّى المتأمل فيه « الحاس الحيوي » Elan Vitale وفي نظري الضعيف انه ما خرج عن كونه عملاً كيماويًّا غامضًا غريباً . وعبارة الحاس الحيوي أبقت أمره سرًّا غامضاً فلم تفسره .

الحياة هي الاختراع الرابع من اختراعات الطبيعة .

تمتاز الحياة على الجماد بالولادة والنمو والتوليد والموت والحركة . بهذه المزايا تضمن نموّها واستمرارها . كلما تقدمت في الزمان ازدادت تنوُّعاً . وهذا التنوع يفضي الى التزاحم فالتنازع فالتغير . وهو التطور .

الجديد من الأحياء يختلف اختلافاً كليًّا عن القديم منها . فهو أكثر تعقداً وأوسع انتشاراً . في مضمار التنازع يُبيد الجديد القديم ويحل محلَّه .

معمل الحياة الكيماوي مستمر في التوليد والتجديد بلا انقطاع . ولهذا نرى الأحياء الأولية تعيش معاصرة للأحياء العليا كأنها لا تبالي ان تنصرع في النزاع معها . ومنها

ما تعيش فيها طفيليات . أعني أن الطبيعة لا تكف عن انشاء الحياة وتوليد الخلايات المدنية من المجتمعات الفردية في المستنقعات . ولكن الأحياء السابقة المتركزة المستنبة تتغذيها ولا تدع لها سبيلاً للتطور والارتقاء إلاَّ نادراً جداً . ويغلب أن لا يعيش جديد من الأحياء إلاَّ طفيليات في كنف أحياء مستنبة محتمية بها كالجراثيم المرضية .

أهم مخترعات الطبيعة في عالم الحياة انها تجعل من حاصلات الطفيليات عوامل (سموم) قاتلة لها حرصاً على بقاء الاحياء المستنبة . ولولا هذه الخاصية لما أمكن استخراج الأمصال واللقاحات

هكذا نشأ في سلم الأحياء الانسان سيدها جميعاً .

الحياة هي كجذع شجرة في الطبيعة تفرَّعت منها فروع شتافة من مخترعات الطبيعة هي :

١ — الغريزة .

٢ — العقل — الشعور ، التصور ، التذكر ، الاستدلال .

٣ — الاجتماع — المجتمع ، السلطة ، السياسة ، الاقتصاد ، الشريعة .

٤ — الروح .

٥ — الكهانة — الالوهية ، الديانة ، الفن .

٦ — الضمير — أدب النفس .

٠٠ — ثم ماذا

الغريزة

هي قابض داخلي لعمل جسماني من غير تعقل ولا اختيار ولا داعٍ معقول .

الغريزة شاملة جميع الأحياء من أدناها ذوات الخليات المفردة إلى أعلاها الحيوان فالانسان . أدنى الخليات الجرثومية تأخذ من محيطها غذاءها وتنبذ ما سواه .

جرثومة الأميبا Amoeba إذا اصطدمت بذريرة جمادية كذريرة حياة انكمشت وامتدت نتوآتها من ناحية أخرى . ولكن إذا لامست جرثومة داي أتوم Diatom مثلاً عكفت عليها وطوتها إليها بما ينتوء منها من نواتئه والتهمتها وهضمتها . الداي أتوم جرثومة تنتمي إلى قصيلة طحلبية تسمى خزّ الماء أو خلفئة (رخصة القوام جداً) .

فالشيء الذي في الأميبا يميز بين الداي آوم والذرة الجامدة هو الغريزة . كيف ؟

ومن أمثلة الغريزة ان الخلية الحية المفردة متى بلغت الى حجم معين تنقسم الى جرثومتين كل واحدة منهما كالأم الأصلية طبيعةً تفعل هذا بحكم الغريزة . والطير الذي عشه ويهاجر من بلد الى بلد بحكم الغريزة.

الطفل الرضيع وهو خالٍ من التعقّل إذا لمست شفتاه ثدي أمه جعل يمتصه بحكم الغريزة . ونحن بحكم الغريزة نمشي الى الأمام باتجاه نظرنا لا الى الوراء . وشهوة الطعام بسبب ان الشعور يحرّك عضلات الفكين . جميع الأفعال التي نفعلها بغير اختيارنا كالتنفس ونبض القلب هي من قبيل الغريزة .

ما الذي جعل ساقانا وركبتنا لا تتحرك إلا للأمام لكي تسهل الحركة لغريزة المشي ؟ وما الذي جعل شفتي الرضيع تطبقان على الثدي من أول يوم لكي تكون تلك عادة غريزية ؟ بعبارة أخرى ما الذي يوجه الغريزة في عملها ؟

يوجه الغريزة عضو الحركة في الجرثومة وفي العضو المختص في الحيوان ؟

المائع (البلاسم) في الأميبا مثلاً يميل بفعل الحاس الحيوي Elan Vitale الى ناحية فيلتوي فيها عندما تثيره . فاذا صدم جسماً رخصاً ليناً كالداي آوم امتد حذا النتوء والتوى جسم الأميبا عليه وأدخله فيه .

بأي إلهام يفعل هذا ؟ لا ندري . فنقول بإلهام الغريزة . وتبقى الغريزة سرًّا يبحثه أهل العلم .

هذا سرٌّ عجيب اخترعته الطبيعة وحفظته لنفسها . ألكي تحيرّ به البشر اخترعته وكشفته ؟ . هل نكتشفه في المستقبل ؟

الغريزة هي الاختراع الخامس من مخترعات الطبيعة

في الجمادات شيء يشبه الغريزة . هو البلور . تتكوّن البلورة في جسم محدود وشكل هندسي معين . فمتى بلغت الى الحجم والشكل المعينين توقفت عندهما كأنها تترك الشأن لبلورات أخرى .

كلما تطوّرت الغريزة وارتقت تحوّلت الى عقلية

العقل

نشأ العقل برعمة في غصن الغريزة ولكنه بسق منها عالياً جداً . فكان هو يشمخ وهي تضؤل الى أن أصبحت كأنها أثرية في الأحياء العليا .

لا ندري متى صارت الغريزة في سلّم الأحياء تُعدُّ عقلاً . بل يصعب جداً أن نميز بين العقل والغريزة أو أن نحكم عند أية درجة افترقا . والظاهر لنا أنهما لا يفترقان . لا غنى عن الغريزة الى جانب العقل حتى في أعلى الأحياء مهما اعتمدنا على العقل . معظم الأعمال التي تعمل بغير تفكير هي غريزة كتذبذب المقلتين في محجريهما لتسديد الرؤية . وكتحريك الجفون لتنظيف المُقَل . وكتوازن الجسم في الوقوف .

العقل في عرف العلماء هو مجموعة القوى العقلية . وأبرزها الشعور والتصوُّر والتذكر والاستدلال . كل هذه نشأت طالة على الغريزة ثم جعلت تمايز بمقتضى الحيثية

ولكن ما هي هذه القوى ، هل هي أعضاء ذات وظائف في جسم الانسان ؟ هل لها ذاتية أو ذاتيات قائمة بنفسها — كلاّ فما هو العقل إذن ؟

العقل نعمل من أفعال الدماغ ليس ذاتية قائمة بنفسها . هو فعل من أفعال الخلايا الدماغية ، كما ان الضحك من أفعال فكي الضاحك . والمشي فعل من أفعال رجلي الماشي . العقل وظيفة من وظائف المراكز الدماغية العديدة التي تقوم بها ملايين الخلايا كما هو معلوم فسيولوجيّاً

والأرجح أن هذا العمل يحدث نبضات كهربائية سريعة في الجهاز العصبي على نظام لا يزال مجهولاً . وقد ثبت بالامتحان أن في الجهاز العصبي تياراً كهربائيّاً عقليّاً بشكل خاص أليس الدّماغ مؤلفاً من ذرّات ؟ أليست الذّرات مؤلفة من كهيربات ؟ . أليست هذه بنوع الكهرباء ؟ فلماذا لا يكون التعقل كهربائيّاً في خلايا الدماغ ؟

لك أن تقول ان الحوادث الكهربائية العقلية أو الأفعال الفكرية هي فيضٌ Emanations من الخلايات الدماغية كالامواج التي تنبعث من العناصر التشعّعيّة كالراديوم مثلاً ، وهي أمواج كهرطيسية .

العقل هو أعجوبة الطبيعة ، عجيب في قوته ، عجيب في أفعاله ، عجيب في اتساعه ، في ضخامته (خياله) . غمر الطبيعة نفسها التي اخترعته . وتتأمل بين ذراتها وذيراتها ، وبين

أجرامها وعجائبها . أخضع الطبيعة ، استقرأ قوانينها . سخّر لواميسها خدمة الجسد الذي يصدره ، نظم الدائم الاجتماعي والسياسي والاقتصادي وأسّسه على عرش المجتمع . استنبط الخيال . وابتكر الفن واختلق الروح من الوهم وكوّن العقيدة . فابتدع الكهانة وأخيراً اصطنع الضمير .

العقل عمل كل هذه . وما كان هو إلاّ غصناً في جذع الحياة التي هي بدعة الطبيعة العجيبة . ثم صار فرعاً ضخماً باسقاً أعظم من الغصن .

أليس العقل أعجوبة الكون كله . وما هو ؟ ما هو إلاّ كتلة فنية في معمل الدماغ . فالله هو الدماغ الذي يشع ذلك الحماس ، وينبض تلك القوى ، ويعكس على صفحات الوجود تلك العجائب ، وهو هو الطبيعة التي اخترعته . ثم قام يتحكم بها ويشمخ عليها . « سبحانك اللهمّ ما أعجب أعمالك كلها بحكمة صنعت » — العقل هو الاختراع السادس .

المجتمع

لك ان تقول ان المجتمع هو وليد الغريزة والعقل معاً لأنه ابتُدع مع نشوء الحياة فتوالدت الجراثيم متجمعة وتنوّعت أفرادها في حين كانت تتجمع . فلا بدع ان نرى كل صنف مستمرة تتجمع فيها أفراد كل صنف لحاجتين : التعاون على الحياة واتقاء الأخطار . هذه سنّة التجمع من الجراثيم فصاعداً الى الانسان .

المجتمع قديم كقدم الحياة . ثم لما برز العقل جعل ينظم المجتمع تنظيماً يكفل له حيويته وبقاءه . فتفرّع من نظامه السلطة فالسياسة فالقانون ثم الاقتصاد . وكل فنن من هذه الأنظمة أصبح اليوم عالماً عظيماً قائماً بذاته معقداً كبحر خضم .

هذه الأنشطة من مخترعات العقل . وكل نظام متفرع الى أنظمة أخرى لا تكاد تحصيها حتى تجد فروعاً أخرى تفرّعت من فروع .

الروح

من بدع التمثل — التصور والاستدلال والتذكر — التي هي أم القوى العقلية نشأت الروح وكان الحلم مولدها . رأى الانسان القديم شبح أبيه في حلمه فلما استيقظ

استغرب أن يرى أباه وهو يعلم أنه مات ودفن من زمان . فكشف الرمس لكي يتحقق أن كان أبوه لا يزال فيه أو خرج منه . فاستغرب إذ رأى جيفة بالية . فحادث رفيقه في هذه الرؤيا . فقال له رفيقه انه رأى مثلها . وهكذا تحادث القوم في أمر الرؤيا . وأخيراً قال فيلسوفهم ما هذا الذي رأيتموه الا وهم في الحلم . ولكل ميت طيف يحضر على ذويه أحياناً ، وسماه روحاً . فصاروا ينسبون لهذا الروح قوة وارادة بحسب ما يبديه من كلام ووعيد ووعود . وصاروا يستعبرون أرواح الأموات الى أن جعلوا يقدسونها . وكان لأرواح أبطالهم المقام الأسمى . ومن ثم نشأت الألوهية للعبادة . والعبادة اقتضت الكهانة للقيام بخدمة المعبود وتقديمه والوساطة بينه وبين القوم الى غير هذا من مقتضيات الكهانة . والى جانب الكهانة نشأ السحر تأييداً للعقيدة بقوة الآلهة .

ولعبت الكهانة دوراً عظيماً جداً في تاريخ البشر حتى انها في أكثر الأحوال ظفرت بالسيادة السياسية والادارية . ان تاريخ مصر القديم كله تاريخ الكهانة إذ كان الملك كاهناً قبل أن يصير ملكاً . فكان كاهناً وملكاً معاً .

فنشوء الروح اختراعٌ بديع من مخترعات العقل هو سابع الاختراعات . والكهانة اختراع من مخترعات الروح وهي الثامنة . ومرجع هذه الاختراعات المتسلسلة الى فعل الطبيعة وما وقف العقل عند هذا الخيال الروحاني بل تبسط في خياله فاخترع الفن . والفن أيضاً من مبتكرات الكهانة ، لأن العبادة اقتضت اكرام المعبود وتمجيده بزخرفة معبده وتمثاله فكان هذا الاقتضاء حافزاً لصنع التماثيل والصور واجادة زخرفتها . وكذلك اقتضت صلاة العبادة الرقص والترنيم . وهذه اقتضت الشعر لنظم الترانيم

ثم إن تعليل الألوهية وأفعال الآلهة اقتضت لسان الكهنة في الفلسفة اللاهوتية ومنها امتدت الفلسفة الى تفسير الكون وظاهراته وشئونه . ومن الفلسفة نشأ العلم

فما أعظم هذا العقل وما أوسع فنن هذه الطبيعة وما أعجب اختراعاتها : الانسان المدني . ثم الحياة .. ثم العقل . ثم ماذا

ماذا في طي هذه الطبيعة بعد ؟

نجيل نظرنا في أطراف فروع العقل المتفرع من الحياة الباسقة من الجماد فنرى بزعمة

نوّار شرعت تنشق من زهرة بديعة . ما هي ؟

الضمير : تاسع اختراعات العقل والطبيعة وأعظمها شأناً بعد العقل

ان بقاء الاجتماع متماسكاً مضمونٌ بالعدالة . اذا لم تقم العدالة تمزّق المجتمع . العدالة هي الرابط المكين للمجتمع . هي قوة الجذب بين أفراد المجتمع كما أن الجاذبية هي الرابط المكين لذرّات الهيولي وأجرامها .

فنرى أن السلك الذي ينتظم فيه الكون أولاً وآخراً هو الجاذبية من أول نشوئه الى ما شاء الله من مخترعات الطبيعة .

العدالة اقتضتها سلامة المجتمع . فاذا اقتنع العقل بهذه الحقيقة الراهنة كان اقتناعه هذا هو (الضمير) بعينه . نرى أن الطبيعة هيأت الضمير لاقرار العدالة وانفاذها لكي يرتبط الأفراد والجماعات بعضهم ببعض حرصاً على سلامها وسلامتها وهنائها . . ولكي تستقر العدالة يجب أن يكون للضمير سلطان قدير نافذ يسيطر على الحرية ويلزم الروح والجسد والارادة أن ينفذا العدالة . كيف يستطيع هذه السيطرة ؟ هنا الاعجوبة العظمى . كيف يستطيع الضمير أن يتسلح بقوة ترغم الارادة والعقل على طاعته في فعل الخير ! هذه أعجوبة تاج الاعاجيب لا تزال في بطن الطبيعة . اذا أبرزتها بدأ دهر السعادة للبشر . ما أدقّه حلماً .

الضمير الآن في بدء نشوئه في الانسان . وال اليوم لا يستطيع أن يقوم بوظيفته إلاّ بمعاونة الشريعة وبسلاح القانون والشرطي والقضاء مع ذلك هذه ليست قوة جامعة مانعة لأن خُلُق الشر في الانسان لا يزال يطغى ويتملص من القانون والشرطي والقضاء . يجب أن تكون قوة التنفيذ في الضمير نفسه . فكيف يمكن هذا ؟

على العقل أن يحل هذه القضية . عليه أن يخترع أداة لتقوية الخير على الشر وأداة لتقويم الاخلاق . فاذا تُرفق الى خلق أخلاق شريفة في الانسان فعل الأعجوبة التي تفوق جميع الاعاجيب . يجب أن يعرف الإنسان العدالة . انه ليعرفها جيداً . فمعرفة العدالة لا تكفي بل يجب أن تراد . فكيف يرغم الضمير الارادة على احترام العدالة . هذه مهمة الضمير والعقل الآن . في قلب الانسان شرور وأشرها الطمع . فعلى العقل أن يمحو الطمع لكي يمكّن الضمير من انفاذ حكمه . فكيف يمكن هذا ؟ وهل يمكن ؟

الضمير الآن في دور الطفولة فتى صار ينفذ العدالة بغير سلاح يكن قد أدرك سن البلوغ . فتى يدرك هذه السن . أبعد ألف سنة ؟ أو مئة الف ؟ أو متى . الله هو العليم .

الضمير هو تاج المخترعات . ثم ماذا بعد هذا ؟

ان الطبيعة تَـوْرُ زهرة شرع يفتح فينقلب كُمُّها من توسجها تدريجيًّا فتبدو الزهرة أوضح فأوضح وأجمل فأجمل .

أو ان الطبيعة لفافة ينقلب ظاهرها من باطنها طبقة طبقة فيبدو ما في جوفها طاقاً طاقاً أو قطاقاً بعد نطاق آخذاً بعضها بحاشية بعض فتظهر من بطن الطبيعة أسرارها . فبطن الطبيعة مفعم بالاسرار وفي كل دهر ينفضح سرٌّ . وآخر سرّ اجتليناه منها هو الضمير فماذا بعده ؟

* * *

لا أظن الطبيعة تقف في ابداعها عند حدّ . فماذا بعد الحياة والعقل والضمير من أعاجيب : هنيئاً لخلفائنا الذين سيعرفون الأسرار القادمة .

بقي ان نعلم ما هو غرض الطبيعة من كل هذه المهرجانات . هذا بحث آخر .

* * *

يظهر ان الله تعالى لخصّ الكرة الارضية بعرض أسرار الطبيعة ومنشإ مخترعاتها وجعل العقل الذي هو أعظم ما ابتدعته مكنة عجائبها . ولا نعلم اذا كان في الوجود المادي جرم آخر غير الأرض محظوظاً بهذا العجب العجاب . في رأي العلماء إنه ليس في النظام الشمسي سيار له خصائص الأرض . وليس في سيار آخر انس ولا جن . وفي رأيهم أيضاً انه ليس في عالم المجرّة وغيرها من المجرات نظام كنظامنا الشمسي أنتجته الطبيعة الفلكية لأن ظرف انبثاق السيارات كان صدفةً . ولا يحتمل أن يصدق هذا الانبثاق في الأكوان إلا على احتمال واحد من بلايين . والله أعلم .

القاهرة — فريد الحداد

باب المراسلة والمناظرة

داعي الاجتماع

طالعت في مقتطف نوفمبر ١٩٤٧ بحثاً مجملاً لقمة المعرفة بعنوان « الانسان هذا اللغز الاعظم » وقد دبجت البحث يراعة الأستاذ نؤاد طرزي. والحقيقة أن الموضوع يثبت أن الإنسان لغز أعظم لما في هذا الكائن من صفات الخير والشر ولما جمعته الطبيعة من صفات متوائمة ومتناقضة فمن أنبلها الى أحطها ومن غاية في الذكاء الى غاية في السخافة ومن مثال الخير الى أشد منه في الاجرام ومن وديع في النظام الى ثوروي فوضوي ضده ومن بسطة في الجسم الى نحافة فيه ومن صورة عملاق الى قزم وغيرها من التوائم والاضداد. ولقد احتار ولا يزال يحتار المفكرون في أصول تنشئته تنشئة ثابتة الاركان غير متحرجة حتى وصل بهم المآل الى انه لا يمكن ذلك إلا إذا اشتغل مبضع الجراح في السيطرة على مفرزات غدده الصم وعلى تغيير العوامل الوراثية في كروموسومات خلاياه فعند ذلك يمكن الحصول على الانسان الكامل أو (السوپرمان). وعند ذاك لا تتجسم حيرة أبي العلاء المعري حين قال فيه.

والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

هذه فذلكة بسيطة أوحاها لنا مقال الأستاذ المذكور ولسنا بصدد موضوع تربية الانسان ولكن الشيء الذي يهمنا هو ما وجدناه في مقال الأستاذ من قوله « فالإنسان مدني بالطبع، كما يقول ارسطو، وكذلك هو نزاع الى المعرفة بالفطرة أيضاً وهو يريد الاجتماع بغيره حبًّا في المعرفة قبل أن يجتمع حبًّا بالاجتماع ». لا شك أن المفهوم من هذا أن الدافع للاجتماع هو غريزة حب الاستطلاع التي تؤول الى حب المعرفة بينما المعروف والمسلَّم به والذي أقرّه ابن خلدون في مقدمته، هو أن أساس الاجتماع والحافز إليه هي غريزة حبّ الحياة وتتفرّع منها أو تمت إليها كل غرائز الحب سواء أكانت للاستطلاع فالمعرفة

أم للجنس حيث انتظار الحياة الحاشة بالتعاون أو التكافل فيهما وعليهما نقول هذا لأن الإنسان في فجر التاريخ يوم كان صياداً كان محاطاً بالحيوانات الوحشية التي أقوى منه سلاحاً وبدناً فاضطر الى ان يخرج أسرابا من بني جلسه حتى يتمكن من مقاومتها كما اضطر أن يجاور أخاه في كهف أو كوخ أو قرية كي يدفع الخطر الداهم والمنتظر بمعاونته ابقاء لحياتهما .

ولم تجهز الطبيعة الانسان فقط بهذه الغريزة بل جهزت الحيوانات بهما فالطيور المتشاكلة تجتمع سوية . والضفادع سوية . والأسماك . وليست مناظر أسراب الجراد غريبة عن البال والداعي لهذا حفظ الحياة بطريقة سلبية أو إيجابية أي بالمقاومة أو الانهزام . فالشيء المجرب أن الضفادع المتجمعة في غدير تنق إذا ما غاصت إحداها تحت الماء فعلت الأخرى آليا فكأنها آذنت بالخطر وكأنما كل واحدة رقيب . ومن ثم فقد قيل « إن الطيور على أشكالها تقع » . وما ينطبق على الضفادع ينطبق على الطيور فاذا ما أحس أحدها بخطر طار الآخر على طيرانها آليا كذلك .

* * *

نستنتج مما تقدم أن حب الحياة هو الدافع الأصلي للاجتماع وليس حب المعرفة . فاجتماع الانسان بأخيه لا لأجل العلم بل ليكونا بنيانا مرصوصا يصد غائلة العدو الخارجي ويعين على العيش بسلامة ويقضي على الخوف ومن ثمة ينتشر لواء العلم والرفاه والعمران ونزيد على ما تقدم أن بعض الفلاسفة يقولون أن الانسان وحشي بالطبع لأنه أناني فردي يحب حياته . فلو فرض ان أفقرت بقعة من البقاع من القوت ولم يبق لشخص إلا ما يسد به رمقه فلا يمكن أن يعطيه لغيره خوف ان يموت وحبه الحياة شديداً . وعلى هذا الأساس الاقتصادي نرى العائلة ذات البيت الواحد تتعاون لأن كل فرد يحب الجمع لنفسه أكثر مما يمكن من مقومات الحياة الأساسية . ولولا ذلك لبقي الناس كلهم أسرة واحدة من فجر التاريخ حتى يومنا هذا . وفي هذه الحال قال أبو فراس الحمداني :

معللتي بالوصل والموت دونه إذا مت ظمآنا فلا نزل القطر

غير أن هذا القول ان صح اقتصاديا فلا يصح اجتماعيا لأن الحياة يقضي دابرها إذا ما تحلل أفرادها التقاطع وإنما أوردتها لأبين منتهى غريزة حب الحياة من جهة المعمول في

مجتمع فرضته ثابتاً عجباً لا أمل لتعميم الدرس فيه على أفراده . أما في المجتمعات الوارفة العيش فكذلك نرى حب الحياة هو المسيطر على تسيير دفة أمور أفرادها سواء بالفتح أو التجارة أو بأنظمة اجتماعية أخرى غير اني لا أعدم بقولي هذا أهل المروءة وهم قلة وهم الذين يتبعون روح المثل في أعمالهم وهم الذين يشملهم قول أبي العلاء المعري :

ولو أني منحت الخلد فرداً لما أحببت بالخلد انفرادا
فلا عطفت عليّ ولا برأفي سحائب ليس تنتظم البلادا

وعلاوة على ما تقدم فاني أرى غريزة حب الحياة بادية ذات تأثير على سلوك الانسان حتى في آرائه ومقرراته فكم نرى في أوقات الاضطرابات والثورات من أناس يغيرون مبادئهم خوفاً من دكتاتورية الرأي العام وقسم منهم يموتون دفاعاً عن فلسفة لا يعتقدون بها ولكنها ترضي تيار الرأي العام الجارف . قتل هؤلاء كقتل من أراد النجاة فسلك مسالكها ولكن خانه القدر فوقع في ما كان يتحاشاه لا سيما اذا كان الشخص ذا شخصية تتقد في المناسبات وكذلك لا يعدم المجتمع أناساً ذوي عقيدة صلبة وتاريخ البشرية يثبت ذلك فسكوبريكوس أحرق وسقراط جرّع السم ولافوازييه قتل ، والتاريخ الاسلامي مليء بصنوف الاعيان اذن فغريزة حب الحياة هي الداعي الأساسي للاجتماع وإن تلبست بأبراد مختلفة وتبرقعت ببراقع كثيفة فأنت لو دققت وكشفت لوجدتها الهيكل الأساسي في بناء الحضارة والعمران وما أنشأ الانسان الا سائرة بموجب وحيها وعلى نهج ضمانها للمجتمع البشري او الاقليمي بصورة عامة . ولله در شوقي إذ قال .

الحياة الحب والحب الحياة هو من سرحتها سر النواة
وعلى صحرائها مرّت يداه فجرت ماءً وظلاً وجنى

(النصرة) سمير الدمر

* * *

ملحوظة : جاء في مقال الدرة مقر الروح في مقتطف مارس بقلم ميشيل شيل السد والصحيح « رشيد شيل السد = رشيد السد »

موجات الرادار لا أشعته

او موجات الرائد اللاسلكي

حضرة رئيس تحرير المقتطف

جاء في مقال نشره المقتطف في عدد مايو تحت عنوان « حدود جديدة في الفضاء » ان الرادار أشعة ، والحقيقة إنها موجات ، فأرجو نشر ما يلي تحقيقاً للواقع العلمي .

كان الرائد اللاسلكي ، أعظم شأن في النصر الذي أحرزه الحلفاء ، على الأعداء في الحرب الخالية ، نصراً فاق ما جنوه من الطاقة الذرّية ذاتها. وسوف تكون له منافع شتّى جليلة في أزمان السلم أيضاً . وهو عينٌ سحرية تتبع الطيارين المحلقين في الجوّ ، والمسافرين على ظهور السفن ، والمستترين على سطح الأرض ، سواء في أثناء الظلام والغيوم أو الضباب أو الغيث أو الدخان ، الرؤية الى أبعاد تفوق ما تبلغه عيون الانسان . وهذا الجهاز يعمل بالاسلوب الآتي وصفه .

(أولاً) توليد موجات لاسلكية قصيرة . (ثانياً) تَلَقّي الأصداء التي تنجم عن هاتيك الموجات عند ارتدادها عن الجسم القصيّ الذي تصادفه في مجراها . (ثالثاً) توقيت رحلة الموجات عينها في حالتي توجيهها وعودتها ، بغية تقدير بُعد الهدف . (رابعاً) تبيان مبعث ذلك الصدى بالنسبة لموقف راصده . (خامساً) إظهار هذه البيانات برسومة رسماً مؤلفاً من خطوط ونقط ضوئية ، على ستار ، أو تكشفها كصور متحركة تمثل خريطة للمنطقة المنشودة . والرائد اللاسلكي بصفة كونه سلاحاً دفاعيًّا يستطيع آناء الليل وأطراف النهار ، كيفما تضطرب الأحوال الجوية « أ » اكتشاف الطائرات أو السفن القادمة قبل أن تكشف للعيون البشرية حتى في ربيع النهار « ب » تمييز الخاصة منها بالأعداء ومعرفة التابع منها للحلفاء « ج » إرشاد المقاتلين الى اعتراض الطائرات المعادية قبل دنوّها من أهدافها « د » ارشاد المقاتلين ليلاً الى مواقع تاذفت القنابل المعادية حينما تبلغ كل منها مدى أنظارهم . « هـ » تسديد المدافع المضادة للطائرات واطلاقها اطلاقاً ذاتيًّا ، (تعمل الأهداف المتحركة خفية كانت أو نائية عن الأبصار) يفوق في إحكامه ما يستطيع المدفعيون تصويبه نحوها عند رؤيتهم إياها ، عن كثب « و » تحريك المعابيح الكهربائية

الكشافة تحريكاً من شأنه استقرارها في المكان الصالح لاظهار القاذفة عند ما تهمّ بشن غارتها ليلاً. وذلك حالما يدير الرائد اللاسلكي مفاتيح المصابيح عينها.

أما أعماله في حالة الهجوم فهي (أولاً) قذف القنابل آليًّا على الأهداف المستترة من القاذفة (ثانياً) تمكين السفينة المزوّدة بهذا الجهاز، من اتقاء أي مركب آخر، صديقاً كان أو معادياً. فان يكن معادياً، تتعقبه وتطلق نارها عليه فتغرقه. وذلك من دون أن يراها أحد من ركابه (ثالثاً) إظهار منظار الغواصة لطائرة المزوّدة بالرائد اللاسلكي، بينما تكون الطائرة على عشرة أميال من مجال الغواصة (رابعاً) ارشاد جنود المظليات (البراشوتات) أو الطائرات الشراعية (الخالية من المحركات) الى مناطق هبوطها، وذلك عقب استيلاء الجيش على تلك المناطق، وان اكتنفها سائر أراضي العدو.

وتنحصر أعمال الرائد اللاسلكي، في الملاحتين الجوية والبحرية فيما يلي: —

(أولاً) رسم خريطة لأي صقع كان، تحلق الطائرة في جوّه، ولو خفيت أرضه عن نظر الطيار (ثانياً) اكتشاف المعالم الأرضية أو جبال الجليد، التي تهدد السفن، أيًّا كانت حال الجوّ من الاضطراب، اكتشافاً يفوق بمراحل ما يتجلّى للرادار عادةً من بعد (ثالثاً) هداية الطائرات الى المناطق الصالحة لهبوطها، أو ارشادها في طيرانها فوقها، وإعادتها الى موطنها سالمة، غير مكترثة لما يطرأ على الجوّ من التقلب. وهذا الى جانب ارشاد قائد الطائرة، بلا وعيه، ارشاداً متواصلاً، حتى يصير على إرتفاع عشر أقدام، عن سطح الأرض، من طيرانه، أو ارشاد المنقذين الى مقرها اذا سقطت (رابعاً) تبيان تنسيق سفن القوافل، لأمير البحار، المشرف عليها، تبياناً منقناً يدل على ما عساه يحدق بها من سفن العدو، في أيّ وقت كان، من رحلتها المقصودة.

وقال عالم انجليزي (متخصص في هذا الفن) وذلك في أحدث مؤلف له: — إني لا أذيع سرًّا إذا قلتُ إن قوام عمل الرائد اللاسلكي هي الموجات اللاسلكية، السريعة التذبذب التي تتولد من مُرسِل كهربائي. ثم تنطلق في الجو حتى تصادف أي جسم صلب فتنعكس عنه بسرعة الضوء. وإن هذه القاعدة هينة في ظاهرها. أما ادارة الجهاز فشيء آخر لانها غاية في التعقيد فلا يستطيع القيام بها إلاّ الخبراء، وإن شاء الله تعالى سأفصل في أقرب فرصة كلّ ما أجملته في هذه العجالة ليتبين للقارىء مبلغ عظمة هذا الاختراع المدهش.

عوض جندي

باب الأخبار العلمية

منهج جديد في كتابة التاريخ

يبسطه كاتب أميركي كبير

زار القاهرة أخيراً الكاتب الأميركي الكبير الأستاذ وليم جيمس ديورانت وهو يعدّ من أقدر المؤرخين المعاصرين ومن أكثرهم اصالة وأوسعهم مجالاً في البحث

وقد أتيحت لي أن أقابله وأسأله عن المنهج الذي يتبعه في كتابة التاريخ فقال :

ان من الخلال البارزة في عصرنا الحالي إننا نعنى عناية قصوى بدرس ما حدث البارحة ولنا من وسائل تحقيق هذا البحث أساليب باهرة . غير أنّ ما حدث من ستة آلاف عام يفتقر أشد افتقار الى عناية منا حتى ليصح لنا أن نقول أننا متضمون بالأنباء متضورون جوعاً الى التاريخ . ومعنى هذا أننا لا نملك أساساً نستطيع به أن نحكم على الأنباء وندرك كنهها حق ادراك .

وهذا يفسر لنا الموجات الفكرية التي تجتاح بلاداً مدة من الزمن ثم تنجاب عنها كموجة « البلوكية » التي ظهرت في الولايات المتحدة أشهراً ثم اختفت

ودراسة التاريخ هي في جلية الأمر خير فلسفة يتزوّد بها الباحث . ولمن التاريخ نروم أن نعرف لا كيف كان يتعين على المرء أن يسلك ، بل كيف سلك فعلاً وتصرّف .

وفي وسعي القول إن الرجل ذا الالمام بالتاريخ في طاقته أن يتكهن بأحداث الغد قبل أن تحدث فعلاً لان بوادر الثورة الروسية كان يمكن اجتلاء طلعتها قبل حدوثها بسنين وسنين لكل من درس التاريخ دراسة امعان وتدبر . وآية هذا أن شبنجلر تكهن في كتابه « ردة الغرب » الذي أصدره عام ١٩٢١ بالموقف العالمي الحالي .

وقال الكاتب الكبير أن السبب في إغفال درس التاريخ هو أن المؤرخين يعرضون أحداثه بكيفية تدل بداهة على مجافاة الواقع مجافاة تامة . فهم يتخيرون مناحي معينة من النشاط الانساني — كنشاط الحكومة أو الاقتصاد أو الدين أو العلم أو الفن أو الموسيقى أو الفلسفة أو الأخلاق — ثم يكتبون تاريخ أمر واحد مجرّد من هذه الأمور ويسوقونه مستقلاً عن العوامل الأخرى .

عند الانسان من جراء اصابته بهذه الجرثومة منشؤه ان غالبية التطورات التي تجتازها تحدث في أثناء وجودها في الكريات الحمر للمصاب وهي فوق ذلك تتغذى منها

وتتكاثر الجرثومة الواحدة — وتسمى في طور التكاثر هذا سكيزونت — بطريق الانقسام. وهكذا ينشأ من كل واحدة اثنتان ولكن يجمعهما الغشاء الخارجي للجرثومة الأولى التي تعدّ نواة التكاثر. وهكذا يستمر التكاثر المزدوج بسرعة فائقة حتى يحدث انفجار في هذا الغلاف الخارجي وتنفصل الجراثيم الناتجة — وتسمى حينئذٍ ميروزويتس — حتى تقوم كل واحدة بدور الجرثومة الأولى. وبطريقة التكاثر هذه تزداد كمية السموم في الدم. وتستمر هذه السموم في دورة المصاب الدموية ويظهر بذلك المرض على الانسان بنسبة كمية السموم الناتجة من تكاثر الجراثيم. فتارةً يظهر المرض كل يومين أو كل ثلاثة أيام أو أربعة

كما أن نوع الملاريا المعروف باسم « برميكيوس » يختلف عن أنواع جراثيم الملاريا الأخرى لأن مدة تطوره تختلف عن مدة تطور الأنواع الأخرى.

أطوار جرثومة الملاريا

وحينما تمتص بعوضة الجامبيا الناقلة للميكروب دم رجل تحمل في جوفها بعضاً من هذه الجراثيم ويحتمل أن يكون فيها الذكر والأنثى. ويحدث تبادل الأزواج في جوف الحشرة ويندمج كل زوج مع بعضه في شكل كائن هلامي ذي خلية واحدة مستطيلة الشكل ويلتصق الجدار الخارجي لبطن البعوضة. وهناك تتكاثر هذه الكائنات بواسطة عملية الانقسام وينتج عن هذا التكاثر جراثيم الملاريا التي تسمى « سبوروزويتس » وتمر في مجرى الدم للبعوضة حتى تصل الى جهاز الافراز في البعوضة ولا سيما جهاز افراز اللعاب. وهنا تكون الجرثومة قد مرت بدورها الأول كاملاً وتكون على أهبة الانتقال بطريق الحقن الى الحيوانات الثديية ومنها الانسان طبعاً وذلك حينما تلدغ البعوضة هذا الحيوان لتمتص الدم منه.

ومنذ سنوات ادّعى أحد المهتمين بالملاريا أنه استطاع رؤية الجراثيم التي تصيب خلايا الدم في دور انتقالها — وتسمى « سبيروزويتس » . غير أن الكشف الأخير الذي حققه العلمياذ يبين أن تطور حياة الجرثومة في داخل دم المصاب ليس بهذه السهولة التي ادّعى هذا الباحث أنه رآها وتمكن من تتبعها.

فقد وجدا أثناء تجاربهما أن دورة جرثومة الملاريا معقدة جداً فمثلاً ان الانسان اذا حقن بدم يحمل ميكروب الملاريا فيمكن علاجه تماماً بواسطة الكينين. وقد لوحظ ان الكينين اذا تعاطاه المريض في أثناء

طور تكاثر الجرثومة المسماة « بارازيتس » يمنع العدوى ويقضي على المرض . أما اذا أعطي المريض الكينين في أثناء تكاثر الجرثومة وهي في طور تكاثرها المسمى «سيوروزويتس» وهي الجرثومة التي تخرج من لعاب البعوضة فانه لا يمنع عدوى الملاريا

ويتبين من ذلك أن هناك فارقاً كبيراً بين العدوى بواسطة الجرثومة في طور السيوروزويتس وبين عدوى جرثومة « البارازيتس » . وهذه الأخيرة في طورها هذا تظهر المرض بسرعة لأنها تكون كاملة التطور في لعاب البعوضة وفي الأنسجة الراغبة بها . أما جرثومة « سيوروزويتس » فانها لا تظهر المرض بالسرعة السابقة لأنها ليست كاملة التطور ولذلك فانها تمر في أنسجة المصاب وتتطور في داخلها عدة تطورات ثم تعود فتظهر ثانية في الأجهزة الراغبة الملامية وتسبب بعد تطورها في جسم المصاب بجرثومة بارتوزويتس .

تطورات الجرثومة في داخل الأنسجة

كانت المشكلة أو المعضلة المفقودة هي : أي الأنسجة في المصاب تمر بها جرثومة سيوروزويتس وتتطور في داخلها ؟

وظل هذا السؤال بدون جواب حتى كان الشهر الماضي حين أذاع الأستاذ شورت والدكتور جارنهام انهما توصلا الى تحديد تطور الجرثومة في كبد خنزير بجرثومة سيوروزويتس سنحت له ثنوانية . وقد أمكنهما ملاحظة الآثار التي تثبت وجود هذه الجرثومة على شكل بقع في الأجزاء الدقيقة من الكبد . وتضم مساحة كل بقعة جزءاً من ثلاثين من المليمتر المربع . وأمكن بواسطة جهاز الميكروسكوب ملاحظة أن معظم الجراثيم هناك تمر تطورها أو أوشكت على اتمام دورة التطور الأخير أي أنها في حالة التكاثر المسمى « ميروزويتس » .

الصم يسمعون

يصنع مصنع من المصانع في لندن الآن جهازاً صغيراً جديداً للاستعانة به على السمع لا يزيد حجمه على حجم علبة سجائر مستطيلة الشكل .

ويتألف هذا الجهاز من خمسة محركات مستقلة لتشغيله يختار حامله أي المحركات يشاء ويديرها بآلة لضبط سرعة الحركة . ويحتوي كذلك على جهاز صغير للاستقبال وآخر خاص بإذاعة الصوت .

ويدير هذا الجهاز بطاريتان من أحدث طراز تزن كل منهما ثماني أوقيات ونصف أوقية لا غير .

مكتبة المصنفات

الشروق

ديوان شعر ، للشاعر حسن كامل الصيرفي ، دار المعارف بمصر ، ١٦٠ صفحة من القطع للتوسط ، ١٩٤٨ .

عرفت الصيرفي شاعراً منذ أكثر من عشرين سنة ، وعرفته شاعراً هادىء الطبع نيّر الديباجة ، سهل الأسلوب ، بيّن المعنى جيد المبنى ، قريب الروح في هدوء ، تأثر الأحاسيس في صمت بالغ ، فلا يتم عن قوة روحه وثورة أطيافه إلاّ المعنى المضمر من وراء الألفاظ المنظومة ذلك النظم المنساب انسياب الماء في الغدران طامئة ، يتمثّل بين ما يعترضه من عوائق ، تسلّلاً لا تحدّ ، ولكنه يبلغ غرضه الأخير ، حيث تنفسح أمامه الرحاب الفسيحة عند مصبّه ، فإذا بالغدير الهادىء يتحوّل في النهاية بحراً عظيم الاتساع يفيض بالمعاني الأخّاذة والإيحاءات التي تهز النفس من أعماقها هزّاً ، وتنطبع آثارها في النفس انطباعاً قلّما يزول .

وعرفت الصيرفي فوق ذلك شاعراً صادق الشاعرية ، لم يتكلف يوماً أن ينظم شيئاً تسوق إليه مناسبة من المناسبات لا تخلف في نفسه ذلك الأثر الشعري الذي يهيج في الشاعر شيطان شعره . فلا كوارث الزمن ولا أحداث الحياة عنده إلاّ أوعاماً تثير خيالاتها كأنها الصور المتحركة ، إذا لم تترك في نفسه ذلك الأثر الذي ينتج مذاهيق الشاعرية . فإذا بلغت الأحداث من نفسه ذلك المبلغ ، فاض بالمعنى المستخرج من أعمق أغوار النفس ، مصبوباً في قالب شعري رصين . وعلى الجملة فقد عرفته الشاعر الذي لم يخلق للأحداث ، وإنما خلقت الأحداث من أجله . وقلّما يكون الشعر ذا قيمة ما لم تخضع له أحداث الحياة ، فإذا خضع

لتلك الاحداث فهنالك يخرج الشعر عن طبعه ويتبدّل مزاجه ، فيصير نقماً ، أي كلاماً موزوناً أثره في النفس أتفه ما يكون .

وعندي أن أكبر ما يتصف به شعر الصبي في انه أثر من نفسه ومن عقله معاً . فنفسه نفس شاعر واسعة الآفاق ممدودة الرّحاب ، وعقله عقل حرٌّ ، لم يقف في يوم ما حائلاً اضطره إلى تكلف معنى من المعاني التي كثيراً ما تقحم في الشعر ، فتكون كالنكتة السوداء في الورقة البيضاء ، وغالباً ما تلوح للقارىء الناقد كالذبابة في كأس من اللّبن الصافي .

وكثيراً ما طغت القيود الفكرية على الشعراء ، فكلفتهم ما لا طاقة لهم به ، بل كلفتهم ثمناً باهظاً ، هو فقدان الأثر الشعري جملة ، والمحايلة في الشعر كالمحايلة في سوق التجارة ، لا ينجو محترفها من أمرين كلاهما مُرّ : إمّا الفقر وإما السّجن . وما أكثر الذين يتعايلون على الشعر في عصرنا هذا .

هذا مجمل رأيي في شاعرنا الصبي . أمّا ما يؤيده فكثير في ديوانه « الشروق » : وبخاصة في « جنة الحب » : ص ٣٤

يا جنّة الحب قاسٍ أمس رضوانك ... مُنِعتُ عن شدو لحني فوق أغصانك
فقبّلت نفسي من الدنيا وصبغتها ... وجئت تصبغُ روحي خيرُ ألوانك
فما لبابك لم تُفتَح مغالقه ؟ ... وما لروحك لم تخفق لفتّانك

ثم في « الحيرة » : ص ٧٠

يا عالمي أنا صار في شعاب دُجىً ... يلهو بغاية روحي ليله الصافي
كأنني أنا ثأرٌ ظلّ مشتملاً ... بين الوجود وبين المبهم الخافي
وكلما شاهدت عيناي في أفقي ... ذاتاً تحفّفها أطياف أطياف
كأنني والأماني فيّ جائشة ... أفقٌ تذوب به أصداءُ هتّاف
حُيّرت في عالمٍ تطغى عجائبه ... على رؤاه وخابٍ نوره الصّافي
ما أشبه النّور في قومٍ يحيّرهم ... مرّ بهم وكرون عالمٌ فاف !

ثم في « الصباح الجديد » ص ٨٦

أيها المتعب الذي ... حطم الناي واستراح

هذه غاية المُنى هذه غاية المراح
لوعة بعد لوعة فرحة ثم لا تتاح
نغمة في صميمها آهة الحزن والجراح
عالم في محيطه راحة اليأس والكفاح
مبهم كله ، رؤىً تخلط الجِدّ بالمزاح
جبرته اليوم عابراً فلملمْ اهاول الزاح
كم تمنيت لو بدت فلقة الليل من صباح !
فاكشف الستر هاتفاً عن أطايب الصباح .

* * *

أيها المتعب الذي حطّم الناي واستراح
نم قريراً فقد سرى لحنك السقم في البطاح
فجرك الحلو لم يضع بين أيامك الشحاح
فهو ما زال سابحاً هاتفاً خافق الجناح
إن يكن غامرَ الدجى فلقد شارف الصباحْ

* * *

وهذا الديوان في مجموعه قطعة من فن شاعرنا الصيرفي ، لا يند فيه شيء عن شاعريته. وقد أتينا بأمثال من شعره الهادىء، فلنختم كلمتنا بشيء من شعره الثائر الذي لا يخرج في ثورته عن طبيعة الشاعر ، التي تخفي وراء ذلك الهدوء عوامل الثورة الحاطمة : قال في « نشيد الثورة » : ص٨٩

تحرّك من سباتك يا فتاها وأرجع عزها واعِدْ فخارها
فقد طفت الخطوب على حماها فواها للأبي اذا تلاهى

* * *

تقدمْ بالأماني المستفزة ولا تخف الصواعق والحتوفا
وأوجد من عزائمك السيوفا وأشعل نارها وأثر لظاها

اسماعيل مظهر

جورج برنارد شو

السيدة فلة فهمي بدوي — للطبعة المصرية — ٢٣٢ ص من الحجم المتوسط

تطالعك في مفتتح هذا الكتاب صورة وجه جسَّده الدهر وغضَّنه مرُّ السنين ، أرخى لحية بيضاء كثة ، وعلت رأسه بضع شعرات بيض غير منتظمة . وتشرق في ديباجة وجهه جبهة عريضة أنحسر عنها الشباب وأمست نهباً لتفاعيل الأيام .

تلك صورة الفيلسوف الأرلندي المتفرِّد جورج برنارد شو الذي ولد والعبقرية معه في مهدٍ واحد ، ونشأ يصارع الدهر ويجافي التقاليد ويسخر من العرف ويتحدَّى كل شيء حتى السماء !

فلم يكن من العجيب إذن ، وهذه خلاله وتلك معالمه ، أن يكلف الأدباء المعاصرون في كل صقع من تتبع سيرة هذا الرجل المارد النحيل الذي تسجل صحف العالم بأسره كل كلمة من كلماته ، وتتندَّر القارات الخمس بكل فكاهة ينفوه بها .

وكان من الذين استهوتهم شخصية « شو » في مصر السيدة فلة فهمي بدوي فأصدرت عنه كتاباً جليلاً نفيساً عنوانه « جورج برنارد شو . . . فلسفته وشخصيته » .

نشأ برنارد شو — كما تقول السيدة فلَّة — في بيت أدمن ربُّه الخمر ، فسخط على بنت الخلق وكره أقاربها ولعن كل من دنا من زقاتها ونقم على كل من عاقرها . وتعلَّم وهو بعد في ريِّق عمره الشكلان على الذات والتعويل على النفس ، فلم يدع لقواعد الوراثة مجالاً كبيراً للتأثير فيه .

آمن في أوان مبادىء الرأفة بالحيوان ، فكفَّ عن تناول لحمها وأمسك عن تغذية جسمه بدمها حتى صار مروقاً لا يعرف البدانة ولا الاستكراش . شغف بالموسيقى فرَّس نفسه في هذا الفنّ حتى غدا من زعمائه ، بل من نقَّاده الممتازين النحول ، ولكنه مرعان ما مسَّه ، فهجره منتحلاً لنفسه مهنة الأدب وجاعلاً من فروعها صناعةً تدين له بالطاعة ويدين لها بعجنه وصيته الطائر وامعه اللامع .

إذا دُعي برنارد شو الى بيت ، لم يدع صغيرة إلاَّ دسَّ إصبعه فيها — كما يقولون في الأمثال — فهو لابدَّ أن يشرك نفسه في كل شأن من شؤون الدار ، حتى صحائف المائدة

لابدَّ أن يفسلها ، وتهيئة المقاعد حول لصد الطعام لاسعدى عن أن يكون له رأي فيها .

جرِيء جرأة لا يزاحمه فيها سوى قلَّة ، يجاهر بمعتقداته ومستنقاته ولا يبالي العواقب. ولعلَّ من أبرز معالم هذه الجرأة أنه خرج على البريطانيين في عام ١٩٣٦ — والبلاد تنتظمها هبَّة واحدة واقفة في وجه ملكها ادورد الثامن المزمع الاقتران بأميركية مطلقة — بقصة عنوانها « زواج ملك » زاد فيها عن حرية الملك في تخيُّر شريكة العمر ، وسخر من مناوئي قلب صاحب العرش وازدرى معارضتهم .

إن تاريخ حياة برنارد شو ، تاريخ حفل بالأحداث والطرف . انه سجل لرجل عبقري يحلق في أجواء عليا آبياً أن يباريه في العبقرية أحد ، حتى لقد لقَّب شكسبير بأنه أبغض الناس إليه وقال إن صبره لينفد أحياناً ويضيق ذرعاً كلما عرض له اسم شاعر الكمون ، فيردّ انهدئة أعصابه أن يحفر الأرض ويخرج رفات شكسبير ويقذفه بالحجارة ! حقّاً إن ذوي الشخصيات القوية يتصادمون وإن كبد الكبار كثيراً ما يجاوز في مقالاته كبد الصغار

والحق إن السيدة الجليلة فلة فهمي بدوي بلغت برتبة مرموقة من الإجادة في جلاء صفحة حياة شو وفي إبراز مميزات شخصيته ومعالم أدبه ومقوّمات فلسفته ومنهج تفكيره بيد أني أختلف معها في تقدير بعض رواياته ولا سيما مسرحية قيصر وكليوبترا ، فلست أرى فيها جمالاً ولا روعة وهما الصفتان اللتان ألصقتهما السيدة فلة بها .

ولولا هفوات في النحو وكبوات في اللغة تخالس هذا الكتاب الممتع الأصيل من كثير من أوجه النقد ، فلعلَّ الطباعة تتحمل تبعة هذه الهنات .

ـ وديع فلسطين

القاموس العصري

للأستاذ الياس أنطون الياس

بعض الناس يعمل ليومه وبعضهم يعمل لغده وبعضهم يعمل لجيله وبعضهم يعمل للأجيال لما تأت بعد

والأستاذ الكبير الياس أنطون الياس يعد من الفريق الأخير لأنه وقف سنوات طويلة من عمره على عمل واحد جليل هو وضع قواميس باللغتين الانجليزية والعربية يستعين بها أبناء كل جيل تالٍ فضلاً عن أبناء الجيل الحالي

ظهر أول قاموس له في عام ١٩١٣ يجمع بين دفتيه اثنين وثلاثين ألف كلمة انجليزية

ومرادفاتها العربية وبعد ثمانية أعوام أعاد طباعته فزاد عدد كلماته الى ثلاثة وثلاثين ألفاً. وفي عام ١٩٣١ طبعه من جديد فارتفع عدد الكلمات الى ٥٦ ألفاً وطبع طبعة رابعة في عام ١٩٤٣ فبلغت كلماته ٦٤ ألفاً وأردفها بطبعة خامسة في عام ١٩٤٦ أربت كلماتها على ٦٤٫٥٠٠ كلمة وظهرت في العام الحالي طبعة جديدة سادسة في ٦٥ ألف كلمة و ٨٠٦ صفحات من الحجم الكبير مزدانة بالصور والرسوم

وهذا الجهد لا ينهض به أفراد لأنه فوق طاقة الفرد ولكن الأستاذ الياس أنطون الياس بعزيمته التي لا تفل واخلاصه للعلم وتفانيه في البحث عوّل على أن ينهض بهذا المشروع مهما بلغت تكاليفه وتضحياته وهي تكاليف وتضحيات يدمع لها من غزارة العمر وضوء البصر وتوتر الأعصاب واجهاد البدن وارهاق النفس

و « القاموس العصري » الذي جاء نتيجة هذا العمل المارد الجبار يعد خير قاموس يصل اللغتين العربية بالانجليزية ويربط بينهما. وآية ذلك أن الأستاذ الياس لم يدّخر وسعاً في سبيل ادخال فرائد من الفصحى وشواردها تعبر عن دقائق من المعاني النادرة استخرجها من كنوز اللغة مستأنساً ببحوث أئمة الأدباء التي ظهرت في أمهات الكتب والمجلات والجرائد ولا سيما مجلة المجمع العلمي العربي الدمشقية ومجلة مجمع فؤاد الأول للغة العربية وأدمج كل ما أقرّه المجمع من كلمات في قاموسه الجديد

وأصدر الأستاذ الياس أنطون الياس كذلك قاموساً عصرياً آخر « عربي انجليزي » عدا « الانجليزي العربي » الذي أسلفنا الحديث عنه فزاد في طبعته الرابعة الجديدة المزيدة عدد الكلمات العربية ومرادفاتها الانجليزية حتى بلغ عدد كلماته ٦١ ألف كلمة وعدد صفحاته ٨٣٦ صفحة مزدانة بالصور والرسوم

ولا ريب في أن كل من يقدر لصاحب الفضل فضله يقر في فصاحة وجلاء أن الأستاذ الياس أنطون الياس بقواميسه العصرية سدّ فراغاً ما كان في وسع أفراد أن يشغلوه وإنه أصدى للغة الضاد وللغة الانجليزية يداً ستظل مذكورة له على الدوام. ولا غرو بعد ذلك اذا رأينا « القاموس العصري » بشقيه متداولاً في مكتبات العلماء والباحثين ودور العلم العامة والخاصة ودور الصحف في مصر وفي غير مصر. فالأستاذ الياس كما قلنا في صدر هذه الكلمة لم يعمل لجيل واحد وانما عمل عملاً أدبياً تتداوله أجيال وأجيال

وتباع النسخة من كل من القاموسين العصريين الانجليزي العربي والعربي الانجليزي بجنيهين ونصف جنيه وهو ثمن قليل اذا قوبل بما أنفق في إعداده من وقت ومال وجهد وعناء وتضحية

فهرس الجزء الاول
من المجلد الثالث عشر بعد المئة

١ التكافل الاجتماعي — نظرية ما في النظام الاجتماعي : اسماعيل مظهر

٨ سحابة (قصيدة) : عدنان مردم بك

٩ نظرات في النفس والحياة — نظرات هارصيل بروست : ع . ش .

١٨ المشاتل العربية : وديع فلسطين

٢٥ طنين الآذان — أسبابه وعلاجه : الدكتور عبده رزق

٢٩ وجوه الشبه بين المكسيك ومصر : محمد جميل بيهم بك

٣٣ سياسة الارشاد الاجتماعي : على أي أساس ينبغي أن تقوم : جمال الدين حمدي

٤١ قصة فتاة : أحبك حب الحياة (قصيدة) : يوسف جبرا

٤٣ بين العالمية والقومية : الياس يعقوب

٥٤ السيكولوجية العصرية : مصطفى عبد اللطيف السحرتي

٥٥ بين الشرق والغرب (قصيدة) : ضياء الدخيلي

٥٦ اختراع علمي عصري يدل على نوع الجنين : عوض جندي

٦١ مخترعات الطبيعة : نقولا الحداد

٧٢ المراسلة والمناظرة * داعي الاجتماع : رشيد السعد . موجات الراديو لا أشعة أو موجات الراشد اللاسلكي : عوض جندي

٧٧ باب الاخبار العلمية * منهج جديد في كشاكة التربيح . لويم جيمس ويورانت : وديع فلسطين . في علاج الملاريا . انعم يسعون

٨٢ مكتبة المقتطف * الشروق : اسماعيل مظهر . جورج برنارد شو : وديع فلسطين : القاموس العصري

٦ — لحق المقتطف

٢٢١ — ٢٦٠ الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث : بقلم مصطفى عبد اللطيف السحرتي

الشعر المعاصر

على ضوء النقد الحديث

بقلم

مصطفى عبد اللطيف السحرتي

حقوق الطبع محفوظة

طبع بمطبعة التيسير بالقاهرة

١٩٤٨

وإذا كان البارودي عذر في محاولة القدماء لأنه كان يشق طريقاً سابلة في عهد أدبي مظلم ، فلا عذر لأدباء العصر من أمثال شوقي أو صبري أو الجارم ، في محاكاة النداي واستعراء التغذي على موائدهم ، وبخاصة لأن هؤلاء الشعراء قد تثقفوا ثقافة غربية ، فالأستاذ الجارم مثلاً مع ألمعيته لم يستطع التحرر من محاكاة الشعر القديم موضوعاً وصياغة إلا في النادر ، حتى لنراه في أحد قصائده يلبس عقال البدوي القديم ، ويرجّع قوله ، وما يساغ بتاتاً لشاعر عصري أن يتزيا بهذا الزي أو يخاطب هذا العصر بلهجة بدوية آبدة ، أو يكتفي بالغناء على الربابة في القرن العشرين لأن الأدب المعاصر لن يغنم شيئاً بالصور المكرورة . وأي غنم له بمثل هذا القصيد « الى الامام »[1] الموجهة من الجارم الى المغفور له الأستاذ الشيخ محمد عبده ، وقد استهلها بقوله :

المجد فوق متون الضمر القـود تطوي الفلا بين إيجاف وتوخيد

أية جدوى من بعث هذه الصياغة البدوية الخشنة ؟ ولماذا سجلها الجارم هي وأمثالها من قصائد الامداح التي لا رونق لأديب منوّر ؟

ويجب أن يغرم هذا الأديب بهذه المحاكاة ، وبالصياغة الكلاسيكية البحتة ، في موضوعات أغلبها مناسبات حتى أن قارىء قصيدته الوجدانية الحلوة « ما لي نشئت ... » ليأسى كل الأسى إذ يراه ينكب عن مثلها ، ولا يتابع أسلوبها الرقيق ومعانيها اللطيفة ، وقارىء قصيدته « ضحك القدر » التي يروي فيها حالة أعمى يقود مبصراً في ضباب لندن ليعجب لعدم متابعة الرجل لمثل هذه التجارب الشعرية الحقيقية ذات الأسلوب الفني ! . ولهذا لم نكن مخطئين عندما قلنا في صدر هذه الدراسة إن قصيدة « ضحك القدر » هي التجربة الشعرية اليتيمة في الجزء الأول من ديوانه فاستمع إليه يقول فيها :

أبصرتُ أعمى في الضباب بلندن يمشي ، فلا يشكو ولا يتأوّهُ
فأتاه يسأله الهداية مبصرٌ حيران يخبط في الظلام ويعمهُ
فانقاده الأعمى وسار وراءه أنّى توجّه خطوه يتوجهُ
وهنا بدا القدر المعربد ضاحكاً ومضى الضبابُ ولا يزال يقهقهُ

(١) ديوان الجارم الجزء الأول ص ١١٣ ، ١١٤

ولو سار هذا الأديب على هذا النمط الشعري ، هو وزمرة الكلاسيكيين ، لتقدم الشعر في مصر تقدماً ملحوظاً ، ولكنه لم يفعل ، بل استمرأ الاتجاهات القديمة والصياغة القديمة ، وعلى هذا الطراز نحت طائفة من الشعراء في مصر ، وخرجت بعض الدواوين في السنين الأخيرة يطبعها الطابع الحضري ، وتلونها نزعة التبعية والارتماء في أحضان السادة وذوي الجاه ، وآية ذلك ، ديوان « تغريدات الصباح »[1] للأعمر ، وهو ديوان طافح بالامتداح تذكرنا بعض قصائده التكسبية ، بالمناقضات الاجتماعية في عصره ، دون أن يكون للشاعر مبادىء مبلورة ، فعلى حين نرى الشاعر يبغي امتاع نفسه والطائفين حوله بشعره ، ويمتدح ذوي الجاه ، إذ بنا نراه يتحول الى أحد أبناء الشعب ويصفه في قطعة فنية لامعة « حنين القروي »[2] وهي من أروع شعره — وعلى حين نجده يرتدي في إبان الثورة الوطنية ثوب الثائر ، فيصف المظاهرات ، ويصف شجاعة الشعب ، إذ به يرتدي ثوب الرجعية ، فيؤيد من ألغى الدستور ، وهذا التناقض هو مرآة عصره المتناقض ، الذي لم يستطع الشاعر أن يسمو عليه ، ولم يكن هذا الشاعر وحده ، فريسة لضغط المجتمع المخلخل الذي يعيش فيه ، بل كان كثير من الشعراء غيره . وهو مع تأثره الاتباعي ، فصياغته جزلة ، حلوة متماسكة الوحدة ، ومن شواهدها نذكر قصيدته التي وصف بها المظاهرات الوطنية في عام ١٩١٩ إذ قال :

ملاحمُ بالفداء وبالعشيّ ... رعاك الله من شعب أبيّ
مشى للحق أعزل غير صوتٍ ... يردده كزمجرة الآتيّ[3]
فوا أسفا عليه وهو يقضي ... شهيداً بالرصاص وبالعصيّ
رماه الظالمون وما رماهم ... فويلٌ للضعيف من القويّ
رماه الظالمون فلم تراه ... رأيت مصارع الزهر الندي
سلوه بعد ما ارتشف المنايا ... أيشعر في مراقده بريّ
وليس بظامىء أبداً شهيدٌ ... سقى الأوطان من دمه الزكيّ

(١) ديوان « تغريدات الصباح » طبع عام ١٩٤٦
(٢) ديوان « تغريدات الصباح » قصيدة « حنين القروي » ص ١٨٨ (٣) الآتي — السيل

وتشهد الحقيقة المرّة ، أننا لم نتقدم بمثل هذا الشعر الاتباعي التقليدي خطوة ، ولم تزد ثروتنا الأدبية ذرة ، فاذا تصفحنا الشعر المصري في أيام الدولة الطولونية أي منذ عشرة قرون ، لا نجد فرقاً بين هذا الشعر ، والشعر الاتباعي الحاضر ، فقصائد قعدان بن عمرو أو منصف الهذلي ، أو سعيد القاص ، تماثل تماماً قصائد شعرائنا الاتباعيين ، فلو أخذت قصيدة للشاعر المصري « سعيد القاص » وهو يشيد بأعمال الطولونيين ويأسف على أيامهم الزاهرة ، لما وجدت فرقاً بين القرن الثالث الهجري ، والقرن الرابع عشر ، ونقتطف من هذه القصيدة [1] هذه الأبيات :

طوى زينة الدنيا ومصباح أهلها ... بفقد بني طولون والأنجم الزهر
فبادوا وأضحوا بعد عزّ ومنعة ... أحاديث لا تخفى على كل ذي حجر
وكان أبو العباس أحمد ماجداً ... جبل المحيا لا ينبت على وتر
كأن ليالي الدهر كانت لحسنها ... واشراقها في عصره ليلة القدر

وتلقاء هذه الحالة المشجية نرانا محقين إذا قلنا إن الشعر المصري لن يتقدم إذا ظللنا على هذا الاتجاه الاتباعي ، وعلى هذه الصياغة المكرورة ، ولن تربى ثروتنا الأدبية إلاّ إذا جددنا الاتجاه وتناولنا موضوعات الحياة الراهنة ، وحسنا أدبنا بالاتجاهات الغربية الحديثة ، وبحدى آخر مجدداً ، أن تكون اتجاهاتنا الشعرية غير اتجاهات القدامى ، فيتحوّل الغزل مثلاً من الضرب الرتيب على نحاء الحبيبة ، إلى الاضراب عن العواطف والانفعالات المتباينة ، وترك صور الحبيبات المطلقة الى صور محددة تنعكس فيها معاناتهن وقصاتهن . [2] وأما الشعر الوصفي فيتحول إلى شعر رقيق الأخيلة فيه صدق وشمول . وتتحول تدريجياً من الشعر الذاتي إلى الشعر الموضوعي وإلى الشعر الانساني الواسع الأفق ، على أن يكون تناول هذا الشعر تناولاً أصيلاً مستقلاً ، سواء أكان شعراً يلتزم الأوزان ، أم شعراً مرسلاً أو حرًّا .

وقد بدأ هذه الخطوة ، الأستاذ خليل مطران وعبد الرحمن شكري والعقاد ،

---

(١) يراجع في هذا الصدد كتاب « في الأدب المصري الاسلامي » للاستاذ محمد كامل حسين

(٢) يراجع في هذا الشعر كتاب « من الأدب الانساني » للاستاذ نجيب البهبيتي ص ٨١ ، مدرسة ١٩٤٨

وأبو شادي ، وتبعهم بعض أدباء الشباب في مصر ، ويبدو لنا أن شعراء لبنان وسوريا خطوا خطوات واسعة في التحرر من الاتجاهات القديمة والصياغة التقليدية ، ونذكر على سبيل المثال نموذجين نقتطفهما بدون اختيار أولهما من ديوان « سمر » للشاعر اللبناني غنطوس الرامي ، وثانيهما من ديوان « طفولة نهد » للشاعر السوري نزار قباني ، يقول غنطوس من قصيدة له في وصف الأعمى

ظلام ظلام ودنيا تنام
وليل أبد [1] بعيد الأمد
كشيف الغيوم بغير نجوم
وكيف يكون الضياء وصفو السماء والماء ؟
وكيف يطل القمر ويمحو السحر في الشجر
وكيف تفح الزهور ويجري العبير في الأثير

سواء سواء

وكل الوجود ظلام سود
ودنيا تنام بمحض الظلام !

ويقول « نزار » في قصيدته « حلمة » [2] ذات الصياغة الأصيلة ، والأخيلة الطريفة :

تهزهزي وثوري يا خصلة الحرير
يا مبسم العصفور يا أرجوحة العبير
يا حرف نار سابحاً في بئر كفي عطور
يا كلمة مهموسة مكتوبة بنور
سحراء ، بل حراء بل لونها شعوري !

* * *

يا حبة الرمان جنني والعبي ودوري
وزقي الحرير يا حبيبة الحرير !

---

(١) الأبد = الدائم (٢) ديوان « طفولة نهد » ص ٢٢

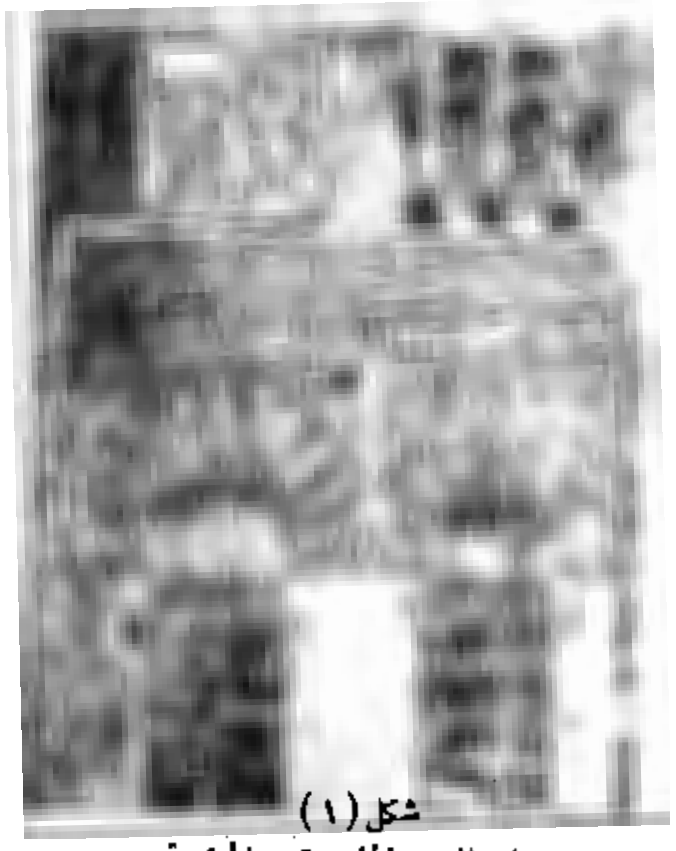

شكل (١)
محراب المسجد الخاص بقصر الجعفرية

شكل (٢)
عقد مفصص محفوظ بمتحف مدريد الأثري

عالم القلب

شعر علمي

يا قلبُ مالك خافقاً لا تهمدُ ... هل هاج فيكَ الشوق قد أملدُ ؟
وبنـاءُ صرحكَ موشكٌ ينهارُ ... لولا أنه لمروّة يسترددُ
قل لي: أمن طرب خفوقك أم ترى ... من عاصفات هوىً يقيمُ ويُقعدُ ؟
أفما ملتَ انبض كلَّ هنيهةٍ ... في سجنِكَ المحتوم وهو مؤبّدُ ؟
هل أنتَ مقياسُ الزمان مُعدَّدٌ ... خطراته ؟ عبثاً تعدُّ وتسردُ
تمضي ثوانيه العسر وهي كثيرةٌ ... والعسر مهما طال فهو معدَّدُ
العسر ثانيةٌ من الدهر المديـ ... ـد عبدّداً والعسرُ لا يتجدَّدُ
والدهر ثانيةُ الزمانِ، فسرمدٌ ... متتابعٌ لا أمس فيه ولا غدُ
لولا تصفق جانبيكَ لما جرى ... زمنٌ عليك ولا تحقق موعدُ
فإذا تحركتَ الثواني أسرعت، ... أم لا، انتهى فيك الزمان الأوحد
حتى مَ تحصي للزمانِ ذنوبه ... تعزو اليه أساك حين تنكّدُ
وهو البريء وأنت تركبُ الخطا ... أنت الزمانُ الراعد المتوعّدُ
ترجو به عمراً سعيداً، فارتشف ... كأس الهوى، عمر الصبابة أسعدُ
تشكو تباريح الغرام، ألا ترى ... إن الحياة حبا تتوجّدُ
بالحب تحيا، والحياة محبةٌ ... إن لم تعش حبّا فأنك جلمدُ

والشوق من شيم الهوى إن لم تذب شوقاً فأنت العاشق المتمرّد

***

يا قلب ينبوعَ الحياة لكل من طلك الثائر يطيب الموردُ
وزعته بين الجوارح والحشى تحمله والجسم الغبيّ يبدّدُ
للجسم راحته ومتعته وحين كراه آنت المجاهد المتشهّدُ
فاذا دنا منك الردى قالوا لقد حبط الفؤاد وخاب فيه المقصدُ
وتجاهلوا الشهوات والافراط إذ أوهت قواه ولا تني تتبدّدُ
حتى إذا هبط العهد تقوّض البنيان وانقضّ الحمامُ الأسودُ
وانهارت الذات معه والمنى وتقلص المنزى وضاق المرقد

***

يا نفسُ جرتِ على الفؤاد لتهنئي ، استعبدتِ هواكِ وهو السيد
خسرتِ وخسرت ذاتك والهوى وكذا يبيد الجائرُ المتعمدُ
مَثَلُ القلوب مع النفوس عنيفةً مَثَلُ المجاهد للجماعة يجهد
نشأ بفعل الخير تشقى دونها نشأ منعّمة تعيث وتفسد
هذي على حاتيك تلقي عبأها هذي تنوء وهذه لا تُنهِدُ
كالقلب لما اعتلّ ناءَ بعبئه والنفس لم تشفق فعاد المُفسَدُ
فلذاك راجت في الجماعة سنةٌ هي شرُّ ما فتنَ الأنام وأكّدُ
الغُرمُ للابرار مهما أحسنوا والغنم للاشرار مهما أفسدوا

الأداء في الفن

إذا ما كانت مادّة الفن هي التجربة التي تخلق بين الفنان ومتذوّق الفن نوعاً من المشاركة الوجدانية ، فإن طريقة أداء هذه التجربة ، بحيث يستوعبها ذهن القارىء — باعتبار أمثلتنا من الأدب — هي الخاصة الأولى في الفن ، لأن بها تستحيل الحركة الجائشة في الوجدان الى خلق ناضج ، وقطعة كاملة البناء

فما هي الطريقة التي يتم بها أداء الفن ؟؟

أتكون في الابتكار والخلق الجديد ، ثم اضفاء الثوب القشيب على كل من الابتكار والخلق الجديد ؟؟

كلاّ ..

وانما هي في بعض من لحظات شعورية في الحياة ، وفي بعض من نفس المدركات الحسية التي يستوعبها ذهن الفنان ، ومن هذين نستمد عناصر التجربة ، التي هي مادّة الفن ، والتي اذا انطبعت على الحياة ، لا تخرج بزيادة عنها ، ونقص عنها ، وانما هي حياة كاملة ، حياة قد يضفي عليها الأداء الفني بعض التوهج الذي يجعلها تنبض بالإحساس العظيم ، والاشراق الساطع .

فاذا انتهينا من أن كل تجربة تصلح أن تكون مادّة للفن ، أمكننا أن نعرض لناحية أخرى وهي طريقة السير في الموضوع ، ودور بعينه ما نسميه بالأداء الفني .

فإذا ما كان الفن موكلاً بالمؤثرات الفردية ، فن طبيعته — حينئذ — أن يعرض سياق موضوعه جزئياً جزئياً ، ثم يكون من توافق هذه الجزئيات القطعة الفنية الكاملة ، وهي التي تنطبق عليها مقاييس النقد ، التي بها يكون الأداء في الفن على نحو صحيح ، ومع قيام ويلاحظ أن النظر الى التجربة تتبعه ظلال وأضواء ، تساعد على تجسيم المعاني في الذهن

وتخيّل الصورة التي تقرب من الواقع ، وتجانب الشعاعات كل من الأسراء والنازل من ثنايا المدركات الحسية ، وهذه تتناسب طرديًّا إزاء وصيد الفنان ، ومداه من حيث الكم والكيف ، ومن هذا جميعه ، يمكننا أن نقرر إن بداية العمل الفني الكامل ، تنحصر في الاستهلال ، وهذا الاستهلال يكون مستمدًّا — بالبداهة — من الحركة الأولى ، التي تتبعها الحركات المتدافعة المسلسلة ، وهي التي نرمز لها — في التفسير مثلاً — بالسرد ، وهذا ما توضحه بداية قصيدة « بعد الأوان »[1]

... يبدؤها الشاعر بهذه البداءة

الآن والأيام مدبرة تولول بالعويل
والآن مخضوب الأديم وقد تأذّل بالرواء
أفبلت ويحك تبتسين فأين كنت لدى الصباح
وجه الخريف يظل مستعبي لأعوال الرياح

وهذه الأبيات بداية حادثة شعورية ، هي حب توهج في غير أوانه ، أو هي قصة قلب ظامىء الحب ، فلما نضب معينه ، وجفّ ظمؤه ، جاء الحب إليه ساعياً ، فكان التحسر على ما ولى وضاع ، وكان الأسف على أيام الشباب التي مضت هباء ، ثم افتراق الشبحين ، وخطاهما حيرى على الطريق ، والأيام تندفع في دورتها ، ترمقهما في سخرية . سخرية مريرة من أبناء الفناء التعساء ، ومن شبحين قد هجرا فلم تشعر بهما ، ولم تحفل بظلهما . إلا كما تشعر الأشباح وتحفل بالظلال .

وهذه الأبيات — كاستهلال — تصور الانفعالات بوجهة عامة ، ثم تعرض التجربة عرضاً بدائيًّا ، فيه الصاب الصارخ الذي يوشك أن يكون زجراً قاسياً ، ولكنه لا يبلغ أن يكون كذلك ، وإنما يكون في تتابع العرض ، وفي ثنايا القصيدة كلها ، التي تصور الانفعالات بجزئياتها ، واللمحات الشعورية في تدافعها .

فإذا ما نظرنا إلى ما يلي الأبيات السابقة من القصيدة .

(١) سيد قطب بعد الأوان

بعثرت أيام الشباب ، فرمح أيام الشباب
لا تستقي إلاّ على رنق وأنفسنا غضاب
لم نصف كأس حياتنا يوماً ولا لذّ الشراب
والآن تنطلقين في لهف إليّ وفي ارتقاب

نجد إن هذه الأبيات تؤلف مع سابقتها معنى ، ولكنه لا يبلغ درجة الكمال ، إلاّ أنها تضفي عليها شيئاً من التوهج ، وشيئاً من الإيضاح تتجربة ، تساعد على إبرازها سماتها المميزة ، التي تتوافر فيها الصورة والحركة والإيقاع .

فإذا ما تتبعنا القصيدة

عيناك والمتان لاعنتاق كلهما دعاء
وحنين ملهوف تطلع في ثنوت لقاء
ويحي فأين أنا وأين حنين أيامي الظماء
صمت الخريف يلفني وطيه شاورت المساء

* * *

وهنا نبضات حارة من قلب انسان ، انسان عظيم الاحساس ، عميق النفس ، محتدم القلب وهذه النبضات الحارة تؤلف من سابقتها ، صورة نفسية شائقة ، أو بعض صورة ، أو ان شئت فقل لمحة شعورية من الحياة ، تستطيل برشاقة الألفاظ التي لن تخرج عن كونها الرموز والاشارات . لمل زاوية التقطها الشاعر من ثنايا أحاسيسه الجائشة .

وإذا ما تتبعنا نبضات قلبه .

ذهب الزمان هناك فمضي أنت حتى
ما عاد يوقظني ندائك خاشعاً من بعد وهن
ماتت مناي جميعها ، فلام يخدعني التمني
فرق الزمان طريقنا ، فلمضي وحسبك ذاك مني

وهنا نلتمس التوهج في النغمة الكاملة ، أو التي تقرب من الكمال — حتى هذه الرباعيات — فهي تصور أحاسيس الشاعر المحتدم القلب ، ازاء النداء الذي انبعث ، بعد

الأوان » . فما عاد يوقظه خلسة ، وقد خبا وميض أمانيه ، وماتت أغاني الحب للشرق على شفتيه ، وما عاد سوى يد راعشة تضرب على أوتار متقطعة .

وطريقة الأداء ما هنا تتناسب وتتابع الرباعيات السابقة ، وتتناسب وتلاحق الرباعية الأخيرة التي يصوّر فراق الشجيين ، وقد طمست الريح خطاه الواجفة على طريق اللانهاية وهذه هي الرباعية .

هذي خطاي على الطريق وتلك واجفة خطاك
الريح تطمسها فلا أخطو ولا أثر هناك
شبحان قد عبرا فلم تقمر بهذا أو بذاك
تتلوها الأشباح والأيام ماضية وراك

ونلاحظ في هذه القطعة أن الموضوع يتدانق متقطعاً بحيث أن كل رباعية تؤلف زاوية من المعنى العام الذي تحمله المقطوعة ، ثم يكون من تتابع هذه الجزئيات المتقطعة التي تشتمل كل منها على « نقطة » ذلك الاحساس العميق الذي لا يكون سوى تتابع المقطوعة جميعها ، من مجموع تتابع الجزئيات ، ومن الظلال والايقاعات التي تساعد على ابراز المقطوعة في الصورة الحسة المتخيلة .

وهذا بعينه موجز الموضوع الذي يعرضه هذا الفصل : تتابع الجزئيات ، وطرائق العرض العام .

ومن هذين نستمد عناصر السير في الموضوع ، وبغيرها تكون تلك البعثرة المشوشة ، التي لن تخرج من كونها آثار عقل مضطرب .

ومن هذين تكون المقاييس التي تنطبق عليها النماذج الأدبية — والتي تبرز واضحة في الشعر — فهي لا تظلها بظل تامي ، ولكنها تبرز زيتيا من صفحها ، لأن الاحساس الصادق ، ينتج التتابع الصادق ، وهو بعينه الفن الصادق .

وانّ الأمر ليتطلب نفاذاً الى النفس الانسانية التي تشتمل على عوالم مغلقة فيها الأسرار والخفايا ، وفيها المضاء والعزعة ، ثم استكناهاً لها غير مقيد بتلك المقاييس التي تفرض نفسها على الفنّ فرضاً ، فلا تخرج من أنها مسخرة لخدمة هذا الغرض . ودمية في يد ذاك

اللاعب ، ولكنه مع ذلك يسير ويمضي في قافلة النقد ، ويمعن في السير والمضي في قافلة النقد .

وأقول نفاذاً الى النفس الانسانية ، لأننا لا نستطيع أن نفرض أنفسنا قضاة نتصدى للأحكام على الآثار الأدبية قبل أن نعرف الفوارق الواضحة بين نفس ونفس ، لأنها بعينها إضاءة الفوارق البادية بين سمات فن وفن ، ومن هنا كانت المعرفة النفسية — التي تلذيت بها — هي التي ترجح صنعة النقد ، فلا ينحاز ناقد الى جانب فنّ دون فنّ ، لا لشيء سوى لأنه قد افترض في الجميع درجة واحدة ، قد يراها الترجح ، فلا يكون سواها الفنّ الصادق ، وهذا في زعمه ، ولكنه ليس من مقاييس النقد ، ولا من تعبيرات الفنّ .

أما تتابع الجزئيات . فأحسب أن المثال يبرزه في وضوح ، والقياس الذي تنطبق عليه النماذج الأدبية ، يمكننا أن نستخلصه في التقديم والتأخير في الأثر الأدبي ، فاذا ما انتهينا من القطعة — بعد التقديم والتأخير — بنفس النتيجة التي ننتهي منها في حالتها الأولى الأصيلة ، كانت القطعة ليست من الفن الذي يتسم بالصدق ، فاذا ما قال قائل :

« لماذا ؟؟ » دون أن يحاول النفاذ الى كنه النفس الانسانية — كما أسلفت — حقّ لنا أن نتهم رأيه بالجمود وضيق الأفق ، بل حقّ لنا أن نتهم رأيه بالغباء والجهل بالنفس ومساربها .

لأن الخلجة النفسية الصادرة ، التي تبعث في حرارة وانفعال ، تكون لها ظلالها ومعانيها وتكون لها درجاتها المتدافعة في ترتيب لاسيطرة للذهن عليه — سيطرة تامة — ولكنها تصور المعنى العام متتابعاً ذلك التتابع الذي يشق وبداية الأحاسيس والمشاعر ، ونهاية هذه الأحاسيس والمشاعر .

ففي القطعة السابقة نجده قد صوّر اقبالها عليه ، ولكن بعد الأوان ، ثم عرض لأيام الشباب التي ولت ، ثم تطلعها الوالهة ، ثم موات أمانيه ، حتى تتفرق الأشباح .

وهذا بعينه احساسه الذي لا يخرج بزيادة هنا ونقص هناك ..

أما اذا ما حاول تصوير افتراق الشيخين ، ثم نظراتها الوالهة ، ثم ... حتى نهاية ما افترضناه من تقديم وتأخير ، فإنه يتهم بالزيف في العواطف ، وفي حساسية الفن . .

وفي انه صاحب تعبير لمجرد التعبير ، فتتلاشى الظلام للأثر الفني ، فتجدها متشكلة أشكالاً هاهنا وهناك ، في بحرة وشتشتة ، وفي نشاز تنقصه سلاسة الأداء . .

ومن هنا تكون مواضع النقد الأدبي ، ومن هنا تكون مقاييسه ، هي مواضع النقد التي منها يمكننا أن نتلمس طريقنا في بيان الآثار الأدبية ، وهي مقاييس النقد التي بها يكون التعبير تعبيراً وبدونه لا يفلح فن ولا يستقيم تعبير .

ولكن النقد عندنا — دائماً — معصوب العينين ، تنقصه المعرفة النفسية التي تخلق بين الفنان وأثره نوعاً من المشاركة الوجدانية الصادقة ، وبين الأثر الفني طرفاً من هذه المشاركة . .

ومن أمثلة النقد المعصوب العينين ، ذلك الاطراء والمديح الذي ناله شعر شوقي الذي يحشد الألفاظ ذات الجرس الفخم الايقاع ، ويكفل الايقاع الذي يشبه ما يلقى في حلقات « الذكر » .

ولكن المنطق شيء ، ومجرد الاطراء شيء ، وهان أمر الفن إذا ما نال كل أثر ضئيل حظه من الاطراء والمديح ، مما يتناسب وما يلقى لصاحب الاطراء والمديح ، ولكننا نهتم قبل كل شيء — ودون تعصب لمدرسة أو مدرسة من مدارس الشعر — ان نطبق عليها مقاييس النقد ، والتي يعرضها هذا الفصل خاصة بطرائق الأداء ، وبتتابع الجزئيات ، ثم المعنى العام والظلال النفسية التي يكون أثرها في نفس القارىء . .

اما طرائق العرض العام ، فهي ان تكون القطعة الفنية — بصفة عامة — لمحة شعورية من مجموع اللمحات الشعورية التي تجيش بمشاعر الفنان ، وما قد تكون مادته التجربة الأصيلة التي تخلق ما يسمى بالتوصيل .

وهذا بدوره يتميز بتميز ألوان الأدب — باعتباره نموذجاً في الفن — فالشعر يختلف عن القصة ، والقطعة النثرية تختلف عن الشعر والقصة ، ولكن الجميع يتحد في اثنين : تتابع الجزئيات ، وطرائق العرض العام .

وهذا ما يحتاج الى تفصيل دقيق شامل ، نخص به كل لون من ألوان الأدب ، وأحسب أننا في عدد قادم نستطيع ذلك .

صحي سفيي

مكتبة المقتطف

ألمع ساعات الحرج
في تاريخ الانسانية

لمؤلفه الاستاذ محمد مفيد الشوباشي : الطبعة الثانية : ١٩٤٧ : ٢٥٠ صفحة من القطع الاوسط

جمع المؤلف في هذا الكتاب بين سور عديدة ، كلها صور ممتازة في تاريخ الانسانية وعبر بكتابه مصوراً ومصوراً ، من عصر كليوبطرة الى عصر الرئيس ولسون . على أن الذي ينظر في هذا الكتاب نظرة ناقد حر ، يظلم مؤلفه إذا طلب منه أن يكون بين فصول كتابه وحدة شاملة . فالكتاب في « ألمع ساعات الحرج » التي يذكرها التاريخ ، وقد تكون ساعة منها قبل الميلاد بقرون ، وأخرى بعد الميلاد بعشرين قرناً . فكيف تطلب وحدة الموضوع في مثل هذا البحث ؟ إلا أن يكون السحر وحده أداة الكاتب في خلق هذه الوحدة .

وصديقنا مؤلف هذا الكتاب شاعر تأثر ، لا تنكر عليه الشاعرية ، ولا ينكر عليه النثر . فأسلوب هذا الكتاب أسلوب أدبي ممتاز ، سهل العبارة سلس الأداء . أما كتابه « أرميا » الذي سوف نقدم على نقده قريباً ، فدليل على ذلك وأي دليل .

***

والكتاب في مجموعه أثر أدبي يؤلف عند القارىء فكرة شاملة من الأخطاء التي تقتحمها الانسانية في أجزاء من تاريخها ، بل إنه يعطيك صورة من الانسان والانسانية .

تاريخ الحركة القومية
وتطور نظام الحكم في مصر

تأليف الاستاذ الكبير عبد الرحمن بك الرافعي : جزءان الاول والثاني :
الطبعة الثانية ويقعان في ٨٠٠ صفحة من القطع الكبير

أصبح الأستاذ الرافعي بك مؤرخ النهضة الحديثة غير منازع . ولقد بدأ كتابه بعصر المماليك ليجلو للباحث ما كانت عليه حالة البلاد في عصرهم وأحاط بالعوامل السياسية والجغرافية التي مهدت للحملة الفرنسية وكانت سبباً من أسبابها ، وعطف على العصر الذي تولى فيه نابليون السلطة في مصر فحلله أشمل تحليل وأبان عن نواحيه العديدة بروح المؤرخ وأسلوب الأديب . فاهيك بأنه أرّخ للثورة المصرية في عهد الفرنسيين تاريخاً صحيحاً بيناً وأظهر ما يكمن في جوانح هذا الشعب من وطنية ووعي قد أخذت آثاره الحقيقية تظهر جلية واضحة في حياتنا الموقتة بإذن الله في فلسطين .

ومن أمتع فصول هذا الكتاب ، وهو يدل على عبقرية تاريخية ممتازة ، الفصل الثالث عشر الذي تناول فيه المؤلف « نتائج ظهور العامل القومي » في صراعنا مع المستعمرين .

على أن الكتاب في جملته قطعة فذة من التاريخ ، وصورة رائعة من الوطنية

معالم تاريخ الانسانية

تأليف هـ . ج . ولز : ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد : ٢٤٠ صفحة من القطع الكبير

الكاتب الانجليزي ولز أول من كتب في التاريخ الانساني منتحياً منحىً جديداً له ، محصله ، أن التاريخ لا يفهم إلا اذا ارتبطت فيه الناحية الانسانية بالناحية الطبيعية ، الاحيائية ، وخلص من آثار الفكرة القديمة فكرة أن التاريخ ليس الا ذكر الحروب والملوك والاتفاقيين الذين أحدثوا في تاريخ البشر أعظم ما يذكر التاريخ من سيئات الطبع والخلق . وعلى هذا المذهب كتب تاريخه « المعالم » بطبقاً مذهبه هذا . فكيف يفهم تاريخ الحضارات القديمة من غير أن يلم الباحث بتاريخ الانسان قبل التاريخ المكتوب ، وكيف يلم بهذا التاريخ نفسه من غير أن يلم بنشأة الانسان ونشأة الكرة الأرضية والنظام الشمسي قبل أن يكون الانسان ؟

ولقد بذل الأستاذ المترجم في هذا الكتاب جهداً يجل عن مجرد الشكر لقاء ما قدم لثقافة هذا العصر من علم وأدب وتاريخ طويت كلها بين دفتي هذا الكتاب المفيد . وعندي أن رجال التعليم لو اعتبروا حقيقةً ، لجعلوا هذا الكتاب مادة لدرس التاريخ في جميع المعاهد الثانوية والعالية ، فانه ولا شك يفتح آفاقاً واسعة ويزاوج بين ما تناثر من تاريخ البشر ، بإحداث رابطة طبيعية احيائية بين ما فعل الانسان وما فعلت الطبيعة . وكفى بذلك قيمة علمية . والكتاب حسن الأسلوب طيّع العبارة صحيح النقل .

كتاب الكندي الى المعتصم بالله

في الفلسفة الأولى

لمحمد احمد فؤاد الاهواني مدرس الفلسفة بجامعة فؤاد الاول . ١٤٨ ص من القطع المتوسط

من الدلائل الصحيحة على أن الحركة الفلسفية في هذه البلاد قد اتجهت الى العمل على تركيز قواعدها انصراف جملة من رجال العلم الى النظر فيما ترك أوائلنا من الآثار الفلسفية والأدبية والفقهية . أصول الأدبية والفقهية لأن العصر الذي خرجت فيه هذه الآثار قد امتزجت فيه هذه العناصر جميعاً نترك ذلك لأدل هذا العصر ميراثاً يحتاج الى تنقية وتنمية وتشييد وعمل على استخلاص ما تداخل من الفلسفة في الأدب وما تداخل في الأدب من فقه وما غزا الفقه نفسه من عوامل الأدب ومذاهب الفلسفة

* * *

ولقد آثر صديقنا الأستاذ الاهواني ان يكون من مؤثري الحكمة العاملين على تخليص تراثنا الفلسفي من آثار ذلك التخالط الذي كان سبباً أولياً في عجزنا عن فهم الفلسفة القديمة التي خلفها أوائلنا فهماً صحيحاً . فقد عقد فصلاً في تحليل الرسالة الخطية هو من أمتع فصول الكتاب وأدل برأيه في قيمة هذه الرسالة من الناحية الفلسفية فانتهى منها جديداً قوامه النقد الصحيح . فهذه الرسالة وظهورها في هذا العصر دليل قاطع على إننا سنأتنا نتجه في درس الفلسفة ذلك المتجه الذي سوف يصل بنا الى أشهى الثمرات .

نظم الحكم في مصر في عصر الفاطميين

٣٥٨ — ٥٦٧ هـ — ٩٦٨ — ١١٧١ م

تأليف دكتور حسن مشرفة : ٤٤٠ صفحة من القطع الكبير

كان عليّ أن أؤدي الواجب الضئيل نحو هذا الكتاب قبل زمن مضى ، ولكن من الافراط ان يصدر الناقد حكمه في مثل هذا الكتاب قبل أن يتم درسه بعناية : فالكتاب قطعة من التاريخ في عصر من عصوره ، تناول نظم الحكم في عصر الفاطميين . وعصر الفاطميين كما نعلم جميعاً قد شغلت في كثير من المراجع مطبوعة ومخطوطة . ولازمن التوفيق الكبير لأخينا الدكتور حسن مشرفة أن يرجع الى بعض المصادر المخطوطة التي لم يعتمد عليها مؤرخ أو باحث قبله .

ومن أعظم الفوائد التي يجنيها دارس هذا الكتاب وقوفه على كثير من الأشياء الخفية في نظام القضاء خاصة . فان الفصل الذي عقده المؤلف في اختصاصات القضاء والقضاة من أمتع الفصول وأكثرها فائدة . كذلك يعرفنا الكتاب مجموعة من المصطلحات الفقهية وألقاب أصحاب الدولة والدواوين وأصحابها ونظام الجيش والادارة ، فهي أشياء ينبغي أن تسجل في مصاجمنا التاريخية ، لاسيما وان المؤلف قد عرفها وشرح خصائصها أمتع شرح .

والكتاب حسن الاسلوب والنسق ، وقد بُوّب على أحسن ما تبوّب كتب التاريخ . فهو مرجع من مراجع التاريخ الفاطمي لا يستغني عنه صفيٌّ بهذا العصر التاريخي العجيب .

السيد البدوي

أو دولة الدراويش في مصر

تأليف الاستاذ محمد فهمي عبد اللطيف : ١٦٢ صفحة من القطع الاوسط

من أمتع ما صدر من الكتب في العهد الأخير ، فقد جمع بين التاريخ والنقد والأدب ، وأظهرنا على ناحية من تاريخ مصر لعب فيها الدين والسياسة دوراً عظيماً وكشف عن هو السيد البدوي أكبر قديسي الوجه البحري تأثيراً في عقائد أهل الريف ، وأبان أن تلك الدعوة التي قام بها لم تكن غير دعوة سياسية باطنية ، وأنه لم يكن غير داعية لمذهب

الفاطميين السياسيّ الذي شابه كثير من بدع الدين ، بعد أن تقلصت دولتهم ودخلت مصر في حكم الأيوبيين .

* * *

والكتاب ناحية فذة حقيقة ، فقد تناول ما يتناقل الناس من خرافات سيقت على مدى العصور وألصقت بالسيد البدوي ، وأظهر أن هذه الخرافات لم تكن غير أداة سياسية اتخذها مريدوه سبيلاً الى التأثير في العوام ليكونوا في يدهم مجينة لينة يخدمون من طريقها مذهبهم السياسي .

والبحث من البحوث المبتكرة ، وقد فانى مؤلفه في جمع مادته جهداً يشكره عليه المؤرخون ورجال الفكر في هذا العصر .

ألحان الحان

أبو نواس في حياته اللاهية

تأليف الاستاذ عبد الرحمن صدقي : ٤٢٤ صفحة من القطع الكبير

كان من الحق لو أن المؤلف الفاضل قدم لكتابه هذا « أبو نواس في مباذله » ، فلم تكن حياة أبي نواس على ما جليت في هذا الكتاب حياة لاهية لا غير ، بل كانت حياة تبذل أصبحت عنواناً على عصره . ولكن من الصعب أن يكون أبو نواس أول شخصية في التاريخ كله أخرجت بين التبذل والاباحية مذهباً برمته في الشعر ، ونحواً برأسه من مناحي الأدب . فان لمباذل أبي نواس طعماً خاصًّا وعذوبة يستسيغها الطبع ودقة هي النسمات العليلة في اليوم الشائظ ، بل هي الحسناء الفاتنة في ماوية راق ماؤها وصفا . غير أن هذه الصور لم تجل قبل أن يكتب صدقي ألحان حانه هذا أو حان أبي نواس . فان قوة السبك ومتانة الأسلوب ورشاقة العرض ودقته من الآثار الأدبية البينة في صفحات هذا الكتاب . فأدب هذا الكتاب وأسلوبه من المأثورات ولا شك . جرى فيه مؤلفه على أسلوب انتحى فيه القدماء على جدة في الترتيب والاداء ، فجمع بين عصرين كبيرين من عصور الأدب العربي .

الكتاب السنوي

لجمعية هواة الدواجن : ١٨٤ صفحة من القطع الكبير

تؤدي هذه الجمعية للثروة الاقتصادية والمالية خدمة مذكورة . وهي فوق ذلك تخدم العلم من غير أن يكون العلم غرضها الأول . فان داروين صاحب النشوء المشهور قد كتب فصولاً ممتعة في كتابه أصل الأنواع معتمداً على ما استجمع هواة الطيور والماشية من حقائق استمدوها من تجاربهم ، ولم يكن لهم من علم ما تطوي من حقائق العلم : والجمعية إذ تنشر كل سنة كتاباً طبياً سنوياً تؤدي الآن مثل هذه الخدمة العلمية ، فوق ما تؤدي من خدمات للاقتصاد والثروة الأهلية .

أما رجالها فهواة متطوّعون لهم على جهدهم أعظم الأجر ، وأعظم الآثار التي خلفها الانسان هي تلك التي خرجت من مجهود ذوي الهواية . فان هواياتهم تصبح جزءاً من حياتهم وبذلك ينجحون . وحبذا لو اتجهت الجمعية اتجاهاً جديداً فتجعل من عملها الرئيس أن تبحث تاريخ ضروب الطير والماشية وتطورها في هذه البلاد ، ومن أين دخلت وفي أي عصر ، وماذا كان لها من أثر في الاقتصاد القومي ، فان ذلك من أهم ما يستفيد به المشتغلون بتحسين الانسال في أنحاء العالم أجمع .

المُسنَد

للامام احمد بن محمد بن حنبل : شرحه ووضع فهارسه الاستاذ احمد محمد شاكر

الجزء الرابع ٤٠٠ صفحة من القطع الكبير

لقد خدم صديقنا الفاضل الأستاذ شاكر علم الحديث خدمة ممتازة بنشره هذا الكتاب وقد أتاه على ذلك درس طويل واكباب حرّ على توضيح مسند احمد وشرح غريبه وبيان مبهمه بمقارنات نقدية كثيرة كبيرة القيمة . بل ان هذه الطبعة تجعل الامام بأحاديث المسند أقرب تناولاً وأسهل مأخذاً . فالكتاب بصورته الفذة مسند ضروري لكل من اشتغل بهذه العلوم من الفقهاء والأدباء والمؤرخين .

الحياة السياسية

الاستاذ عبد المجيد نافع الغلاييني — ٢٦٧ صفحة من القطع الكبير

دار النشر للجامعات العربية

إذا ذُكرت الحياة السياسية في مصر في الحقبة الأخيرة من الجهاد القومي وذُكر أكفاؤها، فان الأستاذ عبد المجيد نافع في مقدمة الذين مارسوا هذه الحياة عملاً وعلماً، ولم يتخذها وسيلة وغُنماً. فلقد جاهد في معتركها صحفيًّا وناشئاً فكان الجريء الذي لا يبالي الجماهير، ولا يبالي في إبداء رأيه سخطاً أو رضىً ما دامت عقيدته في هذا الرأي تبلغ مرتبة الايمان القوي راضية عنه مطمئنة إليه

وهو إلى جانب هذه الصفات يمتاز بأسلوب أدبي رصين يستمدُّ من طبيعته عناصر قوَّته، ومن ثورته مظاهر حيويته. فهو قوي العبارة متين التركيب مشبوب التعبير، دائم على دعائم من الحجج والبراهين، تملؤه أعصاب ثائرة دفّاقة، يلهمه اطلاع واسع على أحداث التاريخ وعبره. وهذا خير الأساليب للوطني المجاهد.

ولقد دفعته غيرته على الحياة السياسية إلى إخراج هذا الكتاب يرسم به أمام أعين الذين يلجون أبواب هذه الحياة سبيل الهدى فيها. وقد حرص — كما يقول — على أن لا يكون ما ألفه كتاباً سياسيًّا، وإنما يكون كتاباً في السياسة.

* * *

وقد استهلَّ كتابه هذا ببحث في السياسة يدلّل فيه على أنها رسالة لا استغلال، ومن الواجب أن لا يترك الباب مفتوحاً أمام المغامرين والمتجرين يتسرَّبون منه الى الميدان السياسي، ثم تكلم على الأحزاب وعالج أوجه الفساد في النظام الحزبي فانتهى منه الى القول بأن الأحزاب السياسية ليست خيراً محضاً ولا هي شرٌّ محض، وإنه لا سبيل إلى تقليل شرور تلك الأحزاب إلا بتغليب الحزبية المعتدلة على الحزبية الصارخة وإيثار المصلحة العليا للدولة على مصالح القادة وتحد الزعماء وهو لا يرى خطراً في تعدد الأحزاب لأن في ذلك قيام

رقابة من حزب على آخر وان رقابة الرأي العام كفيلة بدفع الصالح منها للبقاء . على أنه يرى — وهو يتناول موضوع الانانية السياسية ووسيلة القضاء عليها — أن يفرض الذين يشعرون من أنفسهم القدرة على إدارة الشؤون أنفسهم في الصورة التي تمكنهم منها وسائلهم . ولكن ألا يرى معنا الأستاذ المؤلف ان هذا قد يكون وسيلة من وسائل قيام حكم الطغيان

ومن فصول الكتاب الممتعة الفصل الذي عقد الكلام فيه على الخطابة ، فهو مفتوحة من الدروس في هذا الفن يجب على كل سياسي أو غير سياسي أن يطلع عليها رأى بأخذ بها ، فليست مهمة الكلام بالأمر الهين . وهو ينتهي منه الى هدفه فيوضح للخطيب السياسي ما يجب عليه .

ومن الفصول القيمة الفصل الذي تناول فيه موضوع الحرب في البرلمان وما قالوه من الفصول نعي فقد الحياة البرلمانية وتوجيه الى الأوضاع الصحيحة والأساليب القويمة لانها خلاصة تجربة ودرس .

وقد عقد فصلاً لبيان من تقع عليه مسئولية ركود الحركة الاصلاحية ، أدلى للأمة تقع أم على الزعماء ؟ ويرى أنه يمكن معالجة ذلك ، بعد التربية الوطنية ، بالبرامج الاقتصادية الصادقة التي شعارها ان الفرد للمجموع والمجموع للفرد .

وقد ختم الكتاب ببحث وافٍ في موضوع هو من الموضوعات التي شغلت الرأي العام المصري زمناً وتشغله الآن مما يمتُّ الى الحياة السياسية ويتصل بها وبحياة وجاهد ذلك موضوع الاغتيال السياسي ، وقد وفّاه المؤلف البحاثة حقه من الدرس .

* * *

والكتاب في حد ذاته كتاب جدير بأن يكون موضوع عناية ودرس وأن يقرأه كل مغامر في هذه الحياة السياسية ليتزوّد لكفاحه بعُدد من التجارب ، ويتجنب في حياته أخطاء الماضي ويستلهم بصائر الحنكة والتجربة .

حسن كامل الصيرفي

١ — مجلة علم النفس

للدكتورين يوسف مراد ومصطفى زيور

١٦٠ صفحة من حجم المقتطف — تصدر عن دار المعارف بمصر

روّاد علم النفس في مصر معدودون وجميعهم والحمد لله يشهدون اليوم كيف يدرج هذا العلم الى مراتب الرقي وكيف يتسنم بين العلوم مرتبة رفيعة حتى لقد كان فرع من فروعه مدار بحث مستفيض في قضية من أكبر القضايا التي عرفها التاريخ المصري وهي قضية اغتيال أمين عثمان باشا .

ومن هؤلاء الروّاد الأساتذة الدكتور أمير بقطر وسلامه موسى والدكتور عبد العزيز القوصي والدكتور يوسف مراد والدكتور مصطفى زيور والدكتور محمد خلاف سعيد والدكتور صبري جرجس والاستاذ محمد فتحي بك . وقد أسدوا جميعاً يداً بيضاء لنهضة علم النفس في بلاد الشرق ومهدوا أمامه السبل واستحدثوا له المصطلحات العلمية العربية وأساليب التعبير الميسرة ، وجعلوا آفاقه تنم عن إمكانيات لا يستطاع الآن معرفة مداها

وقد توفر الأستاذان الجليلان الدكتور يوسف مراد والدكتور مصطفى زيور من ثلاث من السنين على اصدار مجلة رباعية تحمل اسم « مجلة علم النفس » ، لم تكد تولد حتى عرفت مستقرها بين المجلات العلمية ذات الصدارة ، لأنها أخلصت للعلم وأسلمت له القياد وهمت جادة لتكون في منسوب يعلو على العامة ، فغدت وهي حديثة العهد بالظهور مدرسة ومعرضاً يؤمها القارىء فيجني ثماراً علمية شهية ويتوسل بها الكاتب ليجعل منها مرتاداً لآرائه وبحوثه تُعرض على مائدة البحث الرحيبة .

ولقد أصدرت « مجلة علم النفس » بضعة أعداد ممتازة في موضوعات أحسنت اختيارها فكان كلُّ عددٍ منها سفراً جامعاً وكتاباً اشترك في تدوينه وبحث مراجعه عشرات من الباحثين ، وموجعاً لا معدى من الاستعانة به في البحوث العلمية المتعلقة بالنفس .

علاوة على أنها أصدرت باشراف الدكتورين يوسف مراد ومصطفى زيور طائفة من الكتب النفيسة في علم النفس فضمنت شوكة هذا العلم وجعلت أصوله في متناول القارىء

ووطأت لكل راغب في الاستزادة من منهل السيكولوجي أن يعتمد على نفسه في درس هذا العلم ومراجعة مصنفاته .

واذا كانت « مجلة علم النفس » تستقبل اليوم عاماً رابعاً من حياتها ، فهي تستأنف منا بتهنئة سخية ، وتقتضي بنا أن نهيب في التنويه بفضلها وما آثرها ، وتحتم على رجال العلم أن يصاغوا الدكتورين مراد وزيور مثنين مطرين وأن يرجوا لها ولأعوانهما اطراد الارتقاء في كل جهد علمي يوجهون إليه طاقتهم وقواهم .

٢ — مشكلات الشرق الأوسط

كتاب دوري يصدر بإشراف الدكتور راشد البراوي

نكتة النهضة المصرية — ١٦٠ صفحة متوسطة الحجم .

ألفت في كلية التجارة في جامعة فؤاد الأول جمعية همّها العناية بشؤون الشرق الأوسط ودراسة مشكلاته وشؤونه ، والتخصص في كل منحًى من مناحي البحث تكون له صلة ما بالشرق والحياة فيه .

وقد اختير لرياسة هذه الجمعية الأستاذ الدكتور راشد البراوي الأستاذ في الكلية وانتخب الأستاذ حسين كامل سليم بك عميد الكلية رئيس شرف لها . أمّا أعضاؤها فجميعهم طلاب في هذا المعهد تحرّي في اختيارهم ودقق في انتخابهم حتى يكونوا أهلاً للاشتراك اشتراكاً بنائيًا في أعمال هذه الجمعية .

وكان أوّل ما اتجه إليه نشاط « جمعية شؤون الشرق الأوسط » أن فكرت في إصدار كتاب دوري بعنوان « مشكلات الشرق الأوسط » يسهم في تحريره أساتذة الكلية وطلابها ويضمّ بين دفتيه بحوثاً مدروسة متقصاة في الشؤون السياسية والاقتصادية والاجتماعية لهذه الرقعة من العالم .

ويبدو لي أن هذا الكتاب اتخذ من « مجلة الشرق الأوسط » [1] التي يصدرها في وشنطن معهد الشرق الأوسط نموذجاً ومثالاً فسار على دربها وقلّد منهاجها ، واستهدف

(1) The Middle East Journal.

أغراضها ومقاصدها . فالجزء الأول منه خاص بالبحوث العلمية للسهبة — والثاني مترجم عن المجلات والكتب الغربية — والجزء الثالث خاص بتسجيل الوثائق الرسمية والمستندات والبيانات ذات الطابع الرسمي التي تصدر عن رجال مسؤولين في الشرق الأوسط . وفي ذلك باب للكتب تدرج فيه أسماء جميع المؤلفات التي صدرت أخيراً لمعالجة شؤون الشرق الأوسط .

ولا ريب في أن السير في إصدار هذا الكتاب مشاركة بين الأساتذة والطلاب باشراف الدكتور راشد البراوي ، مما ينبغي اشادته والثناء عليه لأن في هذا التقليد — الذي نرجو أن يكون تقليداً عامًّا في جميع الكليات والمعاهد العليا — تنشيطاً للطلاب وحفزاً لهممهم وإضراماً لنار حبّ العلم عندهم وإرشاداً لهم على تقديم المنهج العلمي على كل منهج سواه .

والمأمول أن ينتظم صدور الأجزاء التالية من كتاب « مشكلات الشرق الأوسط » حتى لا يقتصر نشاط أعضاء هذه الجمعية على الشؤون الادارية أو التنظيمية المجردة .

٣ — نيران وثلوج

للأستاذ سهيل ادريس

دار العلم للملايين في بيروت — ٩٦ صفحة من الحجم المتوسط

الأستاذ سهيل ادريس أديب لبناني عرف بتخصصه في النقد وفي كتابة القصة القصيرة وقد تضلع من هذين الفنين ، ولكن زمام الاجادة يفلت منه أحياناً

وقد تألفت مجموعة أقاصيصه الأخيرة « نيران وثلوج » وهي تضم عشراً من الأقاصيص فلم ترقَ منها سوى خمس هي « نيران وثلوج » و « قبلة اليد » و « أقوى من المسيحة » و « التضحية المشتركة » و « عطر ودم » . أما الخمس الباقيات فستولها التي في تقديري أقل من المستوى الذي عوّدنا سهيل ادريس على انتظاره منه .

والأستاذ ادريس صادق في تصوير نبضات الحياة ، لا يعمد الى الاستعانة بالخلق من العوامل (كالأشباح والرؤى مثلاً) مؤثراً أن يستقي من الواقع مادته ومن المألوف خطوط نسيج أقاصيصه . وقد نستثني من هذا بقعة العطر التي استحالت دماً يوم سرعت بطة أقصوصة « عطر ودم » فهذه معجزة ولكن الخيال القصصي يجيزها ويجعلها سائغة للعقل مقبولة إذا وزنت بميزان المنطق .

واقد حاولت أن أتلمس في أقاصيص هذه المجموعة معالم تدلّ على أن كاتبها لبناني، أو على أن الجوّ الذي يكتنفها هو جوّ لبناني ، فلم أستطع ، باستثناء الأقصوصة الأولى التي كان بطلاها يتربعان على الجليد في جبال لبنان الشمّ . فالأقاصيص جميعاً كان لكاتب مصري أو سوري أو أردني أن يكتب مثلها دون أن يفطن القارىء إلى أنها تحمل سمة بلد عربي بعينه ولست أقول هذا في مجال نقد أو التماس عيب ، وإنما أقوله لأبيّن أن الأستاذ إدريس ، يوم كتب أقاصيصه لم يلزم نفسه بالاقتصار على بيئة معينة ، أو على بلاد دون غيرها ، وإنما جعل أقاصيصه ذات هدف إنساني عام وذات قومية لا تعرف حدوداً بحيث يستطيع كل أديب أن ينتسب إنتاجه إليه .

ولئن تفاوتت مراتب أقاصيص الأستاذ سهيل ادريس في هذه المجموعة ، غير إنها جميعاً تستحق القراءة ، وسيخرج القارىء من كل منها بنوع من الرضا يترجح بين إفراط فيه وإقلال منه . وتبقى الملاحظة على أن الأدباء المصريين ينبغي أن يوجهوا عناية مستمرة مطردة بأدب لبنان بوجه خاص وآداب الأقطار العربية الشقيقة الأخرى بوجه عام، لأن ثقافة المرء لم تعد تعتبر كاملة إلاّ إذا عززت بهذا العنصر الضروري الحتمي .

٤ — لعب العرب

للمرحوم احمد تيمور باشا

مطبعة دار التأليف — ١١٨ صفحة من القطع الصغير

لأسرة تيمور مآثر أدبية مستقلّ على الدوام مذكورة لها فقد نفعت اللغة والأدب نفعاً قد لا يعبر أسرة أخرى أن تجاريها في مدى سعته وشموله .

وتعد هذه الأسرة هي المغفور له العلامة المحقق أحمد تيمور باشا الذي خط بقلمه قبل وفاته كثيراً من المؤلفات وكان يهمّ بطبعها لولا أن وافاه القدر فحبس نتاجه عن التداول العام

وقد أنشئت لجنة لنشر المؤلفات التيمورية برياسة أستاذنا الكبير الشيخ احمد خليل فاتجه بك وأحدث على طابقها تبعة نشر مخطوطات تيمور باشا وتوزيعها مبتدئه بكتاب « ضبط الاعلام » ثم بكتاب « لعب العرب » وكتاب « الأسرة التيمورية » وأشرفت على اخراجها في كتب يسهل لها أن تكون قُسْنية ثمينة .

وكتاب « لعب العرب » قاموس يضم أسماء جميع أنواع اللعب التي عرفها العرب مع شروح وافية تكثر منها . فهو بذلك كتاب فريد اقتضى اعداده جهداً كبيراً ، وعلماً جمّ

مواده على تيمور باشا أن يمعن في القراءة ويوغل في البحث حتى جمع فرائده وبوّبها ورتّبها ونسّقها.

فلجنة نشر المؤلفات التيمورية مدينة على بعضها تراث المرحوم تيمور باشا مشكورة على تحقيق ما سعى الفقيد إلى تحقيقه قبل منيته.

ربيع فلسطين

كتب صدرت حديثاً عن دار المعارف بمصر

(١) البندقية: للمؤرخ الكبير شارل ديل

ترجم هذا الكتاب لمنشورات جمعية الدراسات التاريخية الأستاذان أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر — والكتاب ليس بتاريخ وليس بقصة وليس بأدب وليس بفن وإنما هو جماع ذلك كله وصفحاته ٣٥٨ صفحة من القطع الكبير

(٢) صوت العالم: للاستاذ الكبير ميخائيل نعيمة

مجموعة بحوث نفيسة لأديب لبنان الكبير يدوي فيها صوت الانسانية تتجاذبها المادة والروح. وصفحاته ٢٠٠ صفحة من القطع المتوسط

(٣) ديودور الصقلي في مصر

نقله من اليونانية الأستاذ وهيب كامل ويعد هذا الكتاب أدق رواية أدبية ألفت منذ ٢٠٠٠ سنة عن مصر وآثارها وتقاليدها. وصفحاته ١٨٤ صفحة من القطع المتوسط

(٤) نوشيه: بقلم الأستاذ احمد العلوي محمد

قصة السيامي الأعظم والبوليسي الأعظم الذي قال عنه بلزاك «إن سلطانه كان على الناس أعظم من سلطان نابليون نفسه» صفحاته ٣١٦ صفحة من القطع المتوسط

(٥) من الأدب المقارن: للأستاذ نجيب العقيقي.

دراسة رصينة تقوم على دعامتين: تشتمل الأولى منابع الأدب على أساس علم النفس في الشعور والخيال والمثال والخيال والالهام والكلام وتشتمل الثانية على مقارنة الغزل العربي والوصف والمدح ومذاهب القول بما هو من نوعها في أدب الترجمة. وصفحاته ١٨٤ صفحة من القطع الكبير.

فهرس الجزء الثاني

من المجلد الثالث عشر بعد المئة

٨٩ هارون — لحيته وعصاه : اسماعيل مظهر

٩٤ النظرية الالكترونية للرائحة : حسن محمد السكري

٩٧ نظرات في النفس والحياة — تكملة نظرات مارسيل بروست : ع . ش .

١٠٦ الارشاد الاجتماعي وعلى أي أساس يجب أن يقوم : جمال الدين حمدي

١١٣ البعث (قصة) : للكاتب الفرنسي بول بوجيه : ترجمة الآنسة نعمت حسني

١٢٠ وفاء (قصيدة) : محمد مفيد الشوباشي

١٢١ معجزات الرائد اللاسلكي : عوض جندي

١٢٦ معبّدة ميمفة — المحامية الاولى في الشرق : كريمة هاشم

١٢٨ النازح (قصيدة) : عدنان مردم بك

١٢٩ جان دي لا بريير وكتابه « الاخلاق » : جورج نيقولاوس

١٣٨ الموت حلقة تطور : رشيد السعد

١٤٠ مرقسطة : محمد رجب البيلي

١٤٥ عالم القلب (قصيدة) : نقولا الحداد

١٤٧ الاداء في الفن : سبعي شنيق

١٥٣ مكتبة المقتطف « ألمع ساعات الحرج . تاريخ الحركة القومية . كتاب الكندي الى المعتصم بالله . نظم الحكم في عصر الفاطميين . السيد البدوي . ألحان الحان . الكتاب السنوي لجمعية هواة الحواجن . المسند . الحياة النباتية : حسن كامل الصيرفي . نيران وتفرج . مجلة علم النفس . مشكلات الشرق الاوسط لعب العرب : وديع فلسطين . البندقية . صوت العالم . ديودورو الصقلي . فوشيه . من الادب المقارن .

---

١ — لحق المقتطف

١ — ٤٨ عالم الذرة او الطاقة الذرية : بقلم نقولا الحداد

عالم الذرة
أو
الطاقة الذرية

ATOMIC ENERGY

بقلم

نقولا الحداد

طبع بمطبعة التقدم والمقطم بمصر

١٩١٨

استهلال

عالم ما بعد القنبلة

بعد ثمانية أو بضع ساعات من سقوط القنبلة الذرية على هيروشيما كان الجنس البشري كله مشدوهاً جزعاً من هذا الحادث الهائل المفاجيء — أجل مفاجيء — من ألوف الطائرات ترمي ألوف الأطنان من المتفجرات فتدك أحياء المدن حيًّا حيًّا إلى طيارة واحدة ترمي قنبلة واحدة تزن رطلاً واحداً ، فتدك مدينة واحدة عظيمة في لحظة واحدة دكًّا هائلاً — خبر لا يكاد يُصدَّق . ولكن العالم كله صدَّقه ، لأن هوله لمع في جميع البلدان وأقام البرهان وحتَّم الإيمان وضعضع البهتان . وللرء يجزع من خوارق الحدثان التي تمتلئ في مخيلته قصص الجان .

يقيناً انتقل العالم من عناء مناوشة المتفجرات فوقع تحت سلطان القدرة الحاسم ، بكلمة واحدة من لسان الأورانيوم خرَّت اليابان على ركبتيها ضارعة مستغيثة تلتمس الرحمة والرفق لو وُفِّق مخترعو قنبلة الذرة منذ شرعوا في محاولة صنعها خرَّت ألمانيا ساجدة منذ سنة ١٩٤٠ وحُقِنت دماء كثيرة .

أصبح البشر الآن خائفين على مدنيتهم أن تبيد بتاتاً ، وعلى جنسهم أن ينقرض كما انقرض قبله الديناصور وحيوانات أخرى

صار الناس يحسبون حساب المستقبل الجديد — نعم سيكون المستقبل كله جديداً . وسيصبح حاضرنا كأنه ماضٍ ، من قبل التاريخ ، كما كان العصر الحجري بالنسبة الى عصر ما قبل التاريخ .

عصر مجد الكيمياء انقضى ، وجاء عصر سؤدَّد القدرة الكهربي ، وأصبح اكتشاف الكهربائية درجة الصعود إلى عالم القدرة ، كما صار عصر البخار كالحجر لدى عصر الطيار .

القنبلة الذرية لم تفتح فصلاً جديداً في كتاب العلم ، بل فتحت دائرة معارف جديدة ،

وفتح فصلاً جديداً في الثقافة ، وسيضاف الى مناهج الدراسة في الجامعة منهاج جديد للتخصص في « علم الذرة » .

في عام أو بضعة أعوام سيرى طلبة الطبيعة والكيمياء لديهم كتاباً مطولاً في علوم الذرة — بناؤها وتركيبها وتحليلها ووظائف أعضائها وقواها ومفاعيلها إلى غير ذلك . ولا بدَّ من دراستها ، لأنها ستفتح السبيل الوحيد لفهم الطاقة الكيميائية والتيار الكهربائي ولتبسيط الكيمياء والكهرباء . وسيلقب الناجح في علم الذرة بكلوريوس الذرة أو أستاذ الذرة أو دكتور الذرة ، وأخيراً فيلسوف الذرة .

مسكين طالب العلم في العصر الجديد ، سيمتد عمر دراسته عاماً أو عامين أو أكثر لدراسة علم الذرة ... لا تجزعنَّ يا بنيَّ ، لأن الحقائق متى وضحت سهلت الدراسة .

لا يصح أن نسمي هذا العصر الجديد عصر الأورانيوم ، لأن تحطيم الذرة لاستخراج الطاقة منها لن يقتصر على الأورانيوم وحده بل سيتناول العناصر الأخرى الواحد بعد الآخر . اليوم تحطم الأورانيوم وبعده الرصاص ، ثم الحديد ، ثم الكربون ، وربما تحطم الهيدروجين أخيراً .

ستتحطم ذرات القلم الذي في يدي ، وذرات الورق الذي بين يديك ، وذرات الكرسي الذي تقعد عليه . ستكون كل الذرة في الكون قابلة التحطيم ، كما أن ذرات عناصر الشمس متحطمة تباعاً ومنتشرة حطامها في الفضاء فوتونات أو شُرَيْنَات . ولولا حطام ذرات الشمس المنتشرة في الفضاء لما رأينا نوراً ولا دفئنا بحرارة . لسوف تذوب الشمس حطام ذرات في الفضاء ، كما يذوب الشمع أمام النار . وكذلك سيكون مصير جميع الأجرام أن تتناثر كلها فوتونات في الفضاء اللامتناهي هي من الإثير وإلى الأثير تعود . وربما تجدَّد تكوُّن الكون بعدئذٍ في دورة أخرى ، والله أعلم .

سيصبح تحويل معدن إلى معدن أسهل من تحويل اللبن إلى كريشوك ، والقطران إلى روائح وألوان . ثم تكون القوة أطوع لبد الإنسان من الكتاب الأمين أو الخادم الودود . قد يتمكن الانسان أن يطير حول الكرة الأرضية تحت ظل القمر ، ويبقى تحت ظل القمر حتى يجد نفسه قد عاد إلى مطاره ولا يحترق معه من القوة إلا قدر الحمصة في علبة سجائر .

وكذلك يستطيع بزوره أن يمخر البحار الخمسة بقوة هذه الحمة ، ويطوف جميع بقاع الأرض في سياراته بقوة هذه الحمة .

وسيرى حمات الأورانيوم أو البلوتونيوم أو الراديوم أو غيرها تدير معامل الصناعات على اختلاف أنواعها . ثم سيرى الانسان نفسه سيد الطبيعة بالفعل — يهيج البحار ويسكنها ، ويجري الأنهار ويحبسها ، ويستنزل الأمطار ويكفها — يتصرف بالطبيعة كأنه

ولكن يا أسفاه سيبقى هناك شيء لا يستطيعه الإنسان . يسيطر على الأورانيوم ويتسلط على المعادن ويعتقل القوة العقلية ، ولكن هناك شيئاً لا يستطيعه . لا يستطيع أن يملك عنان الطبع البشري ! يستطيع أن يقهر قوات الطبيعة ، ولكنه لا يستطيع أن يقهر شهوته . يستطيع أن يكبح جماح الحر والبرد والريح والبحر والعاصفة ، ولكنه لا يستطيع أن يكبح جماح رذيلته وشروره .

يكون سيد المادة ، ولكن شهوته تبقى سيدته !

يتسلح على عوامل الطبيعة ، ولكن رذائله تتسلح عليه !

يركب متن الطاقة الذرية ، ولكن شيطان أهوائه يتعبه !

يحطم الذرة ، وأخيراً الذرة تحطمه !

أصبح الإنسان الحيواني عند مفترق طريقين : إما أن يعقل ويعتقل القوة الذرية فيستخدمها لتسعده ، أو أنه ينتحر بها ...

المدنية الآن في ثورة من خمرة انتصارها على الطبيعة ، فإن استطاعت أن تصحو من هذه النشوة قبل أن تهوي إلى هاوية الفناء ، وأن تجعل النظم الاجتماعية والسياسية علماً بقواعد وأصول لتسير عليها ، كما جعلت السنن الطبيعية علوماً لها ، نشأت مدنية جديدة في فردوس من السعادة لا يفرغ منها .

إليك هذا الكتاب هو أول كتاب[1] في علم الذرة باللغة العربية فاقرأه واستغفر لأخطائه وتكرم بالإرشاد إليها .

نفولد فرار

---

(١) لقد صدر قبله كتاب أو كتابان ، ولكنه كتب قبل كل كتاب ولم يسعفه الحظ أن يطبع في حينه

الفصل الاول

ما هي الذرّة

١ — العناصر الكيميّة

الوَحدة هي الجسم الذي يتألف من أفراده المتماثلة جسم أكبر منها . الانسان وَحدةٌ في المجتمع . أي أن المجتمع يتألف من وحدات الإنسان . وجسم الإنسان ، وكل حيّ يتألف من وحدات هي الخليات الحيوية Cells . والخلية وكل مادّة من مواد الأرض (والنجوم أيضاً) تؤلف من وحدات طبيعية تسمى جزيئات Molecules كاللحم والعظم والخشب والشعر والتراب والحجر والهواء والماء . والجزيء مؤلف من وحدات كيماوية عنصرية تسمى ذرّات

جزيء البترول أو السكر أو النشا مؤلف من الهيدروجين والأوكسجين والكربون. وجزيء اللحم مؤلف من هذه ومعها النتروجين . وجزيء الحجر مؤلف من الثلاثة الأول ومعها الكلس وغيره . وهكذا ألوف جزيئات المادة مؤلفة من وحدات تسمّى ذرّات .

آخر ما توصل إليه علم الكيمياء إن الذرات التي تتألف منها جميع المواد الأرضية ٩٢ نوعاً وكل نوع يسمّى عنصراً . وحاصل ما تقدّم أن الذرّة في عرف الكيميين هي الوحدة المادية الأولى . وكانت الى آخر القرن الماضي تسمى « الجوهر الفرد » الذي لا يتجزأ Atom وهذه كلمة يونانية معناها « لا ينقسم »

ولكن في أوائل هذا القرن ظهر للعلماء الكهربائيين أن الذرّة ليست الجوهر الفرد الذي لا ينقسم لأنها مركبة من جُسيمات أو ذريرات ، وأنها تتجزأ إليها كما سيأتي بيانه

لكل عنصر من العناصر ذرّته الخاصة به . ووظيفة الكيمياء لا تتجاوز عالم الذرّات

وتختلف ذرّات العناصر بعضها عن بعض بخاصتين أساسيتين : أولاً وزنها ، وأخفها ذرة عنصر الهيدروجين، وقد جعل وزنها مقياساً لأوزان جميع العناصر . فوزن ذرّة الهيليوم مثلا أربعة أضعاف وزن ذرّة الهيدروجين والكربون ٣٢ والنضة ١٠٨ والذهب ١٩٧ والأورانيوم ٢٣٨ وهو أثقلها جميعاً . وثانياً تختلف بعضها عن بعض بالفتها الكيميية . وهذه الإلفة هي الرباط الذي يربط ذرّة بذرة أو بذرات كما يعلم العالم الكيماوي .

ولكن ما هي الألفة الكيمياوية ؟ هي إسم لمسمّى كان مجهولاً . ربما علم في غضون بحثنا في هذا الكتاب.

إن جميع مواد الكرة الأرضية مؤلفة من ٩٢ عنصراً ، منها إثنان لا يزالان مجهولين ولكن خواصهما معروفة . فاذا اهتدي إليهما وجداً مطابقين لها، ويحتمل أن يكتشف العلماء عناصر أخرى . والراجح أن جميع هذه العناصر أو بعضها موجودة في كثير من الأجرام السماوية . وقد يوجد في بعض الأجرام عناصر لا وجود لها في أرضنا أو لم يكتشف في أرضنا . والعلماء اكتشفوا الهيليوم في الشمس قبل أن يكتشفوه في أرضنا

وقد لوحظ أن بين هذه العناصر الـ ٩٢ ثلاث جماعات مختصة بظاهرات طبيعية مختلفة . الجماعة الأولى جماعة المواد الحيوية . وهي الهيدروجين والأوكسيجين والكربون والنيتروجين (وهناك بعض أملاح ثانوية في تركيب الخلايا الحيوية) فأجسام جميع الأحياء من ميكروبات ونباتات وحيوانات مؤلفة منها . والجزيئات المؤلفة أساسيًا منها تشتمل على عدد كبير من الذرّات . قد يبلغ الجزيء الواحد ألفي ذرّة . في حين أن جزيئات العناصر الأخرى لا تتجاوز بضع عشرة ذرّة . وأقل جزيء يشتمل على ذرّتين مختلفتين أو متماثلتين كحامض الهيدروكلوريك من هيدروجين وكلور

الجماعة الثانية : هي الجماعة التي لها خاصية الجذب والانجذاب المغنطيسي . وهي الحديد والكوبلت والنيكل .

الجماعة الثالثة : هي العناصر ذات النشاط الاشعاعي Radio-activity وأهمها الراديوم ثم الأورانيوم والاكتينوم والثوريوم . وهي أهم العناصر لنا في هذا الكتاب.

وكل جماعة متجاورة العناصر في جدول العناصر ما عدا الجماعة الأولى . فالعنصر الأول منها الهيدروجين بعيد عن اخوته الثلاثة قليلاً .

٢ — تفريغ الذرة

منذ أواخر القرن الماضي ظهر أن الذرة ليست الجوهر الفرد كما كان يعتقد الكيماويون لأن الاختبارات العلمية بإطلاق التيار الكهربائي في وسط من الغاز اللطيف الرقيق ودراسة أشعة الطرف السالب من التيار المسمى « كاثود » أظهرت أن هناك جسيمات أو ذريرات أصغر أو أقل وزناً نحو ١٨٤٠ مرة من وزن ذرة الهيدروجين نفسها وأنها ذات شحنة كهربائية سلبية ، فسماها جونستن ستوني مكتشفها « الكترونا » ونحن نترجمها كهيباً . وبعد التحقيق رأى ترمسن أن هذا الالكترون موجود في كل ذرة من ذرات العناصر الكيميية . والذرات تختلف باختلاف عدد الكتروناتها (كهيباتها) . والقوة التي تحفظ هذه الالكترونات في الذرة بقيت تحت الحدس والتخمين .

وبحسب هذه النظرية الالكترونية الحديثة كل ذرة تؤلف من نواة صغيرة ثقيلة نسبيًا وقطرها نحو جزء من ١٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ من السنتيمتر حجماً يحيط بها فراغ قطره نحو جزء من ١٠٠،٠٠٠،٠٠٠ جزء من السنتيمتر [1] تدور فيه الكترونات حول النواة كما تدور الكواكب حول الشمس . والنواة معبأة بعدد صحيح من الشحنات الكهربائية الايجابية وقيمة كل منها ١٦،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ من الكولب والكولب هو الوحدة الكهربائية (اقرأ عنه في أحد كتب الفيزيقيات أو الكهرباء) وكل الكترون يحمل شحنة كهربائية سلبية (أي مكهرب) بهذه القيمة أيضاً . وعدد الالكترونات الدائرة حول النواة يساوي عدد الشحنات الايجابية التي في النواة . فلذلك تعتبر الذرة كلها متعادلة الشحنة Neutral

وفي سنة ١٩١١ ظهر للورد رذرفورد من تجاربه أن هذه الجسيمات الصغيرة تسير بسرعة فائقة في أية مادة حين تقذف من العنصر ذي النشاط الاشعاعي كالراديوم مثلاً . فأدّى هذا الاكتشاف الى أن الكهربائية الايجابية مركزة في نواة متوسطة في الذرة . وهي ذات حجم صغير جداً بالنسبة الى الحيز الذي تشغله الذرة نفسها . وليس ذلك فقط بل أن معظم

(١) انظر بحثة ٣ من فصل ٣

قصة

البحث

الكاتب الفرنسي « بول بورجيه »

ترجمة الآنسة : لمعت حسني

كانت البرابيت التي فريس « بلدية حارة » تبني تدريجيا على سفح الهضبة على مهل . . تلك الهضبة المدرجة التي تشغل جزءا من حديقة دارها . . . وجلست البرابيت على مقعد حجري فوق ذلك المنحدر ، الذي تكسوه الخضرة الدائمة . هناك كانت تجلس في أيام سعيدة ، فتدخل وتتصرف . . حيث كانت تسرح أنظارها قريرة فيما حولها من البقاع المترامية من بحر وجبال . في ذلك الأفق الجميل الذي استحوذ من بين جهات « هيير » تلك التسمية التي أطلقت عليه جزافا . « كرستبيل » كما أحبت الطبيعة ، غابة صغيرة . . نمت فيها أشجار الصنوبر ، وتطاولت فروعها حتى وصل بعضها الى أعلى الهضبة ، حيث تجلس البرابيت . كانت الأشجار تتمتع بالاخضرار ، وهي تضرب تحت القمة الآتية من البحر ، الذي يتنسم أيضا في زرقة جميلة أخاذة . وبدت الجزر المتجاورة ، بصخورها وبراريها العارية ، وهي كالخط عند الأفق . وتأمت عن شمال البرابيت ، مدينة « حور » وهي تنشر قرونها الثلاثة . . وقد نضدت عند أسفلها ، مدينة هيير بمنازلها البيض الضاحكة . وأضاءت الشمس أواخر مارس الثالثة . . فعبرت البحر والجزر والغابة والضباب . كما عبرت تلك الدور الجميلة ، ذات اللون الوردي البديع ، التي تسكنها البرابيت . وكما عبرت حديقتها . التي كانت تضوع بشجيرات الميموزا المزدهرة الجميلة ، وكذا أزهار السوسن الأزرق ، والقرنفل الأبيض والأحمر التي تزين حافات الرقع الزمردية المنبسطة عن أرض الحديقة في أشكال ورسوم جميلة فتانة ، وهي تضم أشجار الورد ، وشقائق النعمان المريضة . ولا ننسى ذلك الشلال المتدفق من الحديقة . أو غابة الصنوبر الصغيرة ، وقد كثر فيها [illegible] ، وتعبق بعبير منعش ، من عناقيده البيض اللطيفة ، كما يداعب شجيرات الغار ونبات الزعتر البري [illegible] ، ذلك

النسيم الذي مزج عبير أكمام الزهر ، وأنغمة صمغ الأشجار ، وعطر الأزهار البرية ، والكليل الجبل ، والسيسنا الجميلة . وهناك أشكال غريبة من نباتات غير معروفة في ذلك الاقليم .. فالنخل بسعفه العريض ، والنيلوفر بأوراقه الملفوفة الكبيرة ، واللوتس بأزهاره الزرق الجميلة . وبدت هذه المجموعة الاجنبية ، وكأنها في حيرة وخجل ، بين المزروعات الوطنية . وهكذا هيمن الربيع بجماله الناضر وسحره العجيب ، وشمسه الدافئة التي تغمر هذه المفاتن كلها . ثم تعالت في الجوّ رنات الورع والقنوت .. وتلاشى في سحرها كل ذلك الجمال . إنه رنين جرس الكنيسة الصغيرة ، التي تشرف على هذه البقعة بأكملها ، وهي تحمل هذا الاسم المحبوب : « نوتردام دي كرنسو لسيون » .. إنها رنّات تخبّر أن هذا الصباح المشرق الجميل . هو يوم عيد القيامة .. أو هو عيد « البعث » الذي تتحد ألحانه مع لحن الفرح بالحياة .. فكأنما هذه الطبيعة البهيجة ، ممثلة في الشمس والبحر والأزهار .. تعلن مخورة : انتصار الحب الذي بعث الحياة وقهر الموت .

* * *

ولكن وا رحمتاه لهذه المرأة الشابة ! التي تجلس وحيدة على ذلك المقعد الحجري البعيد . إن هذا العيد الذي تحتفل به الحياة بأكملها .. لينقل على قلبها الحزين .. وإن خمار الحزن الذي يرتديه ، وقد أظهر جمالها الأشقر اللطيف ، ليحكي عن حزن حلّ في قلبها . وكأنما نور هذا الصباح المضاحك الجميل ، يؤذي عينيها الزرقاوين الجميلتين ، فقد أصابهما الذبول من طول البكاء . وكان يخيم على جبينها الشاحب تفكير أليم ، كلما تعالت رنّات الجرس المطروبة : من شهور أربعة ، فقدت آيزابيت دي فريسن ، ولدها ـ ولدها الوحيد ـ فالجرح في قلبها لما يندمل بعد . بل إنه اليوم يقطر دماً ، وهي تنظر الى هذا الربيع الجديد ، الذي لم يشاهده « أندريه » ولدها الحبيب . إنها لم يعد في استطاعتها أن تصلّي الى الله ، بعد أن انتزع منها ولدها ! . . كانت تجلس على ذلك المنحدر الدافىء ، وهي تنظر الى ما حولها بنظرات آلية ، خالية من الاهتمام .. وقد قامت أمامها صور من الماضي : أيام سعيدة تزهو بلوق الأمل الجميل !!

ولكن ما أسرع أن تبدلت السعادة شقاء ، والأمل يأساً .. وقد مات ولدها بعد أن أكمل السنة من عمره . فيا لتعوذ القدر !

ثم نشرت ليزابيث إلى البحر طويلاً .. وتذكرت زوجها « لودفيك دي فريمن » وقد أبحر عليه إلى أقاصي الشرق ، من عشرة أشهر مضت .. ألا متى يعود ! فيقول لها تلك الكلمات التي ترد إليها أملها ، وتعينها على الحياة .. ولكن فيمَ الأمل .. وماذا هي صانعة في هذه الحياة ! ... وتنات رنات الجرس تعلن عن القداس ، الذي يمنعها من حضوره دافع قوي من نفسها ! ... لو أن مدام دي فريمن أرسلت بصرها في هذه اللحظة ، الى الطريق الذي ينتهي إلى المعبد ، لرأت عربة يجلس فيها طفلان ، يرتديان مثلها ملابس الحداد الأول في السابعة ، والثانية طفلة في الثامنة .. إنها ألبس ، وجي .. ولدا زوجها من زوجته الأولى . إنها منذ ما تزوجت لودفيك الضابط البحار — ابن عمها — كانت صادقة في اشفاقها من مقبل الطفلين ! ولما كان ضميرها قد ارتضى أن تحل محل أمهما المتوفاة ، فإن الطفلين بلغا هذه السن ، وهما لا يعلمان إلاّ إنها أمهما الحقيقية ! ولما رزقت هي بولدها أندريه ، فقد أصبح ثلاثتهم يتقاسمون قلبها على السواء ... ولكن لمَ هذا الانقلاب ؟ ولمَ أصبحت تكره الطفلين ويعذبها النظر إليهما ؟ ...

لماذا ؟ ... ليس على المرأة الشابة ، إلاّ أن تلتفت إلى تمثالها لتجد الجواب .. هناك في منخفض الوادي .. حيث المدافن ، وحيث رأت بعينيها ، التابوت الصغير الذي يضم جثمان ولدها العزيز ، وهو يهبط إلى الحفرة الرطبة ، من ذلك اليوم وقد مازج دموعها كره شديد أحسّته للطفلين . أما اليوم — صباح عيد القيامة — فقد استبدّ بها الحزن ، ولم يكن في استطاعتها أن تنفر للطفلين مرحهما ، ولا أنهما صغيران ، ولا إنهما يمشيان ويتكلمان بينما ولدها العزيز يتمدد في تربته بلا حراك . إنها عند ما تسمعهما ينادانها : « أماه » تشعر برغبة عاتية ، في أن تصرخ فيهما قائلة : « أسكتا ، إني لست أمكما ! ... » حتى لا تسمع هذه الكلمة من غير ولدها صاحب الحق فيها . يا إلهي إنهما بريئان ! ولكنهما الملاذان الطائران ! ... وكيف ؟ .. يكفي أظهار فرحهما الساذج ، وسرورهما بالحياة .. بل يكفي إنهما مالئان .. بينما ولدها قد العدم من الوجود .

تك الله أيتها الأم المسكينة ! لقد أتت الى هذا المكان المنعزل ، وتركت جبي ، وأنت
يذهبان وحدهما الى الكنيسة ، حتى لا ترى هناك ذلك السرور الشامل . وما عطت أن جرح
قلبها يهتاج في سعادة الطبيعة وجمالها ! وما لمثل جرحها من اندمال !

ما زالت مياه البحر تلتمع في زرقة جميلة .. وما زالت الجزر بصخورها البنفسجية ،
حتى الأفق الخالي من السحب .. وما زالت الجبال كالخط المتموّج في طراوة ولين .. وما زالت
أريج الأزهار يتضوّع به النسيم الرقيق ، وأشجار الصنوبر ، وقد تخلل أغصانها نور
الشمس لطيفاً ، وكأنه غبار الذهب منتثراً فوق الأرض .. والأشجار المجتلبة من بلاد
الشمس ، وهي تضطرب بين كل حين ، كأنما تتذكر مناخاً بعيداً . أما جرس المنبه ، فقد
انقطع رنينه ، وساد السكون . ولكن قلب الأم ، ما زال صاخباً بضوضاء الأسى واليأس !
فما كان يشبهها تأنيب الضمير .. فقد كانت تنكر على الطفلين ، هذا الربيع الذي لا يستروحه
ولها أن تدريه .. إنها كانت تحس في نفسها أحياناً بالخجل ، مما أصبحت تشعر به نحوهما من
الكراهة الجنونية .. أن هذا ليتناقض مع العدالة حقاً . وهل هناك عدالة في هذه الدنيا ؟..
ولكن لا ، ان الطفلين لا يستحقان منها هذا الشعور الظالم ، وهي من استودعهما إياها :
الأب الغائب .. ولكن ، أكانت هي تستحق أن يستلب منها ولدها الوحيد ؟ . . . ان هذه
المرأة التي كانت فيما مضى ، ورعة تقية ، وديعة حكيمة .. قد اختلج الآن في نفسها شيطان
الوحشية والقسوة .. وانتزع منها بغتة ، كلمة قالتها وسط هذا السكون والجمال الخالد ..
كلمة نسفت بها عالياً . ولكن لمن قالتها ؟ للطبيعة ؟ لربها ؟ للربيع ؟ ليس من يدري ! حيث
قالت بصوت واضح غير مضطرب : « آه لو أن واحداً منهما فقط ، يموت كما مات ولدي ! .. »
ونهضت اليزابيت عن مقعدها الحجري في شيء من الارتباك ، ومسحت بيديها دمع عينيها ..
كما لو كانت تريد أن تبعد عن نفسها اغراء التمني المحقوت . . . ثم سلكت طريقها من الغابة ،
وهي تسرع الخطى تحت ظلال الأشجار الكثيفة الأغصان النامية . . كأنما تريد أن تهرب
من الضوء . وإن تهرب كذلك من الطريق الذي لا بد أن يمر منه ولدا زوجها ، في عودتهما
من الكنيسة . كانت تسير من المماشي غير المطروقة ، حيث الأغصان الجافة تشتبك
بثوبها . وحيث كيزان الصنوبر تتدحرج وهي تتدحرج تحت خطواتها ، وحيث لا بد لها

أن تبعد بيديها أغصان الشجيرات الشائكة . . . كانت محطّمة الفؤاد غارقة في بحر من الحزن بعيد القرار . وكانت تمشي وفي نفسها عزم يتوطد : لم تستسلم مع هذين المخلوقين ولم تتحمل كل هذا التعذيب . انها لصخرة سخيفة ، أو هي على الأصح ، مهزلة أليمة ، أن تقوم بدور الأمومة الكاذبة ! لِمَ لا تتخلص من الطفلين ، وترسلهما الى المدرسة الداخلية . . . وتخلو هي بذكرى ولدها الغائب من غير أن تسمع من حولها ذلك المرح وتلك الضحكات ، التي تزيد من ألمها وتبين شعورها ! . . ولكن أيكون ابعاد هذين الطفلين عن حمى الوالد ، فيه تنفيذ لرغبة الراحلة الكريمة . . التي توسلت الى أبيهما ، وهي على فراش الموت ألاّ يتخلى عنهما ، وإن يعطف عليهما عطفاً يعوّض حرمانهما منها . تلك الرغبة التي أقسمت الزابيت ، أن ترعاها وكانت صادقة في قسمها ! ؟ كان ضمير الزابيت يجيب : لا . . . ولكن تنبهت فيها طبيعة زوجة الأب . . وليس من السهل اخمادها بسرعة . لقد أرادت أن تنتقم ، وليست هي مسرفة في الانتقام ! . . إنها على قيد الحياة ، ولكنها تغار من تلك التي ماتت لأن ولديها على قيد الحياة ! وتلك هي الغيرة التي تجعل في بعض الأحيان من أحسن المخلوقات ، جلادين قساة القلوب ليس لهم ضمير . ولكن كيف تبرّر عملها هذا عند ما يعود الأب ؟ . . . لقد كانت زوجة الأب هي الشاهد الوحيد على سلوك الطفلين . فلا يصعب عليها أن تكتب الى زوجها ، أنه لم يعد في استطاعتها السكوت على شراستهما التي يتمادیان فيها ، وانه من الخير لها أن تبعث بهما الى المدرسة الداخلية التي تصلح من حالهما . . أجل سوف تفعل . وفي ذلك ما فيه من تلطيف لما يلاقيه قلبها المسكين ، من وطأة الألم !

* * *

لامرٍ ما تدينجذب الحمار الشريف ، نحو اعتزامات غير جديرة به . ثم يبدأ في تنفيذها على مضض من الضلال . ولو أنه لا يكون راضياً عن عمله هذا : كل الرضا . وقالت الزابيت وقد اعتزمت ما اعتزمته : « قبل ثمانية أيام ، أكون قد تخلصت منهما » . وهنا أحست راحة في نفسها . ثم أحبت ألاّ تفكر في الطفلين ، ولا في سفالة الدور الذي تريد أن تلعبه أمام الأب . وأخذت تفكر في ولدها ، وهي تداعب شعره الذهبي الجميل . واتخذ الوهم شكل

الحقيقة ، حتى أحست الأم برغبة ملحة في أن تهيء المرتع الذي يليق فيه حنانها . فبدأت في جمع بعض الأغصان الطرية ، من نبات الخلنج الأبيض . لتزين بها حجرة ولدها . انها لم تغير شيئاً من نظامها ، وقد باتت محرابها المقدّس ! ... كم من أمراة وكم من زوجات ، وكم من بنات ، وكم وكم ... وقد احتفظن بأشياء تختص بحبيب فقدنه ، فلا يفرطن فيها ويقدسنها تقديساً ! ... ثم تمر الأيام ، ويأتي يوم وقد اختفت من الوجود ، تلك السكاهنة التي تولت هذه الشعائر زمناً ما . وتتغير الأيام ، ويأتي قوم يرون في هذه الزخائر المقدسة أمتعة قديمة يجب بيعها ! ومن ذا الذي يلوم قلباً أميناً لدفاعه هذا الدفاع الساذج ضد الفناء الذي دام حبيبه ! فيجمع هذه الأشياء الثمينة ، ولا يتركها تختفي بمضاء الراحل العزيز شهور أربعة ، والأم لا تنقطع يوماً عن زيارة الحجرة الصغيرة ، التي كان ينام فيها ولدها . تزورها في الصباح ، وكذلك عند المساء . تفتح النوافذ ، وتمسح الأتربة عن الأثاث . ثم تبسط ثياب الطفل التي ما زالت تحتفظ بهيئة جسمه الصغير . انه التمهد الملتهب . انه الورع الحزين ، الذي تستمر فيه وليس من ورائه طائل . وها هي ذاهبة الى تلك الزيارة المقدسة كانت حزمة الخلنج قد تعاظمت حتى لم تعد يداها على لحاظها ، فحملتها بين ذراعيها . وكانت فرحة بهذا الحصاد النافه . ولكنه فرح يمتزج باليأس الأليم . وهبطت الأم المبتئسة ، نحو الدار ، التي تلوح من بين خلال أشجار الصنوبر وسعف النخل . وكان منظر الزاويت في ثياب الحداد وبين يديها حزمة عطرة من زهر الخلنج الأبيض ، مما يثير الحزن في الفؤاد ... وشرعت تمشي نحو بيتها كما يمشي الانسان نحو مقبرة ، يصلي عندها ، ويضع عليها الأزهار ويبكي !

. . كانت الأم قد دخلت من باب الدار الخلفي ، وكانت مستغرقة في التفكير . فلم تر العربة التي أقلت ولدي زوجها الى الكنيسة لحضور القداس . . ثم عادت بهما ، وها هي بالقرب من الباب الآخر . . . واستولت عليها رجفة شديدة ، فإنها وجدت باب حجرة أندريه ، نصف مفتوح . . واذا بها تسمع صوت الطفلين ! ... ماذا يصنعان إذن في هذه الحجرة التي حرّمت دخولها على أي إنسان غيرها ؟ ... رأت نور الشمس وقد تسرّب من بين شقوق النافذة ، ومن فتحة الباب . . واضطربت الأم وضمت حزمة الخلنج ، الى

صدرها الذي تضاعفت فيه ضربات قلبها .. ووقفت تتسمع الى ما يقوله الزائران ... وتأثرت تأثراً لا يمكن لها أن تعرف حقيقته .. أهو جميل ، أم هو محزن يفتت الأكباد .. فقد فهمت أن الطفلين سبقاها الى ذلك الحج العزيز ، الذي سعت هي إليه . ففي هذا الصباح المضيء ، فكر الطفلان في زميل لهوهما — أخيها الصغير — وقد انقطع عنهما من وقت طويل .. فجمعا له الأزهار من الحديقة ، كما جمعتها له هي من الغابة . وأراد الطفلان بما أوحت به اليهما الطفولة الساذجة ، أن يشركا أخاهما الغائب في الاحتفال بهذا العيد .. فأحضرا له هدية عيد القيامة .. واشتريا له من البيض الملوّن المعروض عند باب الكنيسة ! ... ووصل الى مسمعها صوت أليس وهي تقول : « فلنضع هذه الباقة هنا — أتذكر لما كنا نعيد له الفراش الملوّن الجميل ، من فوق الأزهار ؟ » ... ثم سمعت صوت جي وهو يقول : « أتذكرين العام الماضي ! لقد كان أندريه مسروراً بالعيد ! ... كم أريد أن أراه وأقبله ! » فقالت أليس : « هذا من المستحيل ، فقد مات .. ولكنا سوف نلقاه في السماء . » فقال جي : « بل إنه سوف يبعث . لقد بعث المسيح من الأموات .. وكذلك السيد المسيح ... أني في كل يوم ، عند الصباح وعند المساء ، أطلب من الله في صلاتي ، أن يبعث أندريه .. ولا بدّ أن أمي تطلب ذلك أيضاً من الله ... ستكون هذه احدى المعجزات الكبيرة .. وما دامت المعجزات موجودة .. فلمَ لا يمنحنا الله احداها ؟ ... » .

كان ذلك الطفل الساذج ينطق بهذه الكلمات ، وهو مؤمن بأن المعجزة لابدّ أن تتم . وقد تمت فعلاً . فبالقرب منهما يتم بعث ونشور .. ذلك هو بعث العدالة والتقوى .. بعث العطف والحب ، في نفس تلك التي كانت على وشك أن تصبح بالنسبة له ولأخته ، من شر زوجات الآب ... واستولى الخوف على الطفلين ، عندما فتح الباب على مصراعيه ودخلت الأم — أمهما — وقدمت إليهما ما معها من الأزهار وهي تقول : « أعطياه هذه مع أزهاركما ... » ... ثم أخذتهما بين ذراعيها .. وضمتهما الى صدرها بولهٍ وجنون ، كما لو كانت تضم ولدها أندريه ... وبكت مسروراً وتأثراً وهي تقول في صوت خافت : « لقد وجدتكما بعد أن كدت أفقدكما ... وتلاشى الحقد والقسوة والحسد ، في هذه القبلة وقالت : « سأحب الحياة من أجلكما . » ... وكما انتصر سرّ الربيع الأعظم ، وتجلّى على الطبيعة فأحياها .. فكذلك بُعث الحب وتجلّى في قلب من القلوب البشرية ... وانتصر على الكراهية وطردها منه .

لمعت حسني

وفاء

قضيت زماناً لم أطالع خلاله ... سنا كوكب يجلو عماء حياتي
وحاطتني الأقدار بالهم والأسى ... فلم يعنني ماض يشوق وآت
وزهّدني في الحسن حبٌّ يشوبه ... وشككني في خير دنيا ذاتي
فإن حياة المرء تصفو اذا صفت ... قلوب أخلاء له ولذات
وتكدر إن شابت نفوس رفاقه ... وضاق بسوءات لهم وثرات
فلا حسن في الدنيا كحسن شمائل ... وحسن مودّات وحسن صلات
ودرت بعيني في الوجود فلم أجد ... سوى قبح أضغان وقبح سمات
ولكنني ما كدت أطوي جوانحي ... على اليأس حتى هلّ خير هداتي
أعاد لي الايمان بالطهر والهدى ... وردّ ربيع العيش بعد فوات
فما وقعت عيناي من صنعه ومن ... خلائقه إلاّ على حسنات
تجلى به كالفجر ينشر ضوءه ... ويبعث روح الكون بعد ممات
ولاحت تباشير الرجاء وضيئة ... فكانت على كفّا يديه نجاتي

* * *

تشوه حياة المرء إن ضاع عهده ... وتشككه في المكرمات خفوق
وتجمل في عينيه إن صانَ عهده ... ويصّره بالمكرمات أمين
فيا مَن حباني وده المحض إنني ... إليك صنعت عمري به لمدين
أعاد لهذا الكون جدّة حسنه ... فعاودني بعد القنوط يقين
يقينٌ بأن الخير والطهر والهدى ... شمائل لم ينضب لهنّ معين

لكر منير الشرباشي

معجزات الرائد
اللاسلكي

وصف جهاز الرائد اللاسلكي

تطلق نبضة الرائد اللاسلكي في الجو بسرعة الضوء حيث تقطع في الثانية ١٨٦٣٢٦ ميلاً . وتستغرق في تلك الرحلة الثانية متنبهة طفيفة جداً ، هي جزء من مليون جزء من الثانية . ويتسنى تقدير هذه المتنبهة تقديراً مضبوطاً عند بلوغ النبضة اللاسلكية المشار اليها ، هدفها المنشود ، وارتدادها عنه ، وذلك بساعات كهربية غاية في الاتقان والضبط ، تستطيع تبيان الزمن ، كوحدات تعدل جزءاً من المليون من الثانية ويمكن تقدير بعد الهدف وإن كان على عشر باردات من الرائد اللاسلكي .

ولكن توليد هذه النبضة التي تطلق من الرادار ، يحتاج الى شحنات ضخمة جداً من الطاقة الكهربائية ، قد تبلغ مئات الآلوف من وحدات مقياس طاقة التيار الكهربائي « وطّات » ويولّد هذه الطاقة الجسيمة ، جهاز صغير جداً ، قوي ، اسمه (ميجاترون) Megatron وهو ذلك الصمام الكهربي الذي طالما كان مبعث اعتياء المهندسين ، وما برح مدعاة لتضارب آراء الميكانيكيين ، في تعذر انتاج كميات كبيرة منه .

وتنطلق تلك النبضات العظيمة الطاقة ، من الميجاترون ، سائرة في أنابيب مجوفة ، حتى تصل الى أحد موصلاته الجوية الكهربائية اللاسلكية ، وذلك على شكل موجات قليلة جداً .

ويجب أن يكون الجزء اللاقط في جهاز الرائد اللاسلكي ، حساساً جداً ، لكي يستطيع التقاط أضعف النبضات المرتدة اليه ، وان كانت طاقتها لا تزيد على بضعة أجزاء من مليون من الوط .

ويدار كل من الجزءين ، المطلق الموجة ، واللاقط في الرائد اللاسلكي ، من موصل جوي واحد لاسلكي ، ولكن في لحظتين مختلفتين . وإذا احتل ميجاترون

اختلالاً طفيفاً جداً لا يستغرق أكثر من جزء من مليون من الثانية ، تعطل اللاقط .

وفي بعض أجهزة الرائد اللاسلكي ، تُستخدم الموجات القصيرة جداً والطويلة أيضاً مزدوجتين بعضهما ببعض بغية التعاون فيما بينهما ، إذ تلتقط هذه ما تعجز عنه تلك .

وفي وسع المدير الذي يشرف على الموصل الجوي للموجات الكهربائية اللاسلكية ، توجيه الموصل نفسه ، الى أية جهة يشاء تصويب الموجات إليها . وذلك في هنيهة لا تعدو ثلاث ثوانٍ . وبهذه الوسيلة يتمكن الخبير الفني من تصوير صورة كاملة لما يظهر في الأفق .

ورائي أجهزة الرائد اللاسلكي ، هي من النوع الصالح للتألق « فنور البارد » فتشرق حالما تصدمها الموجة الكهربائية الموجهة إليها ، وهي التي يلتقطها ترجيع الرادار . وعلى هذا النمط يُعبَّد مسلك الرادار ، الذي تتمكس عليه صورة الشبح ، طائرة كانت ، أو سفينة ، وذلك على هيئة بقعة تظهر بغتة في ذلك الخط ، ونعني به خريطة الرادار الدالة على مواقع المرئيات .

وفي صور الرادار تتجلى المياه قاتمة ، قاتمة اللون ، لأنها عاكس ضعيف لموجة الجهاز ، على حين تظهر الصور التي تمثل الأراضي الزراعية والأرياف ، زاهية الألوان . أما القطرات أو الأجسام التي تحوي أشياء معدنية . كالطائرات والسفن والمدن ، فتلوح للرائي ، أنصع لوناً من المرئيات بأجمعها .

وتتفاوت أحجام أجهزة الرائد اللاسلكي ، وفقاً لأنواعها . فمنها الأرضي الذي يبلغ ثقله عدة أطنان ، والجوي الذي يُركَّب في أذناب الطائرات بصفة كونه جهازاً محذراً إنّاها من الأخطار ، فتُزوَّد به المقاتلات الليلية . وهذا النوع يبلغ ثقله ١٥ رطلاً انكليزيًّا ، وبه يستدل قائد المقاتلة على دنوّ الطائرة التي تتعقبه . أما الرائد اللاسلكي ، الخاص بالملاحة الجوية فلا يزيد ثقله على ٢٩ رطلاً .

وقد ثبت نجاح أجهزة الرائد اللاسلكي ، وذلك في الحرب البرية . ومنها جهاز يفضح كلّ ما يستتر من الدبابات الحربية ، كما يكشف عن أي جندي كان ، خفيًّا من المشاة المراصفين .

ومن أصناف الرادار ، جهاز صغير أوتوماتيكي ، ينصبه الجنود الفدائيون ، خفية في ميادين القتال ، ويرشد قادة القاذفات الى أهدافهم المنشودة .

وتستعمل حالياً شبكة من أجهزة الرائد اللاسلكي ، في محطات شتى ، للقيام بأصدق التنبؤات الخاصة بتقلبات الجو ، وذلك قبل حدوثها ، في أزمان السلم . ويستطيع الرائد اللاسلكي ، تحديد السحب النائية ، عند تكونها ، واكتشاف الصواعق ، وان كانت على ارتفاع ٢٠٠ ميل . وهذا الى جانب الانتفاع بتلك الأجهزة ، في تعقب البالونات المتيورولوجية ، التي تطلق الى أعلى الطبقات الجوية ، قصد تحديد مجرى تيار الهواء ، كما تستعمل في المباحث البحرية لانقاذ الغرقى . وتزوّد الزوارق البحرية الخاصة بالنجاة من الغرق ، بأجهزة رادار ، تعكس عليها النبضات اللاسلكية عكساً جلياً . وبنبضات الرادار التي توجه من المحطات البرية ، يستطيع « جهاز اللورلن » Loran جعل قائد الطائرة يحدّد خطّي الطول والعرض اللذين يحلق فيهما ، تحديداً مضبوطاً في أي وقت كان .

والرادار هو قرام (الراكونات Racons) أي المنائر اللاسلكية التي ترشد الطائرات الى أوطانها ، إذ تطلق أوتوماتيكياً ، موجة لاسلكية ، حينما تصطدم بها نبضة رادار الطائرة

وفصارى القول ، إن الرادار ، قد صيّر الصمامات الكهربية ، من أعظم الصناعات الأمريكية رواجاً . وقد بلغ ما بيع منها هناك في النصف الأول من سنة ١٩٤٥ ، للقوّات البرية والبحرية وحدها ٢٫٧٠٠٫٠٠٠ دولار .

وكثيرٌ من عناصر الرادار ، تشبه أمثالها في جهازي الراديو والتلفزة ، أو في الجهاز المقوّي لسمع الانسان . وكان التحسين العصري العظيم الذي تمّ في أجهزة الرادار ، سبباً لتغيير كثير من الآراء العلمية القديمة في منافع الصمامات الكهربية .

منافع الرائد اللاسلكي في الحال والاستقبال

سيكون لهذا الجهاز تأثير معتدل حسب ، في المعيشة اليومية في زمن السلم . بيد أنه سيؤثر في الحياة تأثيراً نافعاً عظيماً ولكنه غير مباشر ، إذ أنه جهاز اخترع في بدء أمره ليكون سلاحاً حربياً . ولا بدّ أن البراعة الفنية التي تجلّت لخبراء الحكومتين البريطانية والأمريكية في تحسين الصمامات الكهربية دائماً ، سوف تحدث نتائج باهرة عجيبة في حياتنا اليومية .

وعما قريب ستتمكن البواخر من استخدام هذا الجهاز ، لمنع اصطدام كل منها بالأخرى أو بجبل من جبال الجليد ، كما أسلفنا القول في بحثنا السابق الذي نشر بمقتطف يونيو الماضي) ولوقايتها من الانظام ، ويسوغ التوصل به أيضاً إلى إرشاد قادة السيارات ، الى الجهات التي يقصدونها ، وذلك عند ما تستحيل عليهم الرؤية .

و - تمكنت في انكلترا تجربة في هذا الموضوع ، حيث ثُبّتت جهاز مُرسيل ذو تيّار كهربي سريع التذبذب ، شديد الفولطات ، وذلك في عمود مصباح ، ثم أُطلقت منه الموجات الكهربائية شعر مذو ، كأنها أشعة الضوء . وركّب أيضاً في لوحة أدوات قيادة السيّارة جهاز لاقط ، صغير الحجم جدًّا ، فأتيح لذلك الجهاز ، تحذير قائد السيارة فوراً تحذيراً فوريًّا ، طالما شرعت سيارته تضلّ طريقها المقصود . وما من شك أن الرائد اللاسلكي ، سيصير عظيم النفع ، في تنظيم مسالك الطائرات . ولهذه الغاية ستقام سلسلة من محطاته على طول ممرّها الرئيسية ، حيث تقوم هاتيك المحطات باعطاء الارشادات التي تكفل وصول الطائرات الى أهدافها بدقة ، شأنها في ذلك شأن قطرات السكك الحديدية ، وعندئذٍ تصبح حوادث تقطها من المستحيلات ، ويغدو استدلالها على طريقها عملاً أوتوماتيكيًّا . وغني عن البيان ، أن الجو سيفضّ في القريب العاجل بشتّى الطائرات ، وسيكون في وسع الأجهزة اللاسلكية ، السيطرة عليها ، في أثناء طيرانها ، في مختلف الجهات ، حيث تمنع الأجهزة كلاً منها ، عن اعتراض مجال الأخرى ، صنعاً أوتوماتيكيًّا ، وتجعلها تحيد عن طريقها الخاطئ . وسيتيح الرائد اللاسلكي ، للطيارين والملاحين ، (باصرة) تستطيع رؤية عشرات من الأميال ، نحو الأمام . وستركّب تلك الباصرة في الطائرة أو الباخرة .

وفي هذا الصدد قال الأستاذ السير لورانس براج العالم النابغ لمعهد كافنديش للبحوث العلمية وهو الذي عهد إليه في البحوث الانكليزية العلمية السرية ، في غضون الحرب العالمية الثانية .

« حينما تضع الحرب أوزارها ، وتباح إذاعة نتائج بحوثنا ، وتقبل الدول على التضافر بعضها مع بعض ، في أسلوب الترامل اللاسلكي وتحسينه ، ستجعل هذه (البواصر اللاسلكية) الملاحة البحرية ، والسياحة الجوّية ، آمنتين ، بغير أدنى شكّ »

وقال عالم انكليزي آخر من علماء اللاسلكي ، هو الدكتور روبرت . ل . صميث روز R. L. Smith Rose وذلك في خطاب ألقاه في معهد المهندسين الكهربائيين .

« نحن الآن في اليوم الذي ستتمكن فيه الطائرات الناقلة للبضائع ، من عبور المحيط الاطلنطي ، بلا قائد ، إذ يُناط تطيرها عن الأرض ، بالعمال المختصين بوسمها ثم توجيهها بالأجهزة اللاسلكية كيفما تشاء الى أقصى البلدان .

أجل إن مدى السيطرة اللاسلكية على الطائرات المحلقة في الجو ، ما زالت محدودة جدًّا وهذا يرجع الى استحالة التصرف في الطائرة ، متى بعدت عن مدى الرؤية البشرية . أما في هذه الحالة فيتمكن الخبراء ، من طريق الرائد اللاسلكي ، وبوسائل السيطرة الثانية من الهيمنة

على أية طائرة كانت ، وهي أبعد ما تكون عن أبصارهم ، هيمنة محكمة فتصير كأنها طائرة في مجال أبصارهم .

ولن تقتصر هذه السيطرة اللاسلكية على الطائرات دون سواها ، بل ستعم المنائر أيضاً وسفن المنائر التي تعمل في المحطات القصية . وربما تشمل كذلك أجهزة ري الأراضي الزراعية . وعند ما يحين الزمن لاستغلال المصادر الطبيعية للمحيط الاطلنطي ، سنرى طريقة السيطرة اللاسلكية ، شائعة الاستعمال للتغلب على الأحوال الجوية البغيضة التي تعرقل أعمالنا .

وقد يحدث الخلط بين قاعدتي السيطرة اللاسلكية ، وبين اطلاق الطاقة الكهربائية بالوسيلة اللاسلكية . ومن الموضوعات العلمية المرتقبة ، موضوع تسخير الأثير لنقل الطاقة اللاسلكية بغية تحريك المحركات أو تسخين السوائل . وهذا أمرٌ لا يمكن تحقيقه في المستقبل البعيد .

وكل ما يتاح الآن لجهاز اللاسلكي اللاقط ، التقاطه من الطاقة اللاسلكية ، وان كان بعده عن الجهاز المطلق لها ، لا يزيد على بضعة أميال ، لا يكاد يزعج ذبابة ، فهي اذن أضعف كثيراً مما يلزم لاشعال مصباح كهربائي ، أو تحريك مفاتيح أية طائرة كانت . فالسيطرة اللاسلكية ، على الأرجح ستظل حالها على هذا المنوال حقبة طويلة ، إذ تبقى في حاجة ماسة الى مصدر الطاقة اللازمة لجهاز المطلق لها ليمكنه القيام بأي عمل ميكانيكي يرغب فيه .

وفي الطائرة التي تسيطر عليها الطاقة اللاسلكية ، مثلاً لا يستغنى عن المحرك الذي يدير مراوحها ، بل يجب تزويدها بطاقة كهربائية لتحريك مفاتيحها التي تسيطر على دفتها وروافعها (دفتها الأفقية) وسهام بنزينها . والرائد اللاسلكي في زمن السلم تقع واحد مباشر يعدل ضافعه الكثيرة التي تجلت في غضون الحرب . ولا غرو فانه سيجعل الملاحة البحرية والسياحة الجوية متواصلتين ، غير معرضتين للخطر الذي ينشأ عن التهاون أو الغباء . وذلك من دون اكتراث للاحوال الجوية ليلاً أو نهاراً . فاذا ركبت باخرة ، أو أقلتك طائرة ، مزوَّدة بهذا الجهاز الطريف ، قطعت رحلتك آمناً مطمئناً اطمئناناً يفوق مرتين ما كانت عليه الحال قبل اختراعه .

ولكن الخبراء لم يتيسر لهم حتى الآن الانتفاع بالرائد اللاسلكي في النقل البري ، إذ قالوا أنه لا يجدي أبداً في السيارة أو في العربة التي تلحق بقاطرة سكة الحديد ، لأن كلاً من ذينك النوعين ، يسلك طريقاً للنقل والانتقال ، مرسوماً من قبل . أولهما على الطرق العمومية . وثانيهما على السكك الحديدية . وهذا من شأنه جعل استخدام الرادار عملاً عقيماً فيهما .

« يردف »

هوغس بنري

الحامية الاولى في الشرق

سيمبة صيبعة

طُرِيت صفحة غرّاء لكن ... ستُنشرُ ما ازدهى العرفان نشرا
عليها خطّت الأعمالُ آياً ... ومنها حلّقَ الابداعُ فكرا
نسائمِ النهى كأساً فكأساً ... وعدتِ مطيبةً حملاً وذكرا
فروحُكِ لا تزال تشعُّ نُبلاً ... وقلبُكِ زاخراً كرماً وطُهرا
ضميرُكِ لم يكن إلاّ عفيفاً ... وخلقُكِ طاهرٌ أرجاً ونشرا
وكم أحييتِ من حقٍّ مهيضٍ ... وكنتِ على ضمير البطل نكرا
كفاكِ السبقُ مفخرةً وعجداً ... وحسبُكِ رودُ أفق الصلم فخرا
ستخلدُ بيننا ذكراكِ درساً ... ويبكيكِ الوفا نثراً وشعرا

الحامية مميّة صيبعة أو « بورشا الشرق » كما لقبتها جريدة التلغراف الأميركية . هي لبنانية الأصل من عائلة طرابلسية كريمة مصرية الموطن . بدأت دراسة الحقوق وهي في السابعة عشرة من عمرها وقد صادفت عقبات جمة كادت تثنيها عن عزمها لولا ارادتها الصلبة وحبّ

قصدت باريس للانخراط في جامعة السوربون فاجأها المدير بقوله : ألم يبلغك أن السن القانونية هي الثامنة عشرة فما فوق . فأجابت فوراً أنها للشباب، لا للشابات؛ فقبلها حالاً ولم يتقيد بقانون . تابعت الدراسة الى أن نالت شهادة الحقوق بتفوق باهر، ثم عادت الى مصر. ولما تقدمت الى نقابة المحامين لقيد اسمها بين محامي المحاكم المختلطة ابى النقيب المرافقة لئلا تكون سابقة مستحدثة لفتح باب المحاماة للمرأة . فأجابته بأن هذا ما تسعى إليه . وبعد مساعٍ أجيز لها العمل لأنه ليس في الشرع ما يحظره .

زاولت المحاماة كمهنة فنبغت في مرافعاتها وعينت يوماً من كل اسبوع للنصرة المظلومين فتدفق لهم معونتها فكانوا يتوافدون إليها أفواجاً . ولم تقصر نشاطها على المحاماة بل اهتمت بقضايا الاجتماعية والدينية وساهمت عاملة بعضوية عدد كبير من الجمعيات والأندية واشتهرت بحل المعضلات

كانت تجيد اللغات الثلاث : العربية والفرنسية والانكليزية تخطب وتحاضر فيها . وقد لقيت محاضراتها البليغة القيمة نظر العالم البعيد فدعتها الولايات المتحدة وكنداً حيث استقبلتها الهيئات العلمية بضروب الحفاوة والتكريم، وتناقلت رسومها الجرائد «كنيويورك سن» و «نيويورك المساء» وغيرها ناشرة عنها الفصول الطوال ودعتها «المرأة الجديدة في الشرق القديم» واغتنمت فرصة وجودها في أميركا فتعمقت في دراسة التشريع الأميركي ومنحت لقب رئيسة شرف اتحاد النساء المحاميات في نيويورك، كما إنها عينت عضو شرف في اتحاد محامي الولايات المتحدة . وفي هذه المناسبة قلدتها الرئيسة الوسام الذهبي المرصع إعجاباً بمقدرتها

ألقت هناك نحو ٥٦ محاضرة معظمها عن الشرق وعوائده وتقاليده وبقظته وتقدمه وعرّفت المرأة وما استنام لها من وعي ورقيّ ومقدرة . وكانت المحاضرة الأولى في جامعة نيويورك بعنوان «الحقوق كهنة للمرأة في الشرق»، وفي جامعة كولومبيا «عن مركز مصر الشرعي بالنسبة للبلاد الأوربية» وأفادت من ملاحظاتها اهتمام الأميركيين والكنديين بأحوال الشرق . ومن دلائل هذا الاهتمام كثرة عدد المستمعين والاصغاء التام والاسئلة المستفيضة تعليقاً على المحاضرة. ومن هذه المحاضرات ما كان يستغرق أكثر من ساعة ، وكلفت بمناسبة خاصة لحضور اجتماع في كلية عبرية في نيويورك فشرحت القضية الفلسطينية وساد الدعور بأن فلسطين لا يمكن أن تصلح وطناً قومياً لليهود .

دعيت بعدئذٍ إلى رومانيا وبلغ الإعجاب بعبقريتها مبلغاً عظيماً تناقلت أنباء الجرائد رسومها وأخبارها ونشرت محاضراتها مع التعليقات الضافية بالثناء عليها ، ومنها محاة «رومانيا الحديثة الكبرى» لمحررها الشهير جون فلورسكو وكان وزيراً سابقاً .

فجأتها المنية في ٢٦ نيسان «ابريل» سنة ١٩٤٨ فأطفأت شعلة ذكاء ومنارة علم وخسرتها بها طلعة في حقل الانسانية والوطن .

كريم عناصي

النازح

إهداة الى روح الفقيد اخي هشم

البحر خلف ستار الليل عربدةٌ كأنه بخار الراح نشوانُ
مرت بأعطافه أدواه صبوته فهبَّ ينشد والظلماء آذان
وصفَّقَ الموج من وجدٍ كمغترب لاحت له بعد طول النأي أوطان
ترى الرياح تبث الموجَ صبوتها ألحان شجو وللأمواج ألحان
والنجم في الأفق أحداقٌ ممهدةٌ خلف الغمام ولرف الليل وسنان
تهادت الفلك كالأفنان باكرها صوبٌ من الطلّ في الأصباح هتّان
مضت تشق عباب اليم تائهة كأنها في فياف البيد حيران
تطوي المباين من ليل ومن لجج على وجيٍّ وكلا الغمرين سكران
إذا انطوى علمٌ من قلة نشرت من المخاوف أعلامٌ وترسان
والفلك في قبضة الأنواء ملجمة لها من الدعر والأهباء أرسان
تنفّس الصبح فانحلت مفكّكة من جانب الأفق ظلماء أشطانُ
وانزاح عن قسمات الشرق أغطيةٌ من الظلام وأستار وأردان
تبسّم الكون إلا نازحاً دهشت في بحر الصدر للأشجان نيران
إذا تناوحت الأرواح ناح لها شجواً كشكد أصوته أحزان
يا نازحاً والنوى نارٌ مؤججةٌ هيهات يغنيك بعد الأهل سلوان
ما كان أغناك عن نار صُليت بها لو أن قلبك لم يشعفه بركان

دمشق عرفان صردم بك

جان دي لابريير

Jean de la Bruyère

وكتابه «الأخلاق»

جان دي لابريير أخلاقي فرنسي ، رسم بقلمه عواطف الانسان ، وأبدى مكنونات نفسه ، وأظهر ما تكنّه جوانحه من زفرات ، وما تنطوي عليه خلوته من سرائر ، مشهراً الفاسد منها ، مبيناً المعوجّ ، محبذاً القويم

ولما كانت الأخلاق عنوان الأمة ، اذا حسُنت تقدمت الأمة وسادت ، واذا فسدت اضمحلت الأمة وبادت ، رأينا أن نحلل نفسية هذا الكاتب الأخلاقي ، ونتقد كتابه المسمى « الأخلاق » مبينين مواضع الاجادة منه ، مبدين مواطن النقص فيه ، ناقلين مقتطفات مما حواه ، ليدرك القارىء ، ولو اجمالاً ، فوائد هذا المؤلف الذي لو أتيح له فترجم الى العربية ، متضلع من معاني اللغة ، متشبّع من بيانها ، واقف على دقائقها ، لأدّى للعالم العربي خدمة جليلة ، لا تُقوَّم بمال

حياة لابريير

ولد جان دي لابريير في باريس سنة ١٦٤٥ ، واستعمر الله به سنة ١٦٩٦ دون أن يقع له في حياته حدث يُثير الاهتمام ، فقضى عمره في دعة البرنس دي كوندي الكبير ، ملقناً إياه العلوم والمعارف ، ومقوّماً اعوجاجه ، وهادياً اتوده سبيله ، وكان دائم التردد على البلاط الملكي الفرنسي ، بحكم وظيفته هذه ، فقد أتيح له ان يدرس النظام الاجتماعي ، الذي جعل الناس طبقات ، تسمو العليا فيها على سواها ، فترهقها بالمغارم وتسوميها الذل والهوان ، وتُحمّلها ضروب الجَور والظلم ، ورأى محاباة العلية في توزيع الهناء ، فتخص به من لا يستحقه ، وتحرم منه من أهل له ، وتبدّي له شقاء العامة ، وما

تتحمله في سبيل العيش، من كدح يضنيها، وكدٍّ يفنيها، دون أن تصل الى ما تصد به رمقها، وتدفع به عنها غائلة الجوع، فتفجرت عواطفه، وجاشت مبواه، وآل على نفسه أن يعمل على اصلاح الخلل، فترجم كتاب الأخلاق « لتيوفراست » اليوناني، وأردفه بآخر من نتاج قريحته، وثمار مشاهداته، فجاء كتابه نبراس هدى. لمن يريد أن يهتدي، الى قويم المبادىء، وحميد الخصال.

ما حمله على وضع كتابه

لقد ذهب البعض الى أن لابريير استوحى في تأليف كتابه ما خطه يراع « تيوفراست » اليوناني. لا سيما وانه صدَّره بترجمة كتاب هذا الأخير في الموضوع ذاته.

لكننا نرى أن ما حدا به الى وضع مؤلفه هي حاجات العصر الذي عاش فيه، وذوق أهله، فقد كانت الأمثال والحكم كثيرة التداول على ألسنة القوم، يتسابقون الى استظهارها ويسعون الى الاكثار منها. فشق « للاروشفوكول[1] » ان يفيلهم مشتهاهم، فألف في ذلك كتاباً، تذوقه الجميع بشغف عظيم.

وكان ما يسعونه العصر — أي تصوير العوائد وسرد الأخلاق — كثير الشيوع وفتئذٍ، يتطلبه مقتضى العصر، وتستلزمه ثقافة الزمن، فبرز الى عالم الوجود سنة ١٦٥٩ كتاب « مقتطفات آنسة » فاستمع صيته، وذاع ذكره، وأقبل الناس عليه أيما اقبال.

ومن أبرز مظاهر الذوق في تلك الأيام، السعي الى ادراك الحقيقة الخالصة من كل شائبة، فكانت الحكم والأمثال غاية أملها، وتصوير العوائد، ووصف الأخلاق المطلب الذي يسعون الى ادراكه، بكل ما أوتوا من ذلاقة لسان، وفصاحة بيان، وبلاغة أسلوب، لانهم كانوا يرون في الصور والحكم، جلاء للحقيقة، واظهاراً لماهيتها فتبدو فيهما كما هي

(١) هو فرانسوا دوق دي لاروشفوكول من أعرق الاسر الفرنسية لعب دوراً هاماً في حرب الفروند وأصيب في احدى الوقائع بمتاريس فاري أفقده البصر لروح من الزمن. وقد قضى آخر أيامه في انبلاط الملكي. وبحبة السيدات الشهيرات في عصره. ووضع كتابه المسمى « ماكسيم » أي « الحكم » التي يرجع فيه كل الاعمال والعواطف الى الانانية وحب الذات وال المصلحة الشخصية. وقد ولد في سنة ١٦١٣ وتوفي في سنة ١٦٨٠.

ناصعة بيضاء ، نقية في النقاء ، دون أن يحجبها زخرف ، أو يخفيها طلاء ، ومن غير أن يكون للخيال الروائي والشعري ، أقل دخل في تحويه معالمها ، إذ يبروزها جلية واضحة ، دون ستر ولا عدل ، يقترب الفن القصي ، على قدر الامكان ، من التعبيرات العلمية .

تعمقه الفكري

لكل امرئ مهما عظمت مكانته الأدبية ، حسنات تُذكر فتُشكر ، وسيئات تسرد فتُذم لأن العقل البشري ، مهما أوتي من سعة الادراك ، ليس في وسعه ان يُنتج عملاً كاملاً ، فالنقص صفة ملازمة لطبيعتنا البشرية ، فاذا ما أبدينا مواطن الضعف في لا بريير لا نتوخّى النَيْل من حقه ، ولا غمط فضله ، ولا افقاد الكتاب قيمته ، وإنما نسعى بعملنا هذا ، إلى تحليل نفسية الكاتب ، وتمحيص مقدرته الفنية واظهار ما انطوت عليه جوانحه ، من قوة أو وَهَن :

يتألف كتاب « الأخلاق » من حكم وأمثال ، وصور للاخلاق والعادات ، فقد حذا فيه واضعه حذو « لاروشفوكول » لكنه استخلص الصور والصفات ، وأكسبها شكلها الفني ، وقيمتها الفلسفية ، وبرز في ذلك تبريزاً ، لم يبزه فيه أحد ، لكنه لم يسمُ في الحكم سموّ « لاروشفوكول » بل لبث من الوجهة التفكيرية العامة ، في مستوى أدنى من مستوى غيره من الذين خاضوا موضوعه أو ما يماثله ، فقد فاته « باسكال [1] » بعمق أفكاره وتغلغلها في صميم النفس ، لاظهار بواطنها ، وكشف غوامضها ، لأن « لا بريير » لم يكن ذا قوة تحليلية عظيمة ولم تكن له مقدرة نفسية تمكنه من التسلل الى أعماق القلب البشري ولم يتصف بميزة ذاتية ، يتهيأ له بوساطتها ، الوصول الى الغرائز والطباع لجَلْ ما امتاز به ، صفات ليست بفذة ، لكنها فوق المستوى العمومي ، عصمته من كبير زلل ، لكنها لم تؤهله لعظيم اكتشاف .

ولا يجب أن يؤخذ الانسان بفصله الأخير ، المؤلف من مجموعة آراء وأفكار ممزقة

---

(١) بليز باسكال رياضي وفيلسوف فرنسوي ولد في عام ١٦٢٣ وتوفي في عام ١٦٦٢ قبل أن يتركه به الخاص بالدفاع عن العقائد المسيحية ، فنشرت من الكتاب شذرات تحت عنوان « أفكار » وهو كاتب ومفكر قدير علاوة على اختراعاته واكتشافاته العديدة في الرياضيات .

فلسفية ذهبي مستمدة من آراء أفلاطون وباسكال وديكارت ، ومحوّلة بإلهام كفي الى معانٍ روحية ، لأن هذا الباب مع ما فيه من صحة الرأي ، وصدق الاصابة ، عديم الشخصية ، لا يقوم بنفسه ، ولا يمت الى المؤلف سوى بالتحوير والتبديل . إذ ما هو الا انعكاس لأفكار الغير ، وظل لآرائهم وأفكارهم .

وكان « لا بريير » نظريًّا أي حاد البصر والبصيرة ، تتأثر عيناه فتخط أنامله ما يعلبه عليه نظره ، وكلما قربت عوامل الملاحظة من متناول يده ، وبدت لنظره المجرد ظاهرة جلية كلما سهلت له رؤيتها وتناولها ، لأنها في هذه الحالة ، تبتعد عن الخيال الفكري ، والتصور النفسي ، اللذين يعروانه ، فقد كان يرى فيخط ما يُدركه بصره ، ويتطلع فيسجّل عما يبدو له ، فهو أشبه برسّام ، ينقل بريشته ما تراه عيناه من الأشياء الحسيّة ، لا ما تتصوره مخيّلته من الأمور المعنوية .

وقد كان شغوفاً بالحياة ومظاهرها ، بغيضاً لشواذها وعيوبها ، يجتهد في استخلاص عاداتها العامة الجليّة ، واستظهار أخلاقها البادية ، دون تطلع الى المستتر منها ، ولا الناتج عنها . فله الظواهر دون البواطن ، وما يبدو لا المُضمَر ، ولذا أجاد في تصوير انسان القرن السابع عشر الذي عاش فيه ، وعجز بشكل نسبي عن التعبير عن الانسان في كل زمان ومكان .

فهذا النقص في التعمق الفلسفي ، وطبعُ الفنان الذي تستهويه الأشكال وتستميله المظاهر الحيّة ، قد حوّلا حقائق كبار المؤلفين المدرسيين ، إلى وقائع تصورية ، هي أقرب إلى الخيال ، منها إلى أمور واقعة حقيقية .

الروح السائدة في الكتاب

لقد انتقد لا بريير أخلاق أهل عصره بلوائح الجمل ، وفواصل الكلام ، وأبدى لهم تأذيه من عاداتهم ، التي لم يجد فيها حسنة ، لأنها شُيّدت على أسس النقائص والرذائل ، وأُقيمت على دعم الأنانية وحب الذات . فرتب الشرف تُشرى لتتخذ ذريعة لعدم دفع الضرائب ، والدين مُسرف عن عبراه وحُرّاته احتياطاته إلى حافظ وحفلات ، والأسَر تفككت عرى الصلات بينها ، واتخذ الزواج وسيلة الربح ، فضحيت الفتيات على مذبح

الأغراض الدنية ، والخيلاء الاجتماعية وحُمر طلين في الادبرة دون ارادتهن جرّ المغنم وطلباً لمنفعة ، والعدالة عرجاء سقيمة ، لا ترفع ضَيْماً ، ولا تُبعد ظلماً ، كثيرة الكلفة طويلة المدى ، والانسان بين هذه المساوىء ، يُطلق العنان لميوله ، مجتنياً الحقائق متتبعاً الشُّرّهات ، لائذاً بالسفاسف ، لا يرى الحق إلاّ في جانب فعاله وأعماله ، ولا يأتي الجلائل إلاّ بأنانية تشوّه محاسنها ، وتقلل من قيمتها ، وهو يقيد ارادته « بالموضة » ويقتني أثرها خانعاً ذليلاً في كل ما يأتيه ، سواء أكان في عوائده أم في طرق معيشته .

وصفوة القول أن لابرير كان ثائراً على النظم الاجتماعية ، متمرداً على سير الانسانية ، ناضباً على العادات ، حانقاً على الاخلاق ، لا يرى فيما حوله غير أكاذيب ومفتريات ، وشُرّهات ومنكرات ، فحمل على هذه النقائص ، وأبداها للعيان بشكلها المُزري ، ومنظرها المنفر فاستلها فلاسفة القرن الثامن عشر ، واتخذوها سلاحاً لتقويض دعائم الحكم القديم ، الذي صحح بهذه المُزريات ، فكان لابرير والحالة هذه فيلسوفاً بالمعنى الذي أطلقه فولتير وديدرو على هذه الكلمة .

تبويب الكتاب

لا يسعنا ونحن نُبدي غث الكتاب وسمينه ، إلا أن نظهر أسفنا لما نراه في كتاباتنا العصريين ، من النقص الذي يذهب بمحاسن كتاباتهم ، مهما سمت بلاغة ، وطلت موضوعاً . فجُلهم ان لم يكن كلهم ، لا يحسنون ترتيب أفكارهم ، وتبويب ما يخطونه ، فتبدو تلك أقلامهم مضطربة ، مشوّشة ، بعضها متداخل في بعض ، فيقرأ الانسان في آخرها ، ما سبق أن طالعه في أولها ، ويرى في وسطها ما صرّ به في مستهلها ، فيخرج منها مبلبل الفكر ، لم يعلق في ذهنه شيء منها .

وأما اذا اعتنوا بترتيب ما يكتبون وتبويبه ، فيقرّبوه من ذهن القارىء ، ويرسخوه في ذاكرته ، فيلتهي من القراءة ، وقد ثبت في مخيلته ما طالعه دون أن يجهد نفسه في حفظه ، أو يُتعب ذاته في استظهاره .

وقد وقع لابرير في هذا الخطأ نفسه ، فأهمل ترتيب كتابه وتبويبه ، ولذا بدا نقصه ظاهراً جلياً ، تشوّه محاسنه ، وأفقده جزءاً كبيراً من قيمته ، لأن الكتاب ما هو

إلاّ مذكرات مأخوذة من الحقائق ، فكان المؤلف ينقل ما يراه أمامه من مظاهر المجتمع المتنوعة ، دون أن يعمل الفكر لاستخراج دقائق النفس ، وفحص خوالج الفؤاد ، وعندما أتمّ مؤلفه ، جمع ما دوّنه ، وقسّمه الى فصول كل كل واحد منها بعنوان ، وجعل من مجموعها كتاباً .

ولا ننكر أن ثمة بعض الترتيب ، فهناك مقدمة يبين فيها لا بريير عقيدته الأدبية تليها أبواب الكتاب وكلها وصف وبيان لمختلف درجات الهيئة الاجتماعية ، أولها نفثات الاقلام تليها الكفاءة الشخصية ، ويأتي بعدها العالم أجمع محللاً تحليلاً دقيقاً بعواطفه المبهمة ومشاغله . فباب في النساء ، وآخر في قلب الانسان وما يجيش فيه من العواطف المتباينة ، والأهواء المتضاربة ، ثم الحادثة وما تتطلبه وما تستوجبه ، فطبقات الاجتماع من رجال المال والأعمال الى طبقات الاشراف ، وبعدئذٍ الدولة ووزراء المملكة والملك ، وفصلان في الانسان عموماً والحكم على الظواهر «والموضة» وتحليل بعض العادات والمدن والأدعياء .

ومع ذلك لا نجد في الكتاب تضامناً بين أبوابه ، ولا ارتباطاً بين فصوله ، ولا تسلسلاً في موضوعه ، ناهيك بباب « الحاكم » الكائن في وسطه ، فانه يؤلف نتوءًا بارزاً ، لا يتفق مع مضمونه لمخالفته له مبنىً ومعنىً ، ولا يصح ان يكون وسطاً ترتاح اليه النفس ، وتسكن لديها خواطر القارىء .

ميزات لا بريير

أبدينا مواطن الضعف في لا بريير من الوجهة البسيكولوجية ، وأظهرنا ما مني به من قلة التعمق الفكري وعلينا الآن أن نفيه حقه بإبراز مقدرته ، وما تحلى به من المزايا والصفات التي أهلته لوضع مؤلفه القيّم .

لئن خفي عنه ما يجيش في النفس من عواطف وتزعات لكونها مستترة ، غير ان عينه النفاذة لم تعدم رؤية المظاهر الخارجية المنعكسة عنها ، وهنا تتجلى عبقريته التي لا يدانيه فيها أحد ، فقد توصل بما له من دقة الملاحظة ، وقوة الشعور الحسي الى تصوير الانسان الماثل أمام أعيننا ، بحيث يتجلى لنا منه الانسان الحي ، الذي لا يدركه بصرنا ، ولا تصل

اليه أنظارنا ، فلم تفته في ذلك ملاحظة مهما دقت وصغرت ، وقد أبدى كل شيء ، بطريقة لطيفة ، رشيقة ، تستميل القلوب ، وتستهوي الأفئدة فانتقد حديث المرء ولهجته ، وحركاته وسكناته ، وسيره ومشيته ، وعوائده وطباعه ، وفعاله وأعماله ، حتى ما يعتري وجهه من تقلصات عصبية ، وما تخطه عليه يد الزمن من خطوط وثنايا .

أبدى كل هذا بوسائل حسية أكثر منها معنوية ، حتى انها لترسخ في الذهن ، دون اجهاد فكر ، ولا إكداد عقل ، فلم يجد عندما أراد اظهار السرور . الذي يخالج قلب المحسن ، من البر الذي يأتيه ، سوى تقابل النظرين : نظر فاعل الخير . ونظر مسلمه ، فهما يتخاطبان دون أن يستمدا معونة الألسن ، ومساعدة الشفاه ، فقد قال . لا بويير في ذلك : « ما أشد غبطة المسدي معروفاً ، وأكثر حبوره ، عند ما يقع نظره على نظر المسدى إليه » .

وقد أراد في موضع آخر ، تصوير شناعة الاغتياب ، وابداء فظاعة هذا العمل ، لاسيما وأن أكثر الناس ينهون عما يفعله غيرهم ، ويقعون فيما عابوه على سواهم ، فلم يجد سوى عجوز متبرجة ، واقفة أمام المرآة تزجج حاجبيها ، وتكحل عينيها ، وتحمر خديها ، وتضع على محياها نقط الحسن ، بينما هي تعيب على مثيلاتها ، وعلى غيرهن هذا الصنيع .

فلو عمد لابرويير الى فصاحة التعبير ، وسحر البيان ، وأتى بالمعجز الموجز من الكلم هل كان في وسعه أن يظهر لنا دمامة الاغتياب ، وقبح التعرض لأعمال الغير ، في صورة أكثر حيوية ، وبشكل أشد وضوحاً ، وأعظم تأثيراً من هذا الشكل ؟

نظن بل نؤكد أن كل وصف ، مهما سما وعلا ، يقف حاسراً كليلاً أمام هذا التصوير الحسي ، حتى أننا عند ما قرأناه ، لبثنا برهة نستشعه في نفوسنا ، ونستذوقه في عقلنا ، مرددين مثلنا العربي القائل : « ورب اشارة أبلغ من عبارة »

لقد صور لابرويير أشخاصه ، بألوان تزهو كلما طال عليها القدم ، حتى أن الواحد منهم ليبدو لازاء القارىء ، كأنه حي ، يأتي فعاله ، ويقوم بأعماله وهذه ناحية من نواحي فنونه لأننا نقرأ كتابه ، فيخيل الينا ، أزاء ما نراه من قوة التعبير ، ودقة النظر ، وصدق الملاحظة ، مما يأخذ علينا مشاعرنا ، ويستأثر بأفئدتنا ، ان المؤلف لم ينقل عن أشخاص ما يبدو من مظاهرهم الخارجية ، بل تبطن الى عواطفهم ، فاستخرج دفائنها وساخ في أعماق النفس البشرية فأبدى مكنوناتها .

ونرى اثباتاً لذلك ، أن نأتي بمختارات من الكتاب ، ليلم القارىء بنشأت المؤلف ، كما ألم بصفاته وميزاته ، فقد جاء في باب « القلب » ما ترجمته :

«الغبطة والحسد نقيضان، لكنهما ينازلان خصماً واحداً، وهو أهلية الغير واستحقاقهم الشخصي، أو ما في أيديهم من متاع، فالأولى عاطفة اختيارية شريفة صادرة عن خلوص نية، وصدق طوية، تجعل النفس فرحة خصبة، بما تقدمه لها من مثال تقتدي به، وتنسج على منواله، فتسمو بها في سماء تجعلها أعلى وأرفع من الشيء الذي تتبعه».

«والثاني — أي الحسد — حركة عنيفة، أشبه بانفجار اجباري، بأهلية وكفاءة، بعيدتين عن نفس الحاسد، تذهب به الى نكران الفضيلة التي يراها حتى اذا لم يجد بدّاً من التسليم بها، جرّدها من كل استحقاق، ممكناً منها المديح والثناء الجديرين بها».

وجاء في باب «الأدعياء» ما يأتي:

«وُلد الانسان ميّالاً كذّاباً وهبطت الحقيقة من السماء بهيأتها وكمالها، ظاهرة نقية فلم تتعرّف به لاختلافها عنه مبدأ ومرمى، فهو يروح الى زخرف القول مهما بعد عن الحق، وهي متوثّقة الى الصدق في الجوهر، مهما آذت المجادهة بصحة الواقع، والمرء أناني بالذات، لا يحب الا صنع يديه، فهو ميال الى كل فرية، معجب بكل كذب، إذا حدّث تفسّق، وإذا قص أمعن في المين وإذا سرد واقعة مال أسرف في الزيادة، فحياته الاجتماعية، وصلاته الانسانية، ومعاملاته المدنية كلها رياء ونفاق، ومين واختلاق».

«تجري حادثة بسمعنا وبصرنا، فيقصها أناس عديدون، شاهدوها بأعينهم، فلا يتفق اثنان في الالمام بعرضها، لا بجوهرها، فاذا كان هذا شأننا فيما يجري بين ظهرانينا، فاذا يكون أمرنا، في الحوادث التاريخية التي جرت في السنين الخوالي؟ فهل نثق برواتها؟ وهل نعتقد بصحة كتب التاريخ، التي دوّنها بشرٌ مثلنا، لهم نزعات مثل نزعاتنا، وأنانية مثل أنانيتنا، وميل طبيعي إلى الاغراق والمغالاة، ومسخ الحقائق، وتشويه مجريات الاحوال؟

وقال لابريير في باب «الحاكم والجمهورية»: يجب على السياسي القدير، الذي يعالج أمور الدولة، ان يكون شديد التسلط على عواطفه، كابحاً لما يجيش في نفسه، كتوماً لذات صدره، لا يمم ظاهره، عما يُخفيه باطنه، فيكون والحالة هذه، كالممثل الماهر، الذي لا يتجهّم وجهه إذا حزن، ولا تهش أساريره إذا ربح، لكي لا ترتسم دخائله على صفحة محياه فيتحيّن رِندُه ما يضمره فؤاده، فيستغله لنفسه، ويحرز الغلبة عليه».

«ويجب أن يكون حليماً بطرق المداراة، فيبعد نظر من يساجله مما تهيّج به نفسه، مبدياً منه اكتراث بما يبغيه ويصبو إليه، ومتمثلاً بكتمانه على ما يرغب عنه كأنه لا يروم عنه بديلاً، حتى إذا آنس خصمه منه ميلاً إلى أمر، تمنّع من آنائه إياه، عارضاً عليه ما طالما رنا هو اليه في قلبه، فيفوز بمناه على أهون سبيل».

« وعليه ان يتعزز جيد مائته من الثرثرة ، التي قد تسوق صاحبها ، في أكثر الاحيان الى الزلق فيزل لسانه ، بما يريد أن يغمره جنانه ، فيبوء بخيبة المسعى ، وبالمثل الأماني .

« ولا نريد بذلك أن يكون عيياً ، فيمسك عن الكلام رهبة وخشية ، بل نروم منه اذا ما قام في نفسه ضعفاً أزاء من يناوئه ، ان يحجم عن الاسترسال ، ويلزم السكينة في هيبة ووقار ، متظهراً بسكوته ، مقدرة على مقارعة من يساميه ، فيتيقن هذا بأنه تجاه أخرى ، يزل كلامه ، ولا يلقيه على عواهنه ، فيستشعر منه رهبة ، قد تحمله على التراخي في أموره ، وعدم الاستمساك بما أتى ليناضل عنه »

« أما إذا كان منازله أخرق أرعن ، حمل سكوته على تحمل العي والضعف فتمتلىء جوانحه كبراً ، وتنتفخ أوداجه زهواً ، فيتبسط في حديثه ، دون حذر ، حتى اذا استفرغ ما عنده ، عرف هو ما يريد معرفته ، من قرائن أقواله ، وثنايا حديثه ، فيرد عليه ، بما ينحض حججه ، ويفند براهينه »

وقال في باب « المحادثة » :

« اذا ضمك مجلس . فروح المسامرة تتطلب أن لا تستأثر بالحديث ، مهما أوتيت من ولاقة لسان ، وفصاحة بيان ، بل تترك الوقت لغيرك ليبدوا آراءهم ، ويعبروا عما في نفوسهم ، لأن من يخرج من مجلسك ، منشرح الصدر ، قرير العين بما أبداه من مقدرة كلامية ، وكفاءة خطابية ، يغادرك وفي نفسه منك ، مثل ما به من ذاته ، لأن الانسان لا يحب الاعجاب بغير ، قدر ما يحب أن يعجب الغير به ، ويفضل أن يستذب حديثه ، وتستذاق خفة روحه ، على أن يتلمظ منك ، ويأخذ منك ، ولذا فان اللذة اللطيفة التي تسمو بالنفس هي في جلب السرور للغير ، وادخال الهناء الى قلوبهم دون أن يشعروا بمنة منان ، أو بفضل مسد » .

هذا غيض من فيض مما في هذا الكتاب القيم الذي لو نقل الى العربية لكان جليل الفائدة عظيم النفع .

ويا حبذا لو عنيت به وزارة المعارف ، وكلفت بترجمته كاتباً قديراً سلس العبارة رشيق الأسلوب ، وقررت تدريسه في مدارسها ، فانها بذلك تفيد الطلبة على اختلاف أعمارهم ودرجاتهم افادة تجل عن الحصر .

(حيفا الزيتون) مرجريت نيقولا درسي

الموت حلقة تطوّر

ليس التكلم في انفكاك الروح عن عقال الجسم والتلمس عن ماهيتها وسرها وعلاقتها بقوى الكون العجيب المحجب بالأسرار من الأشياء التي تحيد بالمرء عن جادة الوحدانية والتقرب به تكفير . بل بالعكس أن محاولة الكشف عن أسرار الطبيعة وعن قوانينها المبدعة الخارقة والانبهار في معرفة العلل والمعلولات لما يبعث في المرء الاكبار والاعجاب بقدرة البارىء المنشىء المصور وذلك بالاطلاع على آياته في خلقه ومما يبعث الفتنة في عبقرية الانسان المفكر على أساس متين لا تضعضعه التيارات والأهواء . إذ لا شيء يحز في نفس العاقل من سيره على غير هدى وحياته بعقيدة غير متمكنة من نفسه وضميره في كل فروع الحياة لأنه ان نهج على غير هواه المعقول فإن حياته — لعمري — عندي تصبح كالقبر لا بل أشد ظلمة وضيقاً .

أسرق هذه المقدمة لأني كتبت في متنطف مارس ١٩٤٨ كلمة وصفت فيها الذرّة بأنها معقل (الروح) أو هذه المادة الحساسة الحية التي لم يتقرّر شكلها وماهيتها علميا بل القول فيها مبني على الاستنتاج العلمي العقلي . وقلت ان قاعدة ارتكازها في نوترونات الذرات وهي الجسور التي تصل الذرات لأي عنصر بعضها ببعض . كما قلت بعد الشرح إن هذه الكتلة النوترونية (أو الجسم) يمكن أن تنفصل من الهيكل المادي الكلي محتوية على قبض روحاني لطيف لا يرى . ولا شك أن انفصال جسم من آخر تقرّره نظرية التطور وحقيقته فجرثومة الحياة بدأت في الدم وتكاثفت وتركزت في الماء والتراب وخرجت بصورة حيوان ونبات على الأرض فانشقت الى فصائل ، ومنها ما تطوّر منها الانسان كما يقول أصحاب النظرية . ويقول أصحاب هذه النظرية أن هذه المادة الحيّة مخزونة في بيض الصلب والترائب عند ما تستقر في رحم الأم يتكوّن منها الجنين ، والجنين في اثناء نموه يعيد تاريخ أسلافه الفصيلي من أصل النشأة حتى اليوم . ولا شك أنه اذا ما ولد فتبقى عملية التطور

سارية المفعول حتى نهاية العمر وذلك بواسطة النمو الجسمي والفكري . وعلى هذا أفلا يمكن أن نعتبر الموت وانفصال الهيكل الروحي حلقة من حلقات التطور . إن المثل يوافق على هذا استقرائيًا . أما عمليًا فالحقيقة منطوية في ضمير الغيب ومعلقة على كامل العلم ومصباحه لم يضئ . اذ التجارب أثبتت أن بعض الحيوانات تنفصل عن بعضها مباشرة بدون بيض أو ولادة ولا أدل على ذلك من تراب (ضد) الحية الذي تتركه عند ما تنمو فكأنها انفصلت من التي أصغر منها . وكذلك حشرة المنزال « Dragon Fly » فان أساسها حشرة تسبح في الماء وعلى الأخص مياه البرك والترع ويأتي لها وقت تصعد على نباتات الماء فتخرج من جسمها الذي يصبح — كالقالب — هنا حشرة المنزال التي لا تزيد على الحشرة الأولى (القالب) سوى الأجنحة كي تطير لتأكل الحوامل الصغيرة . وهذه الحقيقة شاهدتها بعيني إذ رأيت أحدها تخلد تنفصل ولم يبق منها غير رأسها في القالب الأصلي أو الحشرة المائية التي تبقى بعدئذ غير قشر يشبه قشر تراب الحية التي تنفصل منه في الوضعية والنتيجة . واذن لما كان الانسان حيوانًا ناطقًا تجري عليه سنن الله في الخلقة « ولن تجد لسنة الله تبديلا » أفلا يمكن أن تنفصل روحه بهيكلها اللطيف ذلك الهيكل الذي خاله جبران خليل جبران انبريًا حين قال :

والموت في الأرض لابن الأرض خاتمة وللأثير فهو البدء والظفر

الى هذا الحد نقف وأما ما سيكون بعدئذ في هذا الهيكل وهل يتطور الى فوق أم لا فسيكون بعدئذ الى مادة حاوية جراثيم الحياة ليعيد دورتها كما تعود قطرة الماء الخارجة من البحر بخاراً إليه . فهذا موكول لعلم المستقبل وآراء المفكرين .

هذا وقبل أن أختم كلمتي هذه أحب أن أؤكد أن مسألة بقاء الشخصية عقيدة قديمة قررها المصريون القدماء من تأثير الأحلام ورؤية أشخاص موتى وهم كانوا يعملون في تفسيرها وظلت تتناقل حتى أقرتها الأديان السماوية . ودليل أدل على ذلك من البعث ويوم القيامة والحساب ولذا فان البحث فيها أو الخوض في موضوعها لن يمس العقيدة ولا يؤول إلى الكفر بل انما يزيد التمسك بالله قوة على قوة .

البصرة — دشير البصر

بين قسطلة

وقف بعض طلبة وطالبات جامعة برشلونة وعميد المدرسة الصناعية أمام هذه المدرسة Esquela industerial بمنطقة الجامعة التي نزلنا بها مدة إقامتنا ببرشلونة يودعوننا بمظاهر الترحاب والابتهال . وقد شفت وجوههم صفات لهم عن حسرة لفراقنا بعد أن قضينا ثلاثة أيام بين ظهرانيهم في زيارات لمعالم المدينة ومحلات شرّفتنا لنا الهيئات الرسمية . وقد أظهر البرشلونيون كل أنواع الكرم والضيافة التي يتسم بها العربي ، ولا غرو فهي منة من سماتهم التي ورثوها عن العرب . وقد أرادوا أن يوفوا بعض ما عليهم فتجلى ذلك في كرمهم لنا .

السابت سيارتنا تجول شوارع الجامعة ويوداً ودياً حتى بابها الكبير والقوم خلفنا يلوّحون بمناديلهم وداعاً لزملائهم في جامعة كجامعتهم واخوان لهم في الدم وشركائهم في المساهمة في بناء الحضارة الأوربية .

وما تركت سيارتنا شوارع برشلونة الواسعة وراءها مساء اليوم الثامن والعشرين من أغسطس سنة ١٩٢٧ حتى أخذت تنهب الأرض نهباً لتقطع مسافة ثلاثمائة ميل لتحل مرقسطة في صباح اليوم التالي . ولكن هيهات أن تواصل السير دون انقطاع . إنها حقاً لمسافة كبيرة ، ولا بدّ من فترة قصيرة تستريح فيها السفر وتزوّد من الزاد أيضاً . وقد أبى كرم الاسبانيين إلاّ أن يعدّوا لنا غبقاً فاخراً في أفخم نزل مدينة Lerid التي تقع في منتصف الطريق بين برشلونة ومرقسطة وهو نزل لا يقل في نظامه وفخامته عن أكبر الفنادق في القاهرة . تناولنا العشاء بعد منتصف الليل وسط ترحاب أهل النزل وأنغام الموسيقى ، ثم نهض بعض الحاضرين يغنون ويرقصون في دوائر رقصاتهم التقليدية بملابسهم الطويلة . وبعد ذلك استأنفنا السير في هدوء الليل وأغاريد السحر حتى

دخلنا سراجوستا ونزلنا بفندقها Hotel Universo حوالي الساعة الرابعة صباحاً .

ويحسن بالقارىء أن يلم بعض الشيء بأهمية هذه المدينة وخاصة في العهد الاسلامي إذ كان لاستيلاء العرب عليها المفتاح نحو تقدمهم الى سهول فرنسا الجنوبية وذلك لموقع سراجوستا الممتاز . فهي تقع على الضفة الشرقية لنهر الإبرو كما أنها تتوسط المقاطعات الشمالية الشرقية من أسبانيا وعلى صلة مباشرة بالسكك الحديدية لجميع الجهات التي تحيط بها فتتصل بتدريد — عاصمة اسبانيا — في الجنوب الغربي والتي تبعد عنها بنحو ٢١٢ ميلاً ، كما تتصل برشلونة عن طريق نهر الإبرو ومنها الى بورت بو على الحدود الاسبانية وسيربير المقابلة لها على الحدود الفرنسية . كما أنها تتصل بمنطقة البسك في الشمال الغربي من اسبانيا .

ولهذه الأسباب فضلاً عن ميزتها الحربية والتجارية كانت سراجوستا عاصمة لذلك الجزء الشمالي الشرقي من اسبانيا . وقد اختار أغسطس قيصر موقعها الممتاز وبنى فيها تلك المدينة عام ٢٥ ق . م وإليه نسب اسمها سراجوزا أو سراجوستا أو سرقسطة حسب قول العرب . ثم استولى عليها الرومان والقوطيون حتى حكم العرب ٧١٢ .

وفي هذا العام جهز موسى بن نصير جيشاً في عشرة آلاف من العرب وثمانية آلاف من البربر وعبر البحر سنة ٧١٢ . وبدأ في زحفه بالاستيلاء على جنوب اسبانيا ووسطها حيث التقى بطارق فأنبه وبالغ في اهانته وزجه معنفاً الى ظلام السجن بتهمة الخروج والعصيان . ولكن ما لبث أن فنا عنه ورده إلى منصبه ووضع الاثنان خطة لاكتساح ما بقي من اسبانيا ، ثم زحفا نحو الشمال الشرقي — معقل الثوار الثائرين أمام الفتح الاسلامي — فاخترقا ولاية أراجون وافتتح سرقسطة بعد جهد كبير ثم أخذت تتهاوى بعدها المدن الشمالية الواحدة تلو الأخرى كطراكونه وبرشلونه كما مهدت سرقسطة السبيل لموسى بن نصير أن يسير شمالاً فاخترق جبال البرانس فاستولى على بعض المدن الفرنسية كناربون ومنها سار الى جنوب وادي الرون حتى مدينة ليون .

ويقال إنه أراد أن يواصل تقدمه فتح جنوب أوربا ليصل اسبانيا بتركيا ومنها الى دمشق مقر الخلافة الأموية في الشام وجعل البحر الأبيض بحيرة اسلامية . إلا أن الخلاف دب بين الخلافة وقواد العرب حول هذه المشاورة . واستغلت الأمم المسيحية هذا

الانقسام فتحدث لايقاف تقدم العرب ان لم يستطيعوا ردهم على أعقابهم الى ما وراء جبال البرانس في اسبانيا ثانياً .

وقد تمّ لهم ما أرادوا إذ انتصروا على العرب في موقعة تور في سهول نهر اللوار عند ما انقسم العرب على انفسهم في التنافس للحصول على الغنائم .

وفي داخل اسبانيا نفسها انقسم العرب ثانياً وظهر بينهم بعض الثوار الذين التجأوا الى المناطق الجبلية الشمالية لجمع فلولهم ، وأدّى التنافس بينهم الى استعانة الثوار بملوك الفرنجة . وقد حدث أن دعى سليمان بن يقظان الكلبي أحد الخارجين على عبد الرحمن عامل برشلونة شارلمان ملك الفرنجة وامبراطور الدولة الرومانية المقدسة فيما بعد . فسرعان ما لبى شارلمان الدعوة الاسلامية ليستأصل شأفة الاسلام . لكن الثوار اختلفوا فاشتغلوا عن معاونة الفرنج بقتال بعضهم بعضاً . وزحف شارلمان على سرقسطة وحاصرها . وقد انضمّ حاكمها حسين ابن يحيى الانصاري الى سليمان بن يقظان كما أشرف عبد الرحمن الاموي بجيوشه على سرقسطة وردّ شارلمان بخسارة فادحة وارتاب في أمر الثائر فقبض عليه . وعاد شارلمان بفلوله ، لكنه حين اخترق جبال البرانس هاجم مؤخرة جيشه ابنا سليمان بن يقظان فرقة مؤخرة الفرنج شرّ ممزّق وبذلك هلكت زهرة الجيش الفرنجي وتعرضت مراجوستا بعد ذلك الى عدة انقلابات قوية ، فهاجمها بعض الحونة من العرب كما تعرضت لهجمات الفرنجة لكنها صدّت جميعها وذلك بفضل بعض حكامها الأقوياء وعاصمة في دولة بني هود في القرن الحادي عشر . وظلت مراجوزا (سرقسطة) تحت الحكم الاسلامي بين عامي ٧١٢ — ١١١٨م حين حاصرها الفونسو نحو تسعة شهور فخضعت بعدها للمسيحية .

لم يخل عهد للحكم الاسلامي من فترات هدوء تفرّغ فيها الحكام الى الاهتمام بالشؤون الداخلية في هذه المدينة . فقد شيدوا مسجداً كبيراً شأنهم في ذلك شأن جميع الحكام المسلمين في البلاد التي يفتحونها أو يؤسسونها . وكان أول ما يهتمون به البحث عن مكان لاقامة مسجد به كما فعل سيدنا علي كرّم الله وجهه حينما فتح الكوفة فأنشأ بها مسجداً كما حوّل معاوية كنيسة دمشق الى المسجد الاموي الكبير الحالي ، وعند ما دخل عمرو بن العاص مصر أنشأ جامعه المعروف باسمه بمدينة الفسطاط ، وكذلك سار على هذا المنوال

الولاة المستقلون في شمال أفريقيا في أسبانيا فحوّل عبد الرحمن الأموي الأول نصف كنيسة قرطبة الى مسجد قرطبة الذي اتسع فيما بعد واشتهر في العالم الاسلامي.

وقد حرصت الحكومة الاسبانية على أن تسهل للبعثة المصرية زيارة الآثار الاسلامية وخاصة المساجد أينما وجدت، ثم الكاتدرائيات المسيحية بعد ذلك وغيرها من المعالم المهمة كالمتاحف والجامعات.

وفي مراجوزا زرنا كنيسة Jose Antonio Prima de Rivero وهي تشرف على ميدان فسيح يرتفع برجها العالي الى عنان السماء، وقد دهشنا عند ما رأينا على جدرانها الخارجية بعض تربيعات القيشاني الاسلامية وعليها بعض كلمات كوفية. انها كانت مسجد بني هود الكبير غدر به الزمن وحوّل الى هذه الكنيسة في القرن الثامن عشر. كما اتخذ جانب منها لغرض أكبر مجموعة من المعاهد الاسباني الذي يرجع الى القرن الرابع عشر ويضم على معظمها قصص تاريخية

* * *

وفي عصر هذا اليوم حزمنا أمتعتنا واتخذنا أماكننا في سيارتنا وغادرنا نزلنا الذي نزلنا به قاصدين مدريد. وما خرجنا الى ظاهر المدينة حتى وقفت السيارة ثانياً أمام بناء كبير يحتفق عليه العلم الاسباني ويقف ببابه اثنان من الجنود بأسلحتهم المدججة. وتساءلنا لما وقفنا في هذا المكان، وما هذا البناء؟ فاذا الجواب يأتي سريعاً انه قصر الجعفرية اتخذته بلدية مراجوزا مقراً لحامية المدينة.

أما هذا البناء فهو قصر جعفر المقتدر الذي بناه بين عام (١٠٤٩ — ١٠٨١) من الطوب الأحمر في ظاهر المدينة ليكون مقراً لبني هود في مرقسطة — كما كانت تسمى حينئذ — عاصمة المقاطعات الشمالية. ولذلك عرف هذا القصر بالجعفرية نسبة إليه. وهو الأثر الاسلامي الفريد في نوعه الذي بقي في مرقسطة الى الآن. ويعد من أقدم الآثار الاسلامية في شمال أسبانيا الموجودة حالياً. كما يعتبر مثال للزخارف العربية في القرن الحادي عشر الميلادي

ولكي تكون على بينة من الأمر هب أنك معنا لنجتاز باب القصر الكبير بين حراسه

الوطنيين يؤدون تحيتهم التقليدية لزائرين ، أبناء أصحاب هذا المجد الخالد . ها نحن الآن في ردهة طويلة يزيدها طولاً حنية كبيرة تتصدر الردهة . وقد زخرفت الجدران بعقود متقاطعة ومجدولة شكل (١) أو على شكل حدوة الفرس على أعمدة بارزة غير مزخرفة كما لم تزخرف أسفل الجدران . ها هي العقود على أرضية نباتية (أرابيسك) وأغصان نباتية وأوراق نخيلية مسننة واضحة تبدو أحياناً ملونة وأحياناً أخرى ملتوية على نفسها في أوضاع منتظمة متناسقة ، وغالباً يظهر بينها براعم زهور أو ورديات أو كوز الصنوبر لا تقل في ابداعها عن زخارف مسجد قرطبة . ومما يسترعي النظر أن هذه الزخارف الجصية قد جددت معظمها . كما نقلت بعض هذه العقود الجصية الى متحف مدريد الأثري كما هو مبين بالشكل رقم (٢)

والى جانب هذه الردهة باب صغير يرتقى إليه بدرجتين يفتح الى مسجد القصر الخاص وهو بناء مربع عليه قبة جميلة لا تزال محتفظة بكثير من رونقها ، ويبدو أن الاسبانيين قد حافظوا على هذا المسجد الصغير كأثر هام للذكرى والتاريخ وحسن رعايتهم للآثار الاسلامية ، ولم يفعلوا به كما فعلوا بأبهاء القصر الأخرى التي ملأوها بالأسلحة والذخيرة .

صعدنا الى الطابق الثاني واجتزنا عدة ردهات بين البنادق المختلفة الأنواع ومدافع برن وتومي وغيرها . وقد مررنا بمخزن الى قاعة العرش وهي قاعة اسلامية بحتة ، ونسم على بابها شعار دولة بني هود . أما داخل القاعة فيتكون سقفها من حشوات رتبت ترتيباً بديعاً على طراز المدجنين ، يحيط بجدرانها طنف جبل ، وقد اتخذها فرديناند وايزابلا ملكا أسبانيا مقراً لهما في القرن الثامن عشر . وبعد أن تفقدنا باقي أجزاء القصر خرجنا من بابه الكبير الذي قيل إنه لا يزال الى الآن بمتحف مدريد الأثري وهو نوع من النحاس الجميل . ثم عدنا الى أماكننا بالسيارة وسرنا على بركة الله قاصدين مدريد تودعنا تحيات قائد الحرس وجنوده لهذه الزيارة الكريمة .

محمد رجب البيلي
دبلوم في الآثار الاسلامية

فبمثل هذه الاتجاهات المتحررة، والأساليب الطريفة يتقدم الشعر المعاصر، ونذكر بخاصة الشعر المسرحي ، وهو ناحية من نواحي الأدب البالغة الأهمية ، والتي لم يقتحمها شعراء إلا متأخراً ، وإذا كان قد ظهر لشوقي وأبو شادي وعزيز أباظه وسعيد عقل وغيرهم شعر تمثيلي ، إلا أن صياغته الغالبة هي الصياغة التقليدية ، التي لم تتحرر من عبودية القافية ، وإذا كان هؤلاء الروّاد قد سلكوا الطريق السابقة للشعر المسرحي ، فمن واجب أدباء شباب اليوم أن يهتموا اهتماماً فائقاً بهذه الناحية ، متحررين من الصياغة الكلاسيكية الرتيبة التي تتعب الأذن وترهق الأعصاب كما يقول « جيبير » [1] . وإذا أبى أدباؤنا إلا التقيد برواسب العقل الباطن من عشق الصياغة القديمة ، والانبهار في ميدانها ، فاقرأ لي تقدمنا الشعري السلام .

﴿ المذهب الابتداعي ﴾

والى جانب المذهب الاتباعي سالف الذكر ، وجد المذهب الابتداعي في أوربا ، وسايره طائفة من شعراء الشرق ، ومن خصائص هذا المذهب ، الفرار الى التجربة الباطنية ، والاهتمام بالمرائي الجمالية ، والميل الى الخلق والاصالة ، مع التحرر الأسلوبي ، والتوجه الانفعالي .

وقد اتسمت أعمال كثير من أدبائنا بهذا اللون الابتداعي ، وطبعت بطابع الذاتية والفردية والتأملية والروح الغيبي والصوفي والميل الى الرضا بالبؤس والواقع الوري ، والقدرية وعدم التعقل والكآبة ونداء الموت ، بل الفزع الى الانتحار في بعض الأحايين .

وقد تجلت مظاهر هذا المذهب الابتداعي ، كما يقول دايشي Daiches في مظهرين بارزين ، الرجوع الى الماضي وذكرياته ، واتخاذه مثلاً أعلى ، والفرار الى الطبيعة والانصال بها بل الاندماج فيها [2] وهذان المظهران ثمرة من ثمرات فساد المدن ، هذا الفساد الذي جعل الأدباء الحساسين ، يذهبون الى الماضي حيناً والى الريف والطبيعة حيناً آخر ، أو يتناولون الموضوعات النائية التي لا صلة لها بالحياة .

---

(1) Les problemes contemporaine d'Esthetique Par. J. M. Guyau p. 28.
(2) Life & Society — By Daiches, p 170

وهذه المظاهر والسمات ظهرت في أدب الابتداعيين في الشرق، فترشح لنا شعر ابتداعي ناضج، وشعر فج، ولم يخل شعر الاتباعيين من السمات الابتداعية كما نجد ذلك في شعر البارودي أو شوقي أو حافظ لأن الابتداعية لا تقتصر على عصر دون عصر كما يقول «لاسال أبر كرومبي» في كتابه الابتداعية [1] ولا يوجد شاعر عظيم لم تدن الابتداعية بجناحيها على صنيعه الشعري.

وقد حفل الشرق في ربع القرن الأخير بعدد وفير من شعراء الابتداعية، في مصر ولبنان وسوريا والعراق والمهجر، وتجلت سماتها في قصائدهم، ولا يسعنا في هذا المجال، إلا تسجيل بعض النماذج لهذه السمات، وأظهرها الانطواء على النفس، والهرب من الواقع والطيران في دنيا الخيال وتملي ذكريات الماضي البعيدة والاندماج في مرائي الطبيعة أو التهويم فيما وراء الطبيعة.

ومن آيات هذا الهرب ملحمة «شاطئ الاعراف» للشاعر المصري محمد عبد المعطي الهمشري وملحمة «على بساط الريح» لفوزي المعلوف وهما يمثلان الابتداعية في هاتين الملحمتين أجلى تمثيل، ونقتطف الفقرة التالية من ملحمة «على بساط الريح» التي تشهد بفرار الشاعر من آلام الحياة وطيرانه في دنيا الأثير حيث يلتقي بالطير التي تتجمع لمقاتلته فيخاطبها بقوله:

لا تخافي يا طير ما أنا إلا شاعر تطرب الطيور لدهره
زارك اليوم ينشد الراحة في هذا المكون وسحره
فرّ عن أرضه فرارك منها من أذى أهلها وتنكير دهره

* * *

ومن آيات الحنين الى الماضي وذكرياته، نذكر قصيدة للشاعر المهجري «رشيد أيوب» [2] يقول فيها:

لتيتك لما نعبنا الحيام ألا تذكرين زمان اللقاء

---

(1) Romanticism — By Lascelles Abercrombie. Second Edition p. 22

(٢) نشرت بمجلة الاعلى المهجرية - سبتمبر ١٩٣٦

لنمثل هذه الاتجاهات المتحررة والأساليب الطريفة يتقدم الشعر المعاصر، ونذكر بخاصة الشعر المسرحي، وهو ناحية من نواحي الأدب البالغة الأهمية، والتي لم ينتبه لها الشعراء إلاّ متأخراً، وإذا كان قد ظهر لشوقي وأبو شادي وعزيز أباظه وسعيد عقل وغيرهم شعر تمثيلي، الاّ أن صياغته الغالبة هي الصياغة التقليدية، التي لم تتحرر من عبودية القافية، وإذا كان هؤلاء الروّاد قد قصروا الطريق السابلة للشعر المسرحي، فمن واجب أدباء شباب اليوم أن يهتموا اهتماماً فائقاً بهذه الناحية، متحررين من الصياغة الكلاسيكية الرتيبة التي تتعب الأذن وترهق الأعصاب كما يقول « جيبر » [1]. وإذا أبى أدباؤنا إلاّ التقيد برواسب العقل الباطن من شتى الصياغة القديمة، والانسياق في ميدانها، فاقرأ على تقدمنا الشعري السلام.

﴿ المذهب الابتداعي ﴾

وإلى جانب المذهب الاتباعي سالف الذكر، وجد المذهب الابتداعي في أوربا، وسايره طائفة من شعراء الشرق، ومن خصائص هذا المذهب، الفواد الى التجربة الباطنية، والاهتمام بالمرائي الجمالية، والميل الى الخلق والاصالة، مع التحرر الأسلوبي، والتوجه الانفعالي.

وقد اتسمت أعمال كثير من أدبائنا بهذا اللون الابتداعي، وطبعت بطابع الذاتية والفردية والتأملية والروح الغيبي والصوفي والميل الى الرضا بالبؤس والواقع المرير، والقدرية وعدم التعقل والكآبة ونداء الموت، بل النزوع الى الانتحار في بعض الأحايين.

وقد تجلت مظاهر هذا المذهب الابتداعي، كما يقول دايتشي Daiches في مظهرين بارزين، الرجوع الى الماضي وذكرياته، واتخاذه مثلاً أعلى، واللواذ الى الطبيعة والاتصال بها بل الاندماج فيها [2] وهذان المظهران ثمرة من ثمرات فساد المدن، هذا الفساد الذي جعل الأدباء الحساسين، يذهبون الى الماضي حيناً والى الريف والطبيعة حيناً آخر، أو يتناولون الموضوعات الثانية التي لا صلة لها بالحياة.

---

(1) Les problemes contemporaine d'Esthetique Par. j. M. Guyau p. 23.
(2) Litt. & Society — By Daiches. p 170

وهذه المظاهر والسمات ظهرت في أدب الابتداعيين في الشرق، فترشح لنا شعر ابتداعي فاضح، وشعر فج، ولم يخل شعر الاتباعيين من الصفات الابتداعية كما نجد ذلك في شعر البارودي أو شوقي أو حافظ لأن الابتداعية لا تقتصر على عصر دون عصر كما يقول «لاسال أبر كرومبي» في كتابه الابتداعية [1] ولا يوجد شاعر عظيم لم تدف الابتداعية بجناحيها على صنيعه الشعري.

وقد دخل الشرق في ربع القرن الأخير بعدد وفير من شعراء الابتداعية، في مصر ولبنان وسوريا والعراق والمهجر، وتجلت صفاتها في قصائدهم، ولا يسعنا في هذا المجال، إلا تسجيل بعض النماذج لهذه السمات، وأظهرها الانطواء على النفس، والهرب من الواقع والطيران في دنيا الخيال وتمثل ذكريات الماضي البعيدة والاندماج في مرأى الطبيعة أو التهويم فيما وراء الطبيعة.

ومن آيات هذا الهرب ملحمة «شاطىء الاعراف» للشاعر المصري محمد عبد المعطي الهمشري وملحمة «على بساط الريح» لفوزي المعلوف وهما مثلان الابتداعية في هاتين الملحمتين أجلى تمثيل، ونقطف الفقرة التالية من ملحمة «على بساط الريح» التي تشهد بفرار الشاعر من آلام الحياة وطيرانه في دنيا الأثير حيث يلتقي بالطير التي تتجمع لمقاتلته فيخاطبها بقوله:

لا تخافي يا طير ما أنا إلا شاعر تطرب الطيور لشعره
زارك اليوم ينشد الراحة في هذا السكون وسحره
فرّ عن أرضه فرارك عنها من أذى أهلها وتنكير دهره

* * *

ومن آيات الحنين الى الماضي وذكرياته، نذكر قصيدة الشاعر المهجري «رشيد أيوب» [2] يقول فيها:

لثمتك لما نصبنا الخيام ألا تذكرين زمان اللقاء

---

(1) Romanticism — By Lasceiles Abercrombie. Second Edition p. 22

(٢) نشرت بمجلة الاندلس الجديدة ـ سبتمبر ١٩٣٦

فأسكرت قلبي بخمر الغرام وخلّفت نفسي بوادي الشقاء

ثم غبت

ألا تذكرين بشط الغدير على صخرة قد جلسنا هناك

ولما انحنيت بصوت الخرير لمحتك في الماء مثل الملاك

حين لمحت

ولما مشينا لنجني الورود بظل فراشاتها الحُوَّم

نَسيتُ فودَّعت هذا الوجود وقلت لأغصانها خيِّمي

ثم نمت !

وأما شعر الطبيعة فوفيرٌ جدًّا في الأدب الشرقي ، والشعر الابتداعي منه هو الشعر الخيالي المجنَّح ، أما الشعر الحقيقي في الطبيعة فلا يُعدُّ إبتداعيًّا [1] ، ومن هذا الشعر الابتداعي في الطبيعة نسجل هذه الأبيات للشاعر المهجري « شكر الله الجر » من قصيدته « هيكل الطبيعة » وهي منشورة في ديوانه « زنابق الفجر » : [2]

وتلي يا طير ألحانك في هذي الصفوح
هو ذا الليل وقد أهرم يمشي كالكسيح
هو ذا الفجر ، وها ريّاه في الوادي تفوح
يا له طفلاً على أرجوحة الأفق يلوح
هزّه من كوّة الراهب فاقوسٌ يصيح
ربَّ ناقوس يجوف الدير أشواقٌ تنوح !

وفضلاً عما تقدم ، فإن الشعر الشرقي يزخر بنماذج ابتداعية تمثل الفرار من الحياة ، والطيران إلى دنيا الوهم وما وراء الطبيعة ، ونمثل لهذه الظاهرة ببعض ما جاء في قصيدة « إلى الشاطئ المجهول » لسيد قطب ، من ديوانه الموسوم باسم القصيدة ، وهو فيها يطير إلى عالم الوهم ، حيث يسبح على ضبابة شاردة وفي صياغة كلاسيكية يقول :

---

(1) Romanticism By Lascelles Abercrombie p. 59.

(٢) من مجلة « المعرض » العدد ٥ ، يوليو ١٩٢٧

إلى الشاطىء المجهول والعالم الذي ... حننت لمرآه الى الضفة الاخرى
إلى حيث لا تدري إلى حيث لا ترى ... معالمُ للازمان والكون تُستقرا !
إلى حيث « لا حيث » تميز حدوده ... إلى حيث تنسى الناس والكون والدهرا
أهوّم في هذا الخلود وارتقي ... وأسلك في مرآه كالطيف إذ أسري
هنا عالم الأرواح فلتخلع الحجا ... فنغتم فيه الخلد والحب والسحرا !

والملحوظ إن جل شعراء المذهب الابتدائي، من ذوي النزعة الانطوائية، وتجاربهم الشعرية جُلُّها ذاتية، وهذا فارق ما بينهم وبين الاتباعيين، ومن آيات هذه الانطوائية، ما قرأناه للشاب المصري « محمد منير مرزي » وهو شاعر رومانتي رصرف وقد عاش عيشة رومانتية، ومات ميتة رومانتية، إذ جمع نفسه وسجل له قصيدته المتحررة « قاب الاحلام » :

« في غفلة من قلبي — حمت الحطام المتناثر في حناياه — ورحت به بعيداً عن رنين الضحكات، وفي غفلة من الليل — لم تمتد إليها الأفنيات المرحة — جئت أحفر مثوى لأحلامي — ثم أجلت عليها التراب — بللته بدموعي — وعدت مغمضاً عيني — مخفيًا عنها قبر أحلامي — وأسرعت نحو النهار، حاسباً إني سأخطر في الدنيا بلا أحلام »

وتبدو هذه الذاتية في أكثر خواطر الشعراء الابتدائيين وفي انتحالاتهم، وفي خواطرهم نستمع إلى هاتين المقطوعتين للشاعر البناني « أمين نخلة » وهو يحدثنا عن « النم » و « الشفة » حديثاً عجباً يقول في مقطوعته « نم » :

أنا لا أصدق أن هذا ... الأحمر المشقوق نم !
بل وردة مبتلة ... حمراء من لثم ودم
أكمامها شفتان ... خذ روحي وعلقني بنم
إن الشفاه أجبها ... كم مرة قالت نعم !

وفي مقطوعة « الشفة » يقول :

في الأشرفية يوم جئت وجئتها ... تنمي على شفتيك قد جمعتها
ذقت الثمار ونكهة إن لم تكن ... هي نكهة الضب الشهيّ فأحتها

يافوتة حمراء غاصت في فمي ... وشقيقة النعمان ، قد نسوّتها
ملساء مرّ بها اللسان وما درى ... لولا تتبع طعمها لأطعمتها
لولا نعومة ما بها وحنوّ ما ... بي في الهوى للقمتها ولكتمتها !

* * *

ومن مظاهر هذه الذاتية أيضاً ما فاض به الشعر الشرقي عامة ، من الآنات والحسرات ، والرغبات الجنسية المكبوتة والشكوى من الزمان واليأس من الحياة بل مناداة الموت تخلصاً من الحياة ، وأكثر ما نجد هذه المظاهر في نفوسة الشعراء ، حتى لتودي ببعضهم الى الخيبة أو الى نوع من المصاب أو الانتحار ، فديوان « خليل شيبوب » الأول كثير الآنات والتأوّهات ، وديوان « ألحان الألم » لفايد العمروسي ، ديوان بكّاء ، وديوان « أغاريد » لمحمد فهمي لا يخلو من الحسرات والرغبات الجموح ، وكذلك « الزورق الحالم » لمختار الوكيل وديوان « صالح جودت » مليء بالنهدات والآوهات . وديوان « الألحان الضائعة » لحسن كامل الصيرفي كثير الزفرات والآلام ، وكذلك ديوان عتيق الأول وكثير من دواوين شعراء البلاد الشرقية الأخرى ، لا تقل نوحة ولهفة وحسرة عما ذكرنا .

ومن شواهد هذه النازعات الرومانتية اليائسة القاتمة ، نذكر شيئاً مما جاء في قصيدة « الليل » لخليل شيبوب ، وما جاء في قصيدة لعبد العزيز عتيق متأوهاً ناعماً منادياً الموت ، يقول الأستاذ خليل شيبوب :

أنا بين الأمراض والحسرات ... ذهبت سنوّتي وضاعت حياتي
كم دعوت الممات دعوة يأس ... عالماً أن راحتي في مماتي

الى أن قال :

حبذا الموت يا ظلام فإني ... تاعس الحظ قد سئمت حياتي

ويقول عتيق في هذا المعنى :

أواه من نفسي ومن زمني معاً ... أواه لم تجدي إذن أمّاني
يا موت زرْ قلبي فدارك لم تجد ... فيها سوى الدمعات والآنات
ولربّ موت يستريح به الفتى ... من شرّ عيش لجّ في الأحزان

ومن شواهد اللهفات الغرامية الدليلة ، ما قرأناه لصالح جودت في مثل قصيدته « العيون الزرق » التي جاء في آخرها :

أيها الهاجر من غير سبب لو تجافي ، أنا راضٍ بجفاك
العيون الزرق والشعر الذهب ألجأني يا حبيبي لهواك

أو ما جاء في قصيدة « حسرات » [1] لمحمد فهمي إذ قال :

أتحسر ثائر لوعتي وأنيني وسواكبًا من مقلتي وجفوني
الليل ، عاد الليل أنّة ثاكلٍ والصبح ، ليس ضياؤه يعنيني
والصامتات على الغصون غناؤها نوحٌ يثير كوامني وشجوني

الى أن قال :

يا حُرقة الحسرات حسبُك فارحمي هذا الخفوق فداؤه يضنيني !

وعلى مثل هذا الطراز جرى الشاعر الغنائي « أحمد رامي » فعبّر عن لهفات قلبه في سكنة وذلة ، وملأ الجوّ المصري أنينًا وتواحًا ، فاسمع إليه يقول من قصيدته « بين الصراحة والكتمان » [2]

نعم أهوى ولا أُخفي غرامي ومن شرف الهوى أني صريح
وأما إن سئلتُ عن اصطفتني سكتُّ فما استرحتُ ولا أريح
ومن لي أن أقول تعلقتني وقلبُ الغانيات مدًى فسيحُ
تلاقيني فتخلص لي نجيًّا وألمسُ حبها فيا يلوحُ
وتزدحم القلوب على هواها فتنكرني ولي كبدٌ قريحُ

ويدور رامي على هذا المعنى في كثير من قصائده وأغانيه ، كأنما حلا له أن يغني حبه الضائع الذليل في قفص حديدي

ونحن نعجب من هذا الشاعر الذي حبس نفسه باختياره على هذه الأغاني المطلقة ، وقد كان في بدايته الشعرية سبّاقًا الى الشعر الاجتماعي والوجداني والطبيعي ، وذكر له في هذه النواحي قصائده « القيط » [3] و « دمعة اليتيم » [4] و « قطعة صلاح الدين » [5] و « الهزار

(١) ديوان « أغاريد » ص ٩٠ (٢) أغاني رامي ص ٢٠٦ (٣) ديوان رامي ص ٨٤
(٤) الديوان ذاته ص ٨٤ (٥) الديوان ذاته ص ٣٢

السجين»[1] و«سنصانة على قبر غريب»[2] وغيرها من القصائد الفذة

ولا نشرق حتى يعود الى دنيا الحياة، ويتجه بشعره الى مختلف النواحي، ويُطعِّم الاغنية المصرية بالأغاني الغربية الفياضة بمتنوع الانفعالات والعواطف ويذهب، كما يقول الأستاذ دريني خشبة[3] في التجديد الى أبعد من الحد الذي وصل إليه، كأن يحاول مثلاً الاغاني القصصية البارعة Ballads التي حُرم منها الشعر المصري الحديث

* * *

وهذه النماذج القليلة التي أوردناها من الشعر المصري تمثل مظهراً من مظاهر الرومانتية مع تفاوت صياغتها بين الكلاسيكية والرومانتية، وقد حفل الشعر الشرقي بكثير من الشواهد على الطابع الرومانتي، ومن أظهر شعراء الرومانتية: أبو القاسم الشابي، وفوزي المعلوف، وهذا الأخير رومانتي صرف كما سبق ذكرنا قريباً، وأبرز شاهد على ذلك قوله وهو ينادي الموت[4]

والآن يا موت اليَّ اقترب ... يا مرحباً بالموثق المُحكَم
مزقْ نسيجي من قيود الأسى ... موثق جسمي في المدى الضيِّق
دعْ شاباً ناضراً فاحتسبْ ... وهاك قلباً ذابلاً فاختبرْ
لم يبق لي في الأرض من بُغيةٍ ... ما الأرض إلاَّ جنةُ الأحمق!

ولا يقف المذهب الرومانتي (الابتدائي) عند هذه الاتجاهات، بل إن أدباءه يتجهون كثيراً الى الشعر الجنسي والى طلب اللذات المباحة للآلام، بل الى الخواطر المريضة المنحرفة، وفي بعض الأحايين يتجهون الى موضوعات تافهة تضع بينهم وبين الحياة برزخاً واسعاً، ومن الشعراء الأبداليين الذين تناولوا اللذات الجنسية في شعرهم عمر أبو ريشة ونزار قباني في سوريا، وغنطوس الرامي في لبنان، ومحمد رشاد راضي وكامل أمين والعوضي الوكيل في مصر، وقد أثبتنا نماذج لأكثرهم، وهي نماذج شعرية بديعة متفوقة. ومن الشعراء الذين تناولوا الخواطر المنحرفة عدد ليس بالقليل، ومن أمثلة هذه الخواطر ما جاء

---

(١) ديوان رأي ص ٥٨ (٢) الديوان ذاته ص ١٢٥ (٣) مجلة الرسالة ٢٨ اغسطس سنة ١٩٤٤
(٤) من كتاب شعر الطبيعة فوزي المعلوف ص ٤٢ قلبي الدامي — صدر عام ١٩٤٨

مثلاً في مقطوعة « مجنون » التي يقول صاحبها في سذاجة الطفل الجريح :

أصبحت والشر في جناني ... يهتف والشر في لساني
وصرت أستعذب المعاصي ... ورحت لا أحفل الأماني
برمت بالناس والزمان ... زهدت في الحب والحنان
سئمت حتى أخي وأختي ... ومن الى العيش أنجباني !

واسمع الى شاعر آخر، يشتاق الى المقبرة ويرى نوراً يشع منها ! ويحن الى زيارتها يقول :

هجع الأنام ولم يزل بجناني ... شوقٌ ملحٌّ دائمُ النيران
يهتز لملكة القبور وما حوت ... من ساكنين تربعوا بأمان
فنهضت أخطو شطرها متيمماً ... في لهفةٍ مجنونةٍ وحنان !
نورٌ هناك يشع من جنباتها ... تيشو الى لمعانه العينان
وتهامسٌ ملء الفضاء أحسه ... متردداً في مسمعي وجناني

ويختمها بقوله :

لله مقبرة ، يرفرف فوقها ... نور اليقين الساحر الفتان
يا نفس صبراً إن طلبت جوارها ... فغداً تُرَيْنَ بها من السكان !

أما اتجاه أدباء الابتداعية الى الموضوعات النافهة ، والاغراب عن أبسط المرائي في حرية يأباها الاتباعيون ، فهو وفير في الشعر الغربي والشرقي الحديث ، ومن نماذج هذه الموضوعات نذكر على سبيل التمثيل « الحمامتان » لخليل مطران ، و « القطة اليتيمة » لأبي شادي ، و « دفة قديمة » لشكري ، ومقطوعة « الفنجان » أو الكلب « ببجو » للعقاد ، والقط « ضرغام » للصيرفي و « الوردة الذابلة » للمازني ، و « الى دودة » لميخائيل نعيمة ، و « فراشتي » لرشيد أيوب ، و « الحجر الصغير » لإيليا أبو ماضي ، و « رثاء زهرة » لفايد العمروسي و « الجمجمة » لابراهيم زكي ، و « رسالة » للدكتور حبيب ثابت ، و « عيون القط » للعوضي الوكيل ، وأمثال هذه الموضوعات وأجناسها وأشباهها كثيرٌ في الشعر الرومانتي الحديث ، وهي قصائد فنية متفاوتة القيمة وقد تمتاز بالإحساس الجمالي ، والرهافة ، وقد

يُمتع بعضها بالخلود في رأي نقّاد الفن للفن ، ولكن النقاد الواقعيين لايصدونها من العيون الأدبية وقد يقدّرونها لصياغتها ، ويبسمون لموضوعها ، بل يأسون لنفاد هذه الصياغات الجميلة والطاقات الشعرية ، في مثل هذه المناحي التي لا ترسل إلى الدنيا إشعاعاً ولا إلى البيئة قوة وحياة .

ونكتفي في هذا العدد بتسجيل قصيدتين مما أسلفنا قريباً ، لشاعرين لم نثبت لهما شيئاً في هذه الدراسة وهي قصيدة « رسالة » [1] وقصيدة « عيون القط »[2]. الأولى للشاعر اللبناني الدكتور حبيب ثابت وهو شاعر عاطفي وله غرام بمثل هذه الموضوعات، وقد تناولها تناولاً فنيّاً رائعاً ، قال :

رسالة في غرفتي نائمة ترجف رجف الطفلة الخائفه
فراشة بيضاء هفهافة في ليلة حائرة عاتمه
حمامة في الفجر طوافة صدّاحة نواحة باسمه
أنشر طول الليل في غرفتي أوراقها الغابقة الناعمه
وألثم الأسود من خدّها مناجياً أحرفه الواجمه
رسالة ألوانها في الدجى مُشِعّةٌ في غرفتي القاتمه
ترسل نوراً مالئاً مخدعي ملاعباً أحلامي الهائمه
بالله ، بالماضي ، بآلامه بالذكريات البيض والناعمه
لا تكتبوا إن حروفه الهوى قاسية يوم النوى ظالمه

والثانية للعوضي الوكيل وفيها له خطرات فكرية نافذة ، وإن كانت لتقلاته غير مستملحة ومرسيقاه غير موحّدة ، وإنه يقول :

النور في عينيك كو ن لا نهائيٌّ بعيد
وأحسّ أني في الفنا ء وأن عينيك الوجود
الكون نورٌ شائعٌ وأرى عيونك بؤرته

(١) مجلة الجمهور اللبنانية العدد ١٠٧ سنة ١٩٣٩ ص ٢٣
(٢) ديوان « نجوة المياة » للعوضي الوكيل صدر عام ١٩٣٦

جمعته في أحداقها جمعَ المشاعر لمعته

صنو الضياء جمعته في مقلتين ولمحتين !
وكأنني بك لم تنف ترنو ، ولم انظر بعيني

وتظل كالقديس تسـ ـتم حين لم يفتح شفه
وتكاد من ظمأ الحنيـ ـين وفرط أن ترشفه !

ونعتقد أن هذه الاتجاهات الرومانتية أثرٌ من آثار الصوفية الغربية المتحكمة في الشرق ، كما أنها ثمرة من ثمار ، ضغط البيئة المحافظة ، التي تحكمها أقلية سعيدة هانئة ، والتي تنظر الى الأدباء والشعراء نظرة بعيدة عن المجد.(1)

ولم يستطع الأدباء المتمردون الارتفاع على ضغط مجتمعهم ، فكانت أحلامهم تتوزع بين الرومانتية والواقعية ، وتتراكب على نفوسهم أطياف الحرب حيناً ، ودفقات الثورة حيناً آخر

ومن أبرز الشواهد على ذلك قصيدة « على ضوء النهى » الزهاوي ، وفيها يثور على صروف الحياة ، ويحاول مصارعتها ولكنه لا يقدر على الاستمرار في ثورته ، وعلى مصارعة البيئة أو الارتفاع عليها ، ولذا نراه يلقي سلاحه ، ويلوذ الى الطبيعة لتضميد آلامه وجراحه . استمع اليه يقول :

ولقد تعبت الحياة فما أذلتني الصروفُ
وعلى خطاياها وقفت فما أفادني الوقوف
ولقد أكون مصارعاً لخطوبها وأنا الضعيف
أو مدلجاً في ليلها والليل معتكر مخوف
لأجل أن يلقى السعـ ـادة واحدٌ يشقى الألوف ؟!
ما أكثر الانسان حرصاً وهو يشبعه الرغيف ؟

(1) Litt. & Society By Daiches — p. 195

عبء الحياة ولا تظن بأنه عبء خفيف
ما زلت أحمله واني ذلك الجسد النحيف
ماذا يفيد الجسم في حاجاته عضو مؤوف
سأنام في حضن الطبيعة فهي لي الأم العطوف !

وعلى أي حال فإن الشعراء أمثال الزهاوي والرصافي وأبو شادي والشابي وعمر أبو ريشة ورشيد معلوف وجورج صيدح وقبلان مكرزل وغيرهم ، في توزعهم بين الأدب الرومانتي والواقعي قد مهدوا مرحلة الانتقال ، الى دنيا الواقع والحياة، ونزلوا من أبراجهم الى أرض الأحياء ، وأكثر هؤلاء الشعراء لم ينهجوا نهجاً واعياً ، ولم يسيروا على مبادىء مبلورة ، وإنما كانت ثورة أغلبهم تفسيراً لتجارب باطنية ، قد تكون عارضة [1] — إلاّ أن الأدب قد غنم منهم تجارب واقعية جديدة ، أو نسبة موحية مثيرة ، فرأيناهم يبشرون الثورة على الأوضاع الفاسدة ، ويتغنون بالآمال الوطنية ، ولا يكتمون فرحتهم بالحياة ، — فالزهاوي مثلاً رفع علم الثورة الطاهرة في العراق ، وجاهد التزمت الديني ، ونادى بالتجديد في كثير من شعره ، ومن ذلك قوله :

سئمت كل قديم عرفته في حياتي
إن كان عندك شيء من الجديد فهاتِ

وقد خبّ الرصافي في هذه النواحي ، واحتذل كما احتذل حافظ ابراهيم في مصر بالواقع المحلي ، والشعر الوطني ، وتقريع بني وطنه ، فاسمع إليه مثلاً في قصيدته « أيقاظ الرقود » يقول :

الى كم أنت تهتف بالنشيد وقد أعياك أيقاظ الرقود
فلست وان سددت عرى القصيد بمجدٍ في نشيدك أو مفيد
لأن القوم في غيٍّ بعيد !
اذا أيقظتهم زادوا رقاداً وان أنهضتهم قعدوا وآدا
فسبحان الذي خلق العبادا كأن القوم قد خلقوا جمادا
وهل يخلو الجماد من الجمود !

(1) Romanticism By Lascelles Abercrombie p. 156

وكذلك جرى أبو شادي في هذا التيار ، وتلوّن بعض شعره باللون الواقعي . ونذكر من قصائده ، « الديموقراطية » في ديوانه « مصريات »[1] و« الثالوث المقدس »[2] في ديوانه الأخير « عودة الراعي » وقد استهلها بقوله :

الجهل والفقر والمرض ثالوثنا الباطش المنيع
أعزه بيننا الغرض وصال يستعبد الجموع

وقد رأينا توجهاً من شعرائنا المصريين كهولاً وشباباً الى الناحية السياسية، فرأينا الدكتور ناجي تتفتح نفسه لهذه الناحية ، ورأينا علي محمود طه يترك رومانتيكيته الى الحياة الوطنية ويوفق في بعض شعره في هذه الناحية ، ورأينا صالح جودت يحاول هذه المحاولة ، وكذلك مختار الوكيل ، ولكن نزعتها الرومانتيكية غالبة عليهما ، وشعرها السياسي شعر عارض دفعت إليه أحداث عارضة ، وحبذا لو اقتصرا على شعرهما الغزلي مسايرين طبيعتهما ، وقد أتينا بنماذج غزلية بديعة لصالح جودت، وقد يكون من المناسب هنا أن نتحدث قليلاً عن مختار الوكيل ، ومزاج مختار الرومانتي يتجلى في ديوانه « الزورق الحالم » الذي أخرجه في عام ١٩٣٦ ، حيث نجد قصائده ملونة باللون الغزلي حيناً ، وممتزجة باللون الطبيعي حيناً آخر ، وكثيراً تمتاز بفرط الألم والشجى، ونجد أمثلة لذلك في مثل قصائده « الى جانب المدفأة » و« غرفة الذكرى » ، و« الى السماء » و« الجدول الحالم » وهي من أجود قصائده في الديوان سالف الذكر ، وأما قصائده الجديدة فنذكر منها في « محراب الألم » و « نشوة الألحان » و « موكب الذكريات » ، وجلها تمثل روحه الرومانتي ، ونقطف الفقرة الأولى من « نشوة الألحان » تلك النشوة التي تنتقل الى قلب الشاعر الرومانتي وهو في حضرة الطبيعة يتسمع ألحانها وإنه ليقول فيها :

أنا في نشوة من الأنغام فدعوني بمعانقاً أحلامي
أنا في صمتي الكئيب قريرٌ سابحٌ في عوالم من هُيامي
مستعيد في خاطري ما تقضى من متاعٍ وشقوةٍ في غرامي
أي وحي منغم يتهادى ويناجي الفؤاد في ابتهام

---

(١) ديوان مصريات ص ٢١ (٢) المصدر ذاته ١٤١

لحنه ثائرٌ يداعب روحي وصداه معانقٌ الطامي !

وأما قصيدته « مركب الذكريات » فقد فيقت على المائة بيت وليست أبياتها في استواء واحد ، وموسيقاها غير موحدة وتقطف منها هذه القدة

روضة الشعر كيف أزهارك السـ ـبوم وكيف الطيور في عذباتك
كيف حال البحيرة الضحلة للمـ ـاء وكيف النخيل في جنباتك
كيف دوحاتك البواسق أسدان شعـ ـوراً ، وكيف حال (نهاتك) !
تمتطي الفلك في البحيرة حذ ـ ـلى وتشم العبير من زهراتك !

وفي مثل هذه الموضوعات قد يجيد مختار لأنها تتساوق مع نفسه ، أما في الموضوعات الواقعية مثل قصائده « يا شرق » أو « بني النيل هبوا » أو « في مركب النصر » أو « بعد الحرب » أو « الى أخي » فلم يحالفه التوفيق ، لأنها لم تنبع من نفس بلورتها المبادىء السياسية ، ولهذا نجد عقله فيها يملي عليه دون قلبه فلا نحس عند تلاوتها بهزة ما وتأييداً لهذا نسجل الفقرة الأولى من قصيدته « أخي » وقد جارى فيها قصيدة ميخائيل نعيمه ، وفيها يقول :

أخي قد شاء رب الكون أن يجمع قلبانا
فأسكننا بوادٍ فاض بالخيرات ألوانا
وأجرى بيننا نهراً براح الخلد أحيانا
وأهدانا من الألسن ما نزّل قرآنا
ووحّدنا على الأيام وجداناً وايمانا
وأنزل في جوانحنا ، هوىً يغذو طوايانا !

فمثل هذا الشعر ، وان شافنا موضوعه ، إلاّ أن صياغته لا تهزنا ونحن لا نطالب الشاعر الرومانتي ، ان يتحوّل الى الشعر الواقعي ، إلا إذا وجدت عنده القابلية ، والأساس الحقيقي القائم على شعور مبلور أصيل .

* * *

وربما وجدنا ضالتنا في شعر طائفة من شعراء الشرق من أمثال عمر أبو ريشة في سوريا وقبلان مكرزل في لبنان ، وشفيق معلوف ، وجورج صيدح في المهجر مع تفاوتهم في الصياغة ، وتحادهم في الاتجاه الرومانتي الواقعي .

وأما عمر أبو ريشة ، فقد أهدانا ديوانه الجديد بتجارب موضوعية ملوّنة باللون الروماني ومن ذلك قصيدته « يا شعب » ص ٢٤٧ ، التي يقرع بها الشعب لسوء اختياره رجاله في الانتخابات البرلمانية ، وقصيدته « عرس المجد » ص ١٤٥ . وثم قصيدة أجرى وجهها الى أحد رجالات سوريا ولم يذكر اسمه كان في صفوف المجاهدين ، ثم نقض على عقبيه وقد جاء فيها :

عرفتك في ميادين الجهاد ... صليب العود ممتنع القياد
تنازلك الخطوب فتردريها ... وفي شفتيك بسمات العناد
فكيف تغيرت قدماك حتى ... هويت من الصلاح الى الفساد
أغرّك من متاع العمر عيش ... دقيق الطيب ، مخضلّ الوساد
سل الأحرار هل حنت لكأس ... على ذُلّ حناجرها الصوادي ؟

ثم يقول :

تلاشت سكرة اللذات فاخلع ... على عرش المنى ثوب الحداد
لعمرك لن تنام على فراش ... يرجك فيه أشباح البلاد [1]

وأما فدلان مكرزل فقد طالعتنا في ديوانيه ، « الخلود » و « أنا طير شرود » بقطع رومانتية وواقعية بديعة ، وأحسن ما قرأنا له قصيدته « حلم في سجن » وهي قطعة متحررة بديعة الصياغة ، وقد أثبتنا بعض منها في هذه الدراسة [2] وكذلك قصيدته « صوت الشهيد » [3] بديوان الخلود ، وقصيدته « لا تغضبي » [4] التي ينتصر فيها لبنت الشعب العاملة في الكوخ حيث الحب والوفاء الحق ، ويزور فيها بجانبه عن عاشقته ساكنة القصر ، وأنه ليقول في الفقرة الأخيرة منها :

يا جارتا لا تغضبي إن كنت لا أرعى الجميلا
لي من بنات الشعب عاملة غدوت بها قتيلا

---

(١) ديوان عمر أبو ريشة ص ١٤٣ ، ١٤٤
(٢) تراجع صفحة ٨٣ ، ٨٤ من هذه الدراسة
(٣) ديوان الخلود ص ٢٨ (٤) ديوان الخلود ص ٣٨

الكروخ أنشأنا معاً، نغزو الروابي والحقولا
كحمامتين إذا افترقنا ملأ الدنيا هديلا
والكروخ علّمني الوفاء، فما أطيق لها بديلا
لا تندبي يا جارتي ؛ أنا أكره العيش الذليلا
أنا لست ممن يسجدون على شفا الشعب الذليلا !

وأما فليب محلوف ، فقد أتحف العربية بقطع رومانتية ، لا مجال لتسجيل شيء منها ، وقد توجه مؤخراً الى الحياة ، فصوّر الفلاح [1] في قصيدته المسماة بهذا الاسم تصويراً رائعاً إذ قال :

وفّى الحياة ديونها كرماً وما وُفيتْ ديونُه
وفى تشقّ الأرض قبضته بصوم لا يخونه
عرق الجباه همى على صنيه فانطبقت جفونه
هلاّ نظرت جبينه كم فيه لؤلؤة تزينه
تسنّت عليه بالدموع عيونه فبكى جبينه !

وأما جورج صيدح فيمدنا ديوانه « النوافل » بقطعات رومانتية وواقعية ، وأسلوبه لا ابتداع فيه ، وانما مزاجه الرومانتي يتجلى لنا في أمثال هذه القصائد « على قمة الجبل » و « شلال نياغرا » و« نعي الوالدة » ص ١١٦ وهي من أجمل قصائده وربما كانت قصيدته جولة ص ١٢٥ خير مثال على روحه الرومانتي وقد جاء في الفقرة الأخيرة منها قوله :

جرى الناس الى المثال سعوا وأنا أسعى الى قنص خيال
عبثاً سائلتُ نفسي هدنة ربما أجمع ما يصلح حالي
كلما غامرتُ جاءت خيبتي من وثوب الشعر خطّاراً بالي
فتراني قاعداً عن مطلبي أقطف الاحلام من روض الجمال !

---

(١) مجلة الندوة، سان باولو عدد يوليو ١٩٤٧

كما أن قصيدته « سل المهملات » ص ١٩٩ تعد تجربة شعرية بديعة الخواطر والمعاني وهي من موضوعات الرومانتية التي تهتم بالتجارب ذات الموضوعات العادية

وقد اقترن بهذا المزاج الرومانتي ، ميل الى الحياة والواقع وفي هذه الناحية يعدنا ديوانه سالف الذكر ببنائنة من القصائد الواقعية مثل قصيدته الطليقة « يا مصر » و« جهاد فلسطين » و « تلك البلاد » ص ١١٥ التي جاء فيها :

لا يؤخذ استقلال شعب منحة ... بل عنوة من قبضة استبداد
ولكل شعب حقه في موطن ... أوصى به الأجداد للأحفاد
فليسمعوا صوت الديار تردّدت ... فيها الشكاية أيما ترداد
وليذكروا تاريخهم وليقرأوا ... تاريخنا في صفحة الآباد
دولٌ تدول ولا تزال عظاتها ... توحي لهم ولنا سبيل رشاد
ما أنفع الذكرى تهيب بقومها ... أن ينزعوا خيراً ليوم حصاد
ما أنفع الذكرى تحث شعوبنا ... أن تستعيد مفاخر الأجداد !

وإنما أتينا بهذين النموذجين لصيدح ، لنبان تزعه بين المزاج الرومانتي والواقعي ، وما في شعره من معان جديدة ، وإن كانت صياغته عادية لاجدّة ولا جزالة فيها ، وهو مطالب بأن يحاسب نفسه على هذه الصياغة حساباً عسيراً ، ونخشى أن لا يقوم بهذا الحساب لما طُبع عليه من حب للدعابة والميل الى المفاكهة ، هذا الميل الذي رأينا آثاره في كثير من شعره ، ومن آياته مثلاً قصيدته « ما السبب » ؟ التي يخاطب فيها أحد أصدقائه يقول :

ما ذا دعاك فصرت قا ... سي القلب يا « ديك الحطب » !
أما أنا فكما عهدت ... فوقُ على الاخلاص شبّ
قلي من الذهب المصفّى ... هل سمعت عن الذهب ؟
لكن يحوم على الغواني ... كالفراش على اللهب !!

* * *

ونحن وإن وجدنا بذرات الاتجاه الرافعي تنمو في شعر طائفة من شعراء الشرق الابداعيين ، محاولة أن تبرز الى الحياة والنور ، لتكون قوة من القوى الاجتماعية الدافعة الى التقدم ، إذا بنا نجد من بين هؤلاء الابداعيين ، أفراداً يتكهول على أعقابهم ،

الكوخ أنشأنا معاً، نغزو الروابي والحقولا
كعاشقين إذا افترقنا ملأ الدنيا عويلا
والكوخ علّمني الوفاء، فما أطيق لها بديلا
لا تنهي يا جارتي ، أنا أكره العيش الذليلا
أنا لست ممن يستجيرون على شقا الشعب الذليلا !

وأما فليق معلوف ، فقد أتحف العربية بشتى رومانتية ، لا مثال لتسجيل شيء منها ، وقد توجه مؤخراً الى الحياة ، فصوّر الفلاح [1] في قصيدته المسماة بهذا الاسم تصويراً رائعاً إذ قال :

وفّى الحياة ديونها كرماً وما وُفيت ديونه
ومضى تشقّ الأرض قبـ ـضته بعزم لا يخونه
عرق الجهاد همى على عينيه فالتمعت جفونه
هلاّ نظرت جبينه كم فيه لؤلؤة يزينه
ضمّت عليه بالدموع عيونه فبكى جبينه !

وأما جورج صيدح فيمدنا ديوانه « النوافل » بفلتات رومانتية وواقعية ، وأسلوبه لا ابتداع فيه ، وانما مزاجه الرومانتي يتجلى لنا في أمثال هذه القصائد « على قمة الجبل » و « شلال نياغرا » و « نعي الوالدة » ص ١١٦ وهي من أجمل قصائده وربما كانت قصيدته « جولة ص ١٢٥ خير مثال على روحه الرومانتي وقد جاء في الفقرة الأخيرة منها قوله :

حولي الناس الى المثال سعوا وأنا أسعى الى قنص خيال
عبثاً ساءلتُ نفسي هدأة ربما أجمع ما يصلح حالي
كلما ثرتُ جاءت خيبتي من وثوب الشعر خطّاراً ببالي
فترانى قاعداً عن مطلبي أقطف الأحلام من روض الخيال !

---

(١) مجلة الندوة، سان باولو عدد يوليو ١٩٤٧

كما أن قصيدته « سل الجبلات » ص ١٩٩ تعد تجربة شعرية بديعة الخواطر والمعاني وهي من سرعيات الرومانسية التي تهتم بالتجارب ذات الموضوعات العادية

وقد انبرى هذا المزاج الرومانسي ، ميال الى الحياة والواقع وفي هذه الناحية يعدنا ديوانه سالف الذكر ، بطائفة من القصائد الواقعية مثل قصيدته العليقة « في مصر » والجهاد فلسطين » و « تلك البلاد » ص ١١٥ التي جاء فيها :

لا يؤخذ استقلال شعب منحة ... بل عنوة من قبضة استبداد
ولكل شعب حقه في موطن ... أوصى به الأجداد للأحفاد
فليسمعوا صوت الديار تردّدت ... فيها الشكاية أيما ترداد
وليذكروا تاريخهم وليقرأوا ... تاريخنا في صفحة الآباد
دولٌ تدول ولا يزال عظامها ... توحي لهم ولنا سبيل رشاد
ما أنفع الذكرى تهب بقومهم ... أن يزرعوا خيراً ليوم حصاد
ما أنفع الذكرى تحث شعوبنا ... أن تستعيد مفاخر الأجداد !

وإنما أتينا بهذين النموذجين لصديح ، لبيان توزعه بين المزاج الرومانتي والواقعي ، وما في شعره من معان جديدة ، وإن كانت صياغته عادية لا جدّة ولا جزالة فيها ، وهو مطالب بأن يحاسب نفسه على هذه الصياغة حساباً عسيراً ، ونخشى أن لا يشرع بهذا الطلب لما طُبع عليه من حب للدعابة والميل الى المداكبة ، هذا الميل الذي رأينا آثاره في كثير من شعره ، ومن آياته مثلاً قصيدته « ما السبب » ؟ التي يخاطب فيها أحد أصدقائه يقول:

ما ذا دهاك فصرت قا ... سي القلب يا ذيك الخطب ؟ !
أم أنا نكثا عهدنا ... فتيٌّ على الاخلاص شبّ
فلي من الذهب المصفّى ... هل صحبت من الذهب ؟
لكن يحوم حمى الغواني ... كالفراش على اللهب ! !

* * *

ونحن وإن وجدنا بذرات الاتجاه الواقعي تنمو في شعر طائفة من شعراء الشرق الابداعيين ، محاولة أن تبرز الى الحياة والنور ، لتكون قوة من القوى الاجتماعية الدافعة الى التقدم . إذا بنا نجد من بين هؤلاء الابداعيين ، أفراداً ينكصون على أعقابهم ،

ويخالفون عن بث روح التقدم والتحرر في المجتمع ، متأثرين بضغط البيئة المذبذبة ، أو سحر المادة ، ومن بين هؤلاء نذكر العقاد ، الذي بدأ حياته الأدبية الأولى متحرراً في اتجاهه وآرائه ، وأسلوبه ، مترفعاً عن الامتداح ، جانحاً في شعره أحياناً من الرومانتيكية والواقعية المتحررة ، ثم حوّلهُ تيار الحياة الجارف عن طريقه الأدبي القويم الى طرائق حلزونية ، فرأيناه يمتدح رجلاً كال له الهجاء ، ويهجو آخر كال له المدح ، ويتناقض في اتجاهاته متأثراً بتناقض البيئة ، ومن شواهد ذلك قصائده الأولى « المجد والثقافة » و« صلاة عابد المال » وهو فيهما يسخر بعبادة المال ، ويرى في الثقافة مع الشرف مجداً ، وفي قصيدته « يوم العقاد »[1] يشيد بإرادة الشعب ، وممثل الشعب ، ويحمل حملات شعواء على معارضيه ، ومما جاء فيها قوله :

أين الذين تواصوا أمس وائتمروا ... وهللوا بينهم والشعب مكتئب
وأيقنوا بالمعالي واستخفهم ... من فرط ما مرّهم ما أيدت الطرب
أيبصرون ؟ فهذا منظرٌ جللٌ ... أيسمعون ؟ فهذا مسمعٌ عجب
ماذا يقولون ؟ ماذا يفترون غداً ... أخزاهم الله في الدنيا بما كسبوا

ثم يقول مشيداً بإرادة الشعب :

ما يبتغ الشعب لا يدفعه مقتدر ... من الطغاة ولا يمنعه مغتصبُ
فاطلب نصيبك شعب النيل وامضِ له ... وانظر بعينيك ماذا يفعل الدأبُ
ما بين أن تطلبوا المجد المعدّ لكم ... وأن تنالوه إلاّ العزم والطلب

وهؤلاء الذين رماهم بالخزي ، ارتمى في أحضانهم ، وكال لبعض رجالاتهم المدح ، والشعب الذي نادى بصوته وعرف قدره ، لم يعد له عنده قدرٌ ولا حساب . ويرجع هذا التبلبل والانحراف الى ضغط البيئة ، وانعكاس تناقضها على الأدب ، والأدباء ، والى تفسخ الأدباء وعدم تبلور مبادئهم .

ولم نأت بشهد الحق ، بهذا المثال ، انتقاصاً ، ولكننا ابرازاً لظاهرة أدبية اجتماعية من مظاهر الرومانتية التي تميل بالأدباء الى الهرب من الحياة واللواذ الى الخيال والوهم وتحملهم الى الانكماش والانطواء ، والفرار من المسؤولية ، ومن الدنيا الخارجية ، أو تدفع بهم الى

---

(١) ديوان العقاد ص ٢٧٨

تفيء ظلال الطبيعة أو تدعوهم الى التلذذ بالآلام ، والاخلاد الى اليأس ، أو تضطرهم أحياناً الى معالاة ما يجري في المجتمع من ظلم وشقاق وملق واستبداد .

ولقد كان من آثار الرومانتية الوخيمة على الأدباء أن تمارت عليها اتجاهات أدبية جديدة كونت لها مذاهب جديدة ، نذكر منها ، المذهب الرمزي ، الذي عمل على التحرر الاسلوبي ، والتحرر من الايقاع الرومانتي ، وخرج شيئاً ما عن الموضوعات التقليدية والخلقية ونشد الجمال المثالي ، واستعان في التعبير على الابهام والايحاء ، ويمكن اعتباره أدباً مترفاً مقصوراً على فئة ارستقراطية مثقفة .

وكان المذهب السريالي ، الذي خرج على المذهبين ، الرومانتي والرمزي خروجاً مطلقاً ، فاعتمد على الحلم ونوازع العقل الباطن . وعبر عن تجاربه الشعرية دون مبالاة بالوزن أو القافية ، وأحياناً عام بالتلقائية التعبيرية ، وكان له اهتمام بالحقل السياسي والاجتماعي ، ولكنه اهتمام سلبي ، واذا كان قد خرج رجاله عن العرف الجاري الناتج عن المكبت والخداع والنفاق الاجتماعي ، وعملوا على التخلص من الكآبة الرومانتية ، وآلامها العربية وتناقضاتها الاجتماعية ، فانهم عادوا الى الطفولة والى تناقضات الشخصية ، بمعنى أنهم عبروا عن نفوسهم تعبيراً تنعكس عليه شخوصهم غير المتزنة [1]

ولما كانت المذاهب الثلاثة السالفة لا تنفع من وراثها للمجتمع البشري ، لأن المذهب الرومانتي مذهب مخدر ، قنوع ذليل ، والمذهب الرمزي مبهم لا يتجاوب معه إلا النوادر ، والمذهب السريالي ، مذهب سلبي في أهدافه ، مُلغز في أسلوبه ، فقد قام مذهب آخر ، هو المذهب الواقعي أو الاجتماعي ، ليكون قوة فاعلة في المجتمع ، عامله على التقدم الانساني ، وهو مذهب يتقدم الأحداث الاجتماعية ولا يتبعها ، فدوره — كما يقول — دكتور جون لويس John Lewis دور بنائي ، إذ أنه يمد المجتمع بالآراء ، ولهذه الآراء قوة على الجماعات وأثر في تقدمها الاجتماعي [2] وهو ينكر العزلة والانفصال الرومانتي ، ويسخر من الأبراج العاجية ، وينشد التدخل ، والترابط ، والاتصال بالحياة اتصالاً مباشراً ، ويكشف عن الشخوص الحقيقية ، لا الوهمية ، وعن القيم الانسانية الباقية . وسنتحدث في البحث القادم عن أثر هذا المذهب في الشعر الشرقي المعاصر .

---

(١) يمكن مراجعة كتاب « سريال » عن المذهب السريالي ، لمؤلفه الدكتور علي الناصر وآخرين ميسر

(٢) Modern quarterly Miscellany No 1.

﴿ المذهب الواقعي ﴾

والمذهب الواقعي هو، كما قلنا، المذهب الذي ينكر الانطواء والانكماش، والتعليق، في أجواء الخيال، والهيام بدنيا الطبيعة، والاستغراق في الأحلام والشرود، وعدم التعقل بل هو الذي يفتح ذراعيه لدنيا الناس، وعالم الحياة، وما يموج فيه من آلام وأفراح، وأشواق وآمال وهتافات وثورات.

وهو مذهب ليس بالجديد، فقد تناول بعض الاتباعيين في الشرق والغرب بعض نواحيه وحوّم عليه الابداعيون تحويماً خفيفاً، وطلبه المحدثون علاجاً متعدد النواحي وبخاصة أولئكم الذين خرجوا عن فرديتهم وتبلور لديهم الوعي الوطني والاجتماعي والانساني.

وليست صياغته، صياغة مباشرة بحتة، لا فنّ فيها كما يتوهم الواهمون، إنما هي صياغة مثيرة ومقنعة تهتم بالناحية الفنية، كما أسلفنا في صدر هذه الدراسة، والذين كتبوا في فلسفة الواقعية، يرون ضرورة الاهتمام بالناحية الشكلية. وفي هذا الصدد يقول — فردريك انجلز — أنه كلما خفيت آراء المؤلف، كلما كان هذا أدنى الى الفنية [1].

وقد ظهرت في الشرق العربي فئات من الشعر الواقعي، متفاوتة في النوع والاتجاه، فمنها ما غلب عليه اللون القومي أو الاجتماعي، ومنها ما غلب عليه الاتجاه العام أو الانساني، وصياغتها تتفاوت في الجودة والحساسية، فمنها ما كانت صياغته مباشرة لا اثارة فيها، ومنها ما مسحت بظلال الفن.

ويستحيل علينا تأريخ هذا الاتجاه الجديد في الشرق لأن هذا العمل يتطلب بحثاً مفرداً وجهداً شاقاً، وكل ما نستطيعه، هو أن نلمع الى طائفة من شعراء هذا المذهب ونسجل بعض نماذج لهم، ونذكر على سبيل المثال، الشاعر السوري «بدوي الجبل» والشاعر اللبناني رئيف خوري، والشاعرين العراقيين محمد مهدي الجواهري والسيد محمود الحبوبي والشاعر المهجري «الياس فرحات» وغيرهم كثيرون ومن هؤلاء، من عبر عن الواقع

(1) Materialistic Aesthetics By Karl Blankpe - The Modern Quarterly Summer 1946. p. 75

المحلي الذي لا بقاء له، ومنهم من عبر عن تجارب عامة باقية، وتعابير هؤلاء الشعراء تراوحت بين تصوير الواقع وبين الثورة عليه.

ومن نماذج هذا الشعر المتراوح بين المحلية والعمومية وبين التصوير الواقعي والثورة على الواقع، ما قرأناه في ديوان «السهام»[1] لالياس قنصل وفي ديوان محمود الحبوبي العراقي[2] وفي كثير من قصائد الجواهري وضياء الدخيلي العراقي.

ومما جاء في ديوان «السهام» قصيدة «معاذ الله» ص ٤١ وهو فيها يتحدث عن أسباب التحلل في الحياة السياسية في الشرق، وفي الخنوع للغاصب، وقد جاء فيها:

أرضى بالهوان ونحن قوم ... ملأنا صفحة التاريخ فخرا
بلينا بالتخاذل وهو داء ... عضال ينخر الأخلاق نخرا
فأنهكنا وغادرنا شعوبا ... مؤلفة تجر الذل جرا
ونحن أمام قاصبنا سجود ... ننفذ أمره سرا وجهرا
قيود الذل فلتكسر ويكفي ... على حمل الأذى والذل صبرا

وفي قصيدته «نشيد المجد» ص ١٧ نراه يدعو الى رفع نير الاضطهاد، وعجابة الحياة في بأس وقوة شكيمة، وتطلع الى العلياء، وأنه ليقول:

إلى المجد سر واغنم أكاليل غاره ... بهمة جبار له الخلد مأربُ
وكن قوة يعنو الجلال لبأسها ... ويسبقها من سؤدد الفضل موكبُ

ثم يقول:

وإن بتَّ مهضوم الحقوق ولم تثر ... فلست بذي نفس الى الله تنسبُ
يراها ورقاها لتغدو على الثرى ... خليفته وهو العزيز المغلبُ
وما الموت إلا الضعف والجبن والونى ... وما العيش إلا فيل ما أنت ترغبُ
وما النفس إلا عزة وكرامة ... يظلها من طارف النبل مذهبُ

* * *

والحبوبي في ديوانه المسمى باسمه، نراه في قصيدته يا «مصر» يتحدث الى المصريين

---

(١) ديوان السهام لالياس قنصل الطبعة الثالثة — صدر في عام ١٩٣٠

(٢) تفضل علينا بهذا الديوان عند طبعه، الاستاذ الاديب مشكور الاسدي

ويحذرهم من وعود الغاصبين ، ويصور فيها خلتهم وطرائق استهارهم . وفي قصيدته « الحرية » يخاطب الحرية خطاباً قويًّا ، ويناديها بالخروج من حجابها يقول :

طال انتظارك فاطلعي لنرى عيداً بلا ملل ولا سأم
والموت للأحرار أطيب من عيش العبيد وذلة الخدم
نام الطغاة وهجعوا وهنا مقل من الأرهاب لم تنم

ثم يقول : فتبلجي كالشمس مشرقة وتحدثي للناس من أمم
واسترجعي لهمُ حقوقهم من كل مغتصب ومغتنم
ودعي الحجاب ورقيه فكم تبقين منه وأنت في حرم

وقد جرى الجواهري شوطاً بعيداً في تصوير الاحداث الاجتماعية ، والثورة عليها ، وربما عُدَّ في الوقت الحاضر ، أكثر شعراء الشرق احتفالاً بهذه الناحية ، وشعره كلاسيكي جزل ، محكم النسج ، وله جماله الخاص ، ولا يتسع المجال لتسجيل أكثر من نموذج واحد له نقتطفه من ملحمته « عالم الغد » وهو ينظر الى هذا العالم بعين الخيال فيصوره معركة تقوم ، وتسفر عن دخان وضباب وتراب هي آثار المجاهدين ، والتي ستكون أداة من أدوات تغيير الأوضاع المتعفنة ، والنفوس المنحلة ، وقد استهلّ هذه الملحمة بقوله :

عالم الغد يا رهين ضباب ودخاناً من نفثة وتراب
وعجاج من المغاني الخراب تحت أنقاضها وجوهٌ كواب
من شيوخ وصبية وكعاب
هي إذ حشرجت ورفت وجيبا وخيالاً للطلهمين خصيبا
أمس هذا الضباب كان قلوبا
نابضات بناخات الشباب وهبات من الأماني العذاب
وهي لتكون بعد سوت هذاب بجناح الروّع المرتاب
حلقت كالسحاب فوق السحاب
تمنح الشمس جذوة واشتعالا ومشت في الثرى تزلزل الجبالا
يملأ الأرض غيظها زلزالا تتحدى بثقلها الأثقالا

فتقيل الطغاة والأقيالا والمهازيل في الحرب كالى
هتفات تعرقل الأجيالا وبعوضاً على الدماء عيالا
تتهزّى من ماجن لعاب يتلهى بكأسه والشراب
ساقط فوق غيره كالذباب ذاهل عن دنو يوم الحساب
عصفت بالرءوس والأذناب من عبيد وسادة أرباب

وقد وقعت في يدنا مؤخراً مجموعة لشاعر ضياء الدخيلي العراقي يصور فيها حياة العراق الحاضرة وأحداثها، ويبدو لنا أن هيامه بهذا المنحى، جعله لا يُروّي في التأدية، ولا يهتم بسحر الصياغة، وقد استلفتت نظرنا مقطوعته « اليتيمان » التي يقول فيها :

رقدا على جنب الطريق رداهما بؤس هو الملك المريع المرعب
مدنية شوهاء لا يلوي بها عطف الاخاء بها الجناة تغلبوا

وهذا الاتجاه الواقعي إن دلّ على شيء، فأول ما يدل عليه هو شعور شعراء الشرق بوجوب الخروج من حياة الانكماش والعزلة، وحمل حظ من المسئولية الاجتماعية، ولا بد أن يصاحب هذا الشعور تجاوب حقيقي مع الأحداث الاجتماعية وفهم واسع لها والاعراب عن هذه الأحداث في قوة وجمال، ولن يجود هذا الشعر اذا لم يتحدث الشاعر عن شعور دفاق وتجربة حقة دون التحدث بما ينقله عن الناس أو عن آرائهم، أو أن يعبر عما يسطر في الصحافة أو يدور على المنابر.

وقد سجلنا نموذجاً طيباً لشاعر مصري شاب بعنوان « اصرار »[1] وها نحن أولاء نسجل نموذجاً آخر لشاعر السوري « نذير الحساني » بعنوان « تمرد »[2] وهو نموذج بديع منحور، يمثل هذا الاتجاه تمثيلاً حقيقيًا، ولو خلا من كثرة الاستطرادات في تجربته، لبلغ مرتبة فنية عالية، ومما جاء فيه قوله :

أنا للكوخ والسرداب، لا للقصر فني
وخلقت الريح في الأعماق ترجيعاً ولحني

(١) راجع صفحة ١٦ من هذه الدراسة (٢) نشر بمجلة الكاتب المصري — يوليو ١٩٤٦

لاحتضار النور في ليل المساكين أغني
وخلاف القوت في بطن الفقير المتعب
ولأنّات المزاني أهدم الدنيا وأبني !

* * *

أنا للبؤس ، وفي البؤس أعاسيري ورزئي
وعلى الغبن ، وفي الغبن تعالي وتعني
أسكب القلب بأقداح المنى لا المغني
قلبي مني ، ولن يُشتق إلاّ اليأسُ مني
أصيدّ في الحق بشعري ، لم أخنه أو يخني !

ويمثل هذا الشعر نفرس بدور الواقعية الشعرية في الشرق ، وبه يخرج الشاعر الشرقي من قوقعته ، ويتصل بالحياة ، وتكبر شخصيته ، ويحمل بعض أعباء المسئولية الاجتماعية ، فيساهم في نقد قوضى المجتمع الشرقي ويعمل على شفائه من البلبلة الحالية ، وعلى مجاهدة جماعاته المتصارعة من أجل أنانيتها المخيفة المنحرفة

ولا أمل في نهضة أدبية مزدهرة ، إلاّ بنهضة اجتماعية وحركة متحررة تقوم على أكتاف الأدباء والشعراء . ولا أمل في كثير من الأدباء كبار الأستاذ الذين أخلدوا الى الجبرية ، ورضوا بالوضع الاجتماعي الظالم الذي آل بهم الى الفرار من دنيا الواقع والانعزال عن مسايرة موكب الحياة.

والأمل معقود في الشباب الصاعد الموهوب ، الذي ارتفع بروحه الوثّاب على أوضاع الحياة الحاضرة ، وتبلورت مبادئه الخلقية والروحية والاجتماعية ، وبأقلام مثل هذا الشباب يمكن أن ينهض الشرق نهضة أدبية اجتماعية رائعة . كما نهضت البلاد المتحضرة على نفثات أقلام أدبائها هيباناً وكهولاً أحراراً .

ويمكن تتبع هذا الاتجاه الواقعي في شعر كثير من المحدثين أمثال « ادويس احد بيرا » التركي ، أو لوريكا Lorca الشاعر الاسباني ، أو و . ه . أودين W. H. Auden الانجليزي أو فاليري بريسوف Valeri Bryusov أو مايا كوفسكي Mayakovsky الروسيين وغيرهم ، وكثير

من شعر هؤلاء المحدثين ، يتحدث عن الحياة الواقعية وحاجات البشرية ، ويعتمد الوضوح والسهولة والجمال في الأعراب عن التجارب الشعرية [1] وقد بلغ من شدة تعصب ڤلاديمير ما ياكوڤسكي لهذا الاتجاه ، انه كان يرى ان الفن الذي يتحدث عن الحب والزهر والقصور ، فنٌ زريٌّ ، وانه ليخاطب الكتّاب في إحدى قصائده فيقول : «ماني جعبتكم ؟ وما تكتبون ؟ ان معاون أي عجام ليجد الحياة أكثر شوقاً مما تجدون ، فهلاّ ملتم أيها السادة الشعراء الحب والزهر والقصور ، ولئن كان مثلكم الخالقين ، فاني لا بصق على فنكم ! » .

ولكي اعطي فكرة تقريبية للمذهب الواقعي ، نسجل هنا بعض النماذج من شعر بعض الشعراء الذين أسلفنا ذكرهم قريباً ليدرك القارىء ، ما تتحلى به من صدق وبساطة وجمال أداء وفي خروجها على الصنعة التقليدية وعلى الرؤية الرومانتيكية .

ومن هذه النماذج نذكر قصيدة «حب عامل» [2] لادريس أحمد بيرا وقد جرت كالآتي :

واجهت مائدتي مائدتها
ووافى الصباح خبزتي وحبيتها
وانهمكتْ في عملها الى المساء دون أن ترفع رأسها
وفي صمت ، لبثت طوال النهار جادة عاملة

* * *

ومايضة [3] فتاة شابة مهذبة
أدواتها وكل مالها مرتب في مكانه
لا تضيع قلماً ، ولا تفقد ورقة
ولا تقوم بعمل الاّ بعد تدبر ودقة
وقد تتلاقى نظراتنا حيناً بعد حين
فتغطي الحمرة وجهها ، وتنكس رأسها
وتحتجب عيناها في ذؤابة شعرها الكثّ الفاحم

Horizon — The next Stage of Poetry — By Maurice Bowra — July — 1946 : 1 (١

(٣) مايضة : اسم الفتاة التركية Poesie 46 — avril No 81 : 2 (٢

وذات مرة ، طلبت مني كتاباً
فأخرت لها واحداً ، سطرت خطوطاً تحت بعض قطعه
ولا أدري كيف عرفت قصائدي
هنا وهنا ، دون أن تترك واحدة .

* * *

ويبدو لي أن اتفاقنا الودي قد انعقد
وليس أمامنا إلاّ انتهاء الحرب
حتى يتيسر العيشُ ، وتتغير الحال
وقد يزداد راتبي ، بمشيئة الله
وبهذا الأمل ، أحببتها وأحبتني !

* * *

وتعطف بدون اختيار من الشاعر الانجليزي الوافي و . هـ . أودين قصيدته « اللاجئون في غمة » [1] وهو يتناول فيها حال اللاجيء وآلام نفسه وشقائه ، وهو يجمع في قصيدته « خواطر بسيطة » ، ولكنها في مجموعها ، تثمر شعوراً عاماً مؤدياً الى العطف العميق عليهم ، وفيها يقول :

لنقل إن هذه المدينة يسكنها عشرة ملايين نفس
بعضها تسكن القصور الجميلة ، وبعضها تسكن الحقوق
ومع هذا ، فليس فيها مكان لنا ، يا عزيزي ، ليس فيها مكان لنا !

* * *

وكان لنا بالأمس وطن ، وظننا ناعماً طيباً
ونظرة الى الخارطة تجده هناك
ولكن من المستحيل الذهاب إليه الآن يا عزيزي ، من المستحيل الذهاب إليه الآن

* * *

وفي كنيسة قريتي ، نمت شجرة الشوحط العجوز [2]

---

(١) Refugee in blues

(٢) الشوحط : شجر دائم الاخضرار وهو بالانجليزية Yew

وفي كل ربيع أراها تنمو وتزدهر
وجوازات سفرنا لا تتجدد ، يا عزيزي ، لا تتجدد

* * *

وقد ذهبت يوماً الى لجنة من اللجان ، فأهانوني كرسيًّا
وطلبوا إليَّ في أدب ، أن أعود في العام القابل
ولكن أنّى نذهب اليوم ، يا عزيزي ، أنّى نذهب اليوم

* * *

ووجدت نفسي مرة في اجتماع عام ، فقام خطيب وقال :
لو تركناهم يدخلون ، فسوف يسلبون خبزنا اليومي
انه يتكلم عنك وعني ، يا عزيزي ، انه يتكلم عنك وعني !
وسار على مثل هذه الخواطر وفي الفترة الأخيرة قال :
وسمعت في الغابة ، فرأيت العصافير على الأشجار
ليس لديها عصفورن سياسيون ، وتغني كلها في سرور
وذلك لأنها ، ليست من الجنس البشري ، يا عزيزي ، ليست من الجنس البشري

* * *

ويطالعنا ڤاليري بريسوف ، الروسي بقطعته الفريدة « قاطع الحجر »[1] وهو يبذر فيها بذور التفكير ، والثورة الكامنة في قلب العامل من جهة ، ويظهر من جهة أخرى قدرية العامل ورضائه دون تفكير ، وهذه القطعة تجري في شيء من الرمزية على هيئة حوار متبادل أجراه الشاعر بين فني وعامل ويدور الحوار كالآتي :

يا قاطع الحجر ، يا قاطع الحجر ، يا لابس الأبيض
ما ذا تبني ؟ ولمن ؟
— هيه ، لا تضايقنا ، فعلينا أن نبني حصناً
فمن هذا الحجر ، نُقيم سجناً

* * *

يا قاطع الحجر ، يا قاطع الحجر ، يامن تسويه أجل تسوية

(1) The Stonecutter — The Book of Russian Verse, Edited By c. M. Bowra p. 92.—1943

أي إنسان بداخل السجن ، سوف يشق فيه ويهجي ؟
— لن يكون أخاك ، ولن تكون أنت أيها الغني
إذ أنك لن تعرف ، أبداً ، كيف تسرق

* * *

يا قاطع الحجر ، يا قاطع الحجر ، فمن إذن
سوف ينتحب فيه ، ويسهر في ظلامه
— قد يكون ابني ، أو عاملاً مثلي
وهذا هو الحل الذي يقع على كواهلنا

* * *

يا قاطع الحجر ، يا قاطع الحجر
أتظن أن فكر السجين ، سيروح الى الذين هيأوا بناء السجن ؟
— هيه ، انظر الى المرقاة ليست موضعاً للدعابة !
نحن نعرف كل ما تذكر ، فلا تكثر

* * *

وقد وعى الشعر الروسي قطعاً ممتازة ملونة بهذا اللون ، ومن ذلك نذكر قصيدة « الجائع »[1] The Hungry One — لنيكولاي نيكراسوف وهي قصيدة وصفية بديعة عن الفلاح ، وقد جرت كالآتي :

يقف الفلاح ، بنظرة شاحبة ، وأنفاس لاهثة ، يتمايل ويترنح
ومن طعام الأشنة[2] ، والخبز المصنوع من قشور الشجر ، تورّم شكله ، وأظلم وجهه وتقوّرت عيناه وتحدّرت روحه
وبخطوات وئيدة ، كما لو كان في نعاس ، يمشي الى حيث الجويدار[1] ينمو
وعلى حقله ، يلقي نظرة طويلة ، ويقف مغنيًا أغنية صامتة ، « ترعرع ، ترعرع ، أيها الجويدار الرؤوم ، لقد عينتك ، وأنا راعيك
فهبني رغيفاً ، هائل الحجم ، وكعكة متماسكة ، كأمنا الأرض

* * *

(١) The Book of Russian Verse — By Bowra p. 72

(٢) طعام المجاعة : Famine Food

وواضح من هذه النماذج الأربعة التي أسلفنا ، أنها تصور الواقع ، أو تثور عليه ، وصياغتها مع سهولتها لم تفقد سحرها وأسرها ، ومثل هذا الاتجاه لا يقدر عليه إلاّ الموهوبون ذوو الطاقة القوية والذين تبلورت مبادئهم الاجتماعية ، أو أولئكم الذين يمكنهم أن يتعمقوا الأشياء ، ويغوصوا في أغوار الحياة ، ويخرجوا من زبد الحقائق أفكاراً جوهرية ، يصوغونها في صور حية ، كما يقول جوركي ، بل أولئكم الذين اتقدت نفوسهم ، واشتعلت أرواحهم ، وانبثق اللهب في قلوبهم ، كما يقول « بوشكين » رائد الشعر الروماني الواقعي في القرن التاسع عشر في قصيدته « النبي » التي يصف فيها الشاعر الثائر يقول : « جُلت في فلاً روحيّ ملتهب ، جُلت متعباً في وديان مقفرة ، وعجبت اذ رفرف عليّ ملاك مجنّح ، التقى بي في طريق متقطع ، وبلمسة ناعمة كملتات النوم ، وضع أصابعه على جفنيّ ، وفتّح عينيّ في انتباه ، كما لو كانت عيني نسر مرتاع ، ولمسَ أذني ، فامتلأ جرساً ودويًّا ، وهنا رأيتُ اهتزاز السكون ، وتطواف الملائكة والحيوان الزاحف والكرمة التي تعلو جانب الوادي — ثم اقترب من فمي وأخرج في عنف لساني الآثم ، الموشى بالغرور والمكر ، وضغط على شفتيّ الواهنتين ، وصوّب اليهما رمحاً ، فسال الدم الأحمر على أصابعه وبهذا الرمح شق صدري ، وأخذ قلبي المرتعب ، ووضع مكانه جمرة متقدة ، وضغط على الجرح المشخن — وهنا رقدت طويلاً كالموتى في الصحراء الواسعة واذ بي أسمع أخيراً صوت الله يقول : قم أيها النبي مشبعاً بتعاليمي ، وكرّ كلك عيوناً وآذاناً ، وسع فوق متن البحار والبراري واملأ قلوب البشر بالكلم الناري المتوهج »

* * *

وإنما وقفنا هذه الوقفة الطويلة توماً في باحة الشعر الواقعي لندفع قالة بعض أدبائنا الشرقيين الذين لا يزالون يعتنقون مذهب الفن للفن ، والذين لا يعليب لهم العيش الاّ في السحاب والأبراج العاجية ، والذين لا يرون الشعر إلاّ متعة ، أو تحفة باذخة ، وأنه لا هدف له الاّ أن يحدث فينا هزة ويتلقنا الى عالم أسواره النجوم [1]

---

(١) تراجع مقدمة ديوان « طائرة ورقية » للاستاذ نزار قباني

فهذه نظرة ضيقة الأفق يبتسم لها الأدباء المحدثون ، ولا يقرونها ، لأنها لا تكبل الشعر وتقصره على دنيا الخيال ، وعالم الضباب ، وتجعله متخلفاً عن الفنون الرفيعة جميعاً ، تلك التي تتناول كل مظاهر الفكر والشعور والحلم والخيال ، والواقع والحياة

ونظرة فاحصة في الشعر العالمي في الوقت الحاضر ، تظهر لنا أن الشعر لا يتقمص ناحية واحدة ، وإنما يلج جميع الأنحاء ، وموضوعاته غير مقصورة على دنيا الخيال والأحلام ، ولكنها تعتمد مظاهر المجتمع ودنيا السياسة والسيكولوجيا وعالم الكون والانسانية ، وتتناول هذه الموضوعات الجديدة بوسائل شعرية فنية ، ولم يعد الشاعر في العصر الحديث ذلك الطفل غير المسئول — كما يقول دايتشي Daiches في كتابه « الأدب والمجتمع » ولا ذلك الأنسان الذي يتمتع فئة خاصة ويهدهد نفوسها بأغانيه . بل أصبح اليوم رجلاً يشعر شعوراً جديداً بالمسئولية ، وقوة حافزة الى الجهاد والكفاح في الحياة ، والعمال اللهب الوطني في الأمم المستعبدة . والدارس للأدب العالمي يجد أن أغلب الشعر الحديث يتجه الى الحياة والى البشرية (١)

وفي السنين العشرة الأخيرة توجه الشعر الى ناحيتين : الأولى التحدث عن مساوىء المجتمع ، والثانية التحدث عن العلاقة بين الفرد والمجتمع . ومن أشهر من تناول الناحية الأولى من الانجليز و . ه . أودين ، ومن الروسيين بوريس باسترناك Boris Pasternak ، وفي أسبانيا رافائيل ألبرتي ، وغيرهم . ومن أشهر من تناول الناحية الثانية وهي الناحية السيكولوجية . ت . س . إليوت T. S. Eliot وبيتس Yeats وغيرهما ، ولم يخل شعر هؤلاء المعاصرين وأمثالهم من التحدث عن الحب وعن الطبيعة ، مع اختلاف في الصياغة فمنهم من مال الى الصياغة المتقنة الماهرة ، ومنهم من هام بالصياغة السهلة العادية المؤثرة والقليل منهم لاذ الى الصياغة الخفية الموحية

* * *

ومن هذه اللمحة الطائرة التي سقناها قريباً ، يتضح أن الشعر العالمي لم يقتصر على ناحية دون ناحية ، ولم يقف عند مذهب دون مذهب أما شعرنا الشرقي فقد تأبى المذهب الاتباعي ، وحاكاه كثيراً ، وتأثر المذهب الابتداعي ، وأخرج قرائد شعرية فيه . وأما المذهب الواقعي فلم يقربه إلا قلة من الشعراء ، وقد ظهر لبعض الشباب فلتات نوادر أثبتنا في هذه الدراسة منها مثالين بارعين أحدهما بعنوان « إصرار » للشاعر محمد كمال ، وثانيهما

(1) Horizon — The next Stage of Poetry — By Maurice Bowra.

بعنوان « تمرد » الشاعر نذير المعاني ، وهناك شعراء آخرون أجادوا في هذه الناحية مثل رئيف خوري في مثل قصيدته « العبد » [1] التي جاء فيها :

أنا المضطهد الصارخ من أعماق حرماني
أنا الباني ولكني أنا المطرب بلياني
أنا الإنسان مسوخاً يبؤسي ، غير إنسان
أنا العائش كالميت بلا قبر وأكفان
أنا الحافي ، أنا العاري أنا الجائع والظامي
سبيلي ملؤها الأشواك من خطوي وقدامي !

وترحيبنا بشعر الشباب في هذه الناحية وفي غيرها من النواحي التجديدية راجع الى تأميلنا في أن يتقدم بعضهم رائدة للحركة الشعرية التجديدية القابلة ، وليس هذا ببعيد فقد وضع في انجلترا الفتى توماس شترتون Thomas Chatterton بذرة الابتداعية في سن السادسة عشرة وتأثره شعراؤها الجبيرون [2]

« الخاتمة »

وبعد ، فانا لنلقي القلم ، بعد هذه الجولة الطويلة في الشعر المعاصر وفي مذاهبه الأدبية والنقدية ، والنفس لم تدرك مناها في ترضية كثير من شعراء الشرق حقهم . ولقد أبى ضيق الدراسة علينا إيراد كثير من نماذجهم ، والترجمة لهم ، ولئن حرمت هذه الصفحات من درر كثيرة ، فلن تحرم هذه الدرر من التقدير ، وكفانا جذلاً وحبنا ان حشدنا من النماذج الشرقية مجموعة ضخمة متنوعة تمثل الجو الفكري السائد في العصر الحديث . وتعد هذه المجموعة مفخرة للشعر الشرقي الحاضر ، إذ انها تزخر بألوان فريدة من الشعر تفوق مرات روائع الشعر العربي القديم ، بل مثيلاتها في الشعر الغربي الحديث

ولو أتيح لهذه الألوان الشعرية المتنوعة عربي متضلع في الأدب الغربي ، ونقل شيئاً من روائع مطران ، وايليا أبو ماضي ، وفوزي المعلوف ، وأبو شادي والجواهري والعقاد ، وناجي ، وعمر أبو ريشة ، وأمين نخلة ، وسعيد عقل ، وحبيب ثابت ، وبشارة الخوري ،

(١) مجلة « الجهور » القاهرية ، العدد الممتاز ١٠٧ — ١٣ كانون الثاني ١٩٣٩

(2) The Milk of Paradise By Forrest Reid P. 22

وميخائيل نعيمة ، ورشيد أيوب ، وشكر الله الجر ، ونسيب عريضة ، والياس فرحات ، والياس أبو شبكة ، والصيرفي ، والشابي والتيجاني والهمشري وصالح جرديت ، وبدوي الجبل ، وعلي الناصر ، ونزار قباني ، ولعمة قازان ، وفلال مكرزل ، وفؤاد سليمان ، والياس زخريا ، وصلاح لبكي ، وصلاح الأمير ، وعلي محمود طه ، وميخال عقل ، وعبد الرزاق محي الدين ، والسماوي ، والصافي النجفي وغيرهم ممن ضمت هذه الدراسة ومن لم تضم ، لو أتيح لعربي مثقف قبور نقل مجموعة من روائع هؤلاء المحدثين لكان لها شأن خطير وأي خطير .

وقد يكون لمثل هذه المجموعة في لغتها أكبر الخطر ، إذا نشرت وذاعت في البلاد العربية لأنها تعاون معاونة حقة على التبادل الأدبي والتوجيه التجديدي ، موضوعاً وأسلوباً ، وتكون أولى بالدراسة والنقد من كثير من الشعر العربي القديم أو الاتباعي الحديث الذي أفرغت به الرجعية الأدبية في بعض البلاد الشرقية .

وليس ريب في أن الشعر المعاصر المتعدد النواحي يتطلب نقداً ذكياً سليماً متعدد النواحي وقد أبنّا في هذه الدراسة تيارات النقد المختلفة وأساليب النقاد الملتوية ، ومنها يتجلى ضرورة النقد المثقف الذكي ، ومسئولية النقاد في إنصاف الأعمال الأدبية ورعاية كرامة الأدباء .

والحق أن عمل الناقد عريض شاق ، يتطلب كما ذكرنا في بداية هذه الرسالة ، ذكاء وحساسية وثقافة وأفقاً واسعاً ، فعمله لا ينتهي عند تصويب لفظة أو تقويم عبارة أو تصحيح هفوة عروضية ، كما قد يخيّل لأصحاب المذهب الفقهي ، بل إنه يشمل النظر إلى العمل الأدبي نظرة فنية واسعة بالتأمل في تجربة الشاعر والتجاوب معه ومعرفة مدى توفيقه في أداء هذه التجربة ومواءمة الأداء للتجربة ، ثم النظر بعد ذلك في عناصر الصياغة من أخيلة ومعانٍ وموسيقى ووحدة ، وفحص مثل هذه العناصر قد يوجب الرجوع إلى الماضي لتعرّف مدى استقلال الشاعر وإصالته وأمانته وبعده عن التقليد أو المحاكاة أو الانتهاب من غيره ، ولا يقف عمل الناقد عند هذا الحد بل قد يحتاج الناقد في اكمال نقده إلى معونة السيكولوجيا وتعرّف أثر شخصية الشاعر في شعره من الوجهة الموضوعية أو الأسلوبية ، ومعنى هذا أن الناقد لا يحصر نقده على المذهب الفني البحت ، بل يعتمد النظرتين التاريخية والسيكولوجية معاً .

ومن النقاد من لا يكتفي بهذه النظرات السابقة بل يدخل في تقديره أهمية الموضوع وينزله منازله بحسب قداسة هدفه أو خطورته ، فالموضوع الذاتي أو الشخصي لا ينزل منزلة الموضوع العام أو الكوني ، أو الذي تتمثل فيه الطبيعة البشرية ، والموضوع الذي

يحوي أفكاراً مؤقتة طارئة ، لا يبلغ مكانة الموضوع الذي يحوي أفكاراً باقية. وهذه النظرات الجديدة ، هي نظرة النقاد الرائعين ، فإذا ما أضيفت إلى النقدات الفنية السالفة ، كان لها قيمتها في التقدير الكامل للنقد العربي الحديث المعاصر .

وقد يرى القارىء أننا حاولنا في هذه الدراسة أن نوحّد بين النظرات النقدية المختلفة فتحدثنا في إقامة عن النقد الفني ، وطبقنا قواعده ومقاييسه على الشعر المعاصر ، ونظرنا إلى شعر بعض الشعراء نظرة سيكولوجية ، وطبقنا هذه النظرة على بعض نماذج مطران وبشارة الخوري وزكي مبارك وغيرهم . وفي ناحية أخرى من الدراسة حاولنا تطبيق المنهج التاريخي ، فقابلنا بين بعض قصائد شكري والعقاد وتركنا الحكم النهائي في قصيدتين لها لبعث الدارسين ، وقدّمنا في صدر هذه الدراسة صفحات عن المذهب النقدي الواقعي ، وطبقنا بعض وجهاته على شعر حافظ ، ولم نقف أن نقف عند هذه المذاهب النقدية ، بل تحدّثنا حديثاً موجزاً عن المذهب الرمزي والسريالي ، وذكرنا أن هذين المذهبين نظرة تختلف كثيراً عن النظرة النسبية أو الواقعية ، وهي نظرة لا تهتم بنقل التجربة للقارىء ، وتزري بالفكر وباليقظة وتقدر التعبير الأدبي أو الشعري بما يحوي من تجارب الحلم ، واللاشعور ، وما وراء الوعي ، وبتأدية التعبير الأدبي تأدية تلقائية .

وبقية في إغناء الشعر المعاصر وتنويع ألوانه وزيادته غنىً ، عنينا بعض العناية بالتيارات الأدبية الجديدة في الشرق مثل التيار الرمزي والسريالي والواقعي وحللنا الشعراء ذوي الاستعداد والقابلية الى اتجاه هذه النواحي ، واستلهام الحلم واللاشعور حيناً ، وتناول مظاهر الحياة وواقعها حيناً آخر على قدر طاقتهم وأمزجتهم ووفقاً لميولهم المنطوية أو الخارجية أو الجامعة بين الانطوائية والانبساطية . وأوردنا في هذه النواحي بعض النماذج لشعراء جيدين برزوا فيها بروزاً كبيراً .

ونأمل بعد هذه البحوث الثانية وبما وضعت من نماذج مستفيضة الصياغة أن يتوجه الأدباء وجهة تجديدية طريفة ، موضوعاً وأسلوباً ، وأن يقدر النقاد المسئولية الخطيرة الملقاة على كواهلهم ، وأن تولّى ، الى غير رجعة ، تلك النقدات الذاتية المنحرفة أو الجزئية القصيرة النظر التي طالما على البيئة الأدبية في الشرق المتوقل لنهضة عصرية باهرة .

فهرس الموضوعات

	من ٣
البحث الأول — النقد الأدبي ومذاهبه	
توطئة	٣ — ٦
مذاهب النقد	٧
المذهب الفني	٧ — ١٠
المذهب الواقعي	١١ — ١٨
المذهب الفقهي	١٩ — ٢٣
البحث الثاني — مقاييس النقد الفني	٢٤
التجربة الشعرية	٢٤ — ٤٥
الصياغة الشعرية	٤٥
الأخيلة الشعرية	٤٦ — ٥٠
الموسيقى والأسلوب	٥٠ — ٥٦
الألفاظ الشعرية	٥٧ — ٦٦
الأسلوب التقليدي	٦٦ — ٦٨
الشخصية والأسلوب	٦٨ — ٨١
الوحدة الشعرية	٨٢ — ٩١
البحث الثالث — الاتجاهات الشعرية	٩٢
الاتجاهات الرافية	٩٣ — ٩٥
الاتجاهات النازلة	٩٥ — ١٠٢
البحث الرابع — الفكر في الشعر	١٠٣
نماذج ، لخليل مطران	١٠٣ — ١٠٤
« للشرتوني	١٠٤
« لاسماعيل صبري	١٠٤ — ١٠٥
« لمفيد الشوباشي	١٠٥
« لأبي شادي	١٠٥ — ١٠٦

رأي هوبسمان في الشعر	ص ١٠٦ — ١٠٧
طغيان الفكر على العاطفة	١٠٧ — ١٠٨
البحث الخامس — الموسيقى الشعرية	١٠٩
موسيقى الزنين	١٠٩
موسيقى الهمس	١١٠
موسيقى الجهر	١١١
تفاوت الأصوات وتفاطيعها	١١١
الموسيقى السلسة	١١٢ — ١١٣
الموسيقى الارتكازية	١١٣ — ١١٥
المسافات الصوتية	١١٦ — ١١٧
الموسيقى الكلية	١١٨
الشعر المقفى والمتحرر	١١٨ — ١٢٤
البحث السادس — الشعر الرمزي	١٢٥
نماذج لفاليري	١٢٧
« لبلوك	١٢٧
« ليتس	١٢٨
« لورت ردجز	١٢٨
« لميشال بشير	١٢٩
« لسعيد عقل	١٢٩ — ١٣١
« لايليا أبو ماضي	١٣١
« لنزار قباني	١٣١ — ١٣٤
« لصلاح الأمير	١٣٤
« لحسن كامل الصيرفي	١٣٤
رمزية الدكتور بشر فارس	١٣٥ — ١٣٩
السريالية الشعرية	١٤٠
نماذج لدانيل جاسكوين	١٤٢ — ١٤٣

نماذج لكيريكو	ص ١٤٣
« لكامل أمين	١٤٤ — ١٤٦
« جورج حنين	١٤٦
البحث السابع — نقد الشعر في مصر	١٤٧
كتاب الديوان للمازني والعقاد	١٤٨ — ١٥١
شعر شوقي	١٥١ — ١٥٧
« عبد الرحمن شكري	١٥٨ — ١٦٦
كتاب « على السفود » للرافعي	١٦٧
شعر العقاد	١٦٧ — ١٧٢ و ٢١٢ — ٢١٣
رسائل النقد لزكي مبارك	١٧٢ —
أدباء معاصرون للزعلاوي	١٧٥
شعر أبي شادي	١٧٥ — ١٩٠
حديث الأربعاء للدكتور طه حسين	١٩٠ — ١٩١ و١٩٩ — ٢٠٠ و٢٠٣ — ٢٠٤
شعر حافظ ابراهيم	١٩١ — ١٩٩
« على محمود طه	١٩٩ — ٢٠٣ و ٢١٠ — ٢١١
« الدكتور ابراهيم ناجي	٢٠٣ — ٢٠٦
« محمود أبو الوفا	٢٠٦ — ٢٠٧
كتاب « في الميزان » للدكتور مندور	٢٠٧ — ٢١٠ و ٢١٣ — ٢١٥
شعر محمود حسن اسماعيل	٢١٣ — ٢١٤
بحث الدكتور اسماعيل أدهم عن مطران	٢١٥ — ٢١٧
البحث الثامن — المذاهب الأدبية والنقدية	٢١٨
المذهب الاتباعي (الكلاسيكي)	٢١٨ — ٢٢٥
شعر البارودي	٢١٩ — ٢٢٠
« على الجارم	٢٢١ — ٢٢٢
« أحمد الأمين	٢٢٢
الصياغة المستقلة	٢٢٤ — ٢٢٥

المذهب الابتدائي (الرومانتيكي)	ص ٢٢٥
شعر الهرب والفرار من الواقع	٢٢٦ و٢٢٧ — ٢٢٨
الشعر الذاتي	٢٢٨ — ٢٣١
الشعر الجنسي والمنحرف	٢٣١ — ٢٣٢
شعر الموضوعات التافهة	٢٣٢ — ٢٣٤
بذور الواقعية	٢٣٥ — ٢٤٠
ضغط البيئة على الأدباء	٢٤٠ — ٢٤١
انتكاس الرومانتية	٢٤١ — ٢٤٢
المذهب الواقعي	٢٤٣
نماذج لالياس قنصل	٢٤٤
« الحبوبي	٢٤٤ — ٢٤٥
« الجواهري	٢٤٥ — ٢٤٦
« ضياء الدخيلي	٢٤٦
« نذير الحساني	٢٦٤ — ٢٤٧
لمحة من الشعر الواقعي العالمي	٢٤٧ — ٢٥٢
نماذج لأحمد بيرا	٢٤٨ — ٢٤٩
« ل، و. ه. أودين	٢٤٩ — ٢٥٠
« لتاليري بريسوف	٢٥٠ — ١٥١
« لنيكولاي نيكراسوف	٢٥١
« لبوشكين	٢٥٢
الاتجاهات الفنية الحديثة	٢٥٣
الخاتمة	٢٥٤ — ٢٥٦